فيض المنان في علوم القرآن

دكتور
مصطفى رجب

٢٠٠٠
الناشر
المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات

الناشر
المكتب المصري لتوزيع المطبوعات
٥ ش مصطفى طموم ـ المنيل ـ القاهرة
تليفاكس : ٣٦٥٥٤٨٧

فيض المنان
في علوم القرآن

دكتور
مصطفى رجب

رقم الإيداع ٢٠٠٠/١٠٩١٣

الترقيم الدولى I.S.B.N -977-5841-10-0

فهرست الكتاب

مقدمة.	٤
تطور التأليف فى العلوم القرآن	٥
فضل تعلم القرآن	١٢
فضل القرآن وحفظه	١٥
المبحث الأول: أول ما نزل من القرآن الكريم	١٩
المبحث الثانى: آخر ما نزل	٢٦
المبحث الثالث: ترتيب السور والآيات	٤١
المبحث الرابع: فواتح السور	٦١
المبحث الخامس: المكى والمدنى	٨٠
المبحث السادس: أسباب النزول	٩٨
المبحث السابع: القسم فى القرآن	١١٣
المبحث الثامن: العام والخاص	١٢٨
المبحث التاسع: المطلق والمقيد	١٥١
المبحث العاشر: موهم التناقض	١٦٥
المبث الحادي عشر: المنطوق والمفهوم	١٧٧
المبحث الثاني عشر: الناسخ والمنسوخ	١٩٢
المبحث الثالث عشر: المجمل والمبين	٢٢١
المبحث الرابع عشر: مبهمات القرآن	٢٣٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

اللهم إنك قلت وقولك الحق ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾. (فاطر/٣٢). وقلت وقولك الحق ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) ﴾. (الطور/٢١).

اللهم إنى أسألك بأسمائك الحسن أن تتقبل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم، وأن تكتب ما تتفضل به علىّ من ثواب فى صحيفة والدى فضيلة الشيخ محمد أحمد رجب رحمه الله. الذى حفظت على يديه كتابك العظيم. وأن تجمعنى وإياه تحت ظل رحمتك يوم لا ظل إلا ظلك. وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى اله عدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك...

مصطفى رجب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى خلق فسوى وقدر فهدى. أرسل رسوله بالهدى ودين الحق فبلغ الرسالة وأدى الأمانة فصلى الله عليه وعلى آله وجزاه عن الأمة خير ما يجزى نبياً عن أمته.

وبعد، ، ،

فهذه دروس في علوم القرآن الكريم يحتاج إليهم المسلم العادي، والقاضى، والمفتى، لأن الإقدام على القول فى كتاب الله تعالى بالهوى جريمة لاتغتفر.

وهذا الكتاب يضم مقدمة تناولت فيها تطور التأليف فى علوم القرآن، ثم يضم بدع ذلك أربعة عشر علماً من علوم القرآن الكريم، معظمها مما يعرض عنه الكاتبون فى هذا المجال. ويتبعه قريباً إن شاء الله قسم ثان يضم ما لم يضمه هذا الكتاب من بقية علوم القرآن مع إحصائية بالمخطوطات التى ما تزال بحاجة إلى تحقيق فى شتى هذه العلوم.

وقد توخيت فيه سهولة العبارة وضرب الأمثلة وتوضيح الخلافات ومناقشة الأدلة بأسلوب رأيت أنه يناسب الكثرة الكاثرة من القراء.

ولا أدعي أني أتيت فيه بما لم يستطعه الأوائل، وأنما هو غاية الجهد ونهاية الطاقة، والتقصير صفة الإنسان والكمال لله تعالى حده.

أسأل الله تعالي أن ينفع به قارئه، وأن يجعله فى ميزان حسناتنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

أ.د/ مصطفى رجب
عميد كلية التربية بسوهاج

تطور التأليف فى علوم القرآن

ظهرت الحاجة إلى دراسة علوم القرآن الكريم مع تطور الفقه الإسلامى لارتباط الفتوى بمعرفة الأحكام المتعلقة بالآيات الكريمة (التى هى الدليل الأول من أدلة الحكم الشرعى) من حيث سبب النزول، والنسخ، والإحكام والتشابه. وغير ذلك، مما يعترى الآيات القرآنية. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد أدى ظهور علم الكلام والجدال حول آيات الصفات إلى تطور البحث فى الإعجاز القرآنى، وما يتصل به من علوم البلاغة كالحقيقة والمجاز وما إلى ذلك.

ويبدو أن البحث فى علوم القرآن قد بدأ مبكراً، فقد روى أن هارون الرشيد سأل الإمام الشافعى رضي الله عنه فقال:

«كيف علمك ياشافعى بكتاب الله عز وجل؟ فقال الشافعى: عن أى كتاب من كتب الله تسألنى يا أمير المؤمنين؟ فإن الله تعالى أنزل كتبا كثيرة، قال الرشيد: قد أحسنت، لكن إنما سألت عن كتاب الله المنزل على ابن عمى محمد ﷺ فقال الشافعى: إن علوم القرآن كثيرة، فهل تسألنى عن محكمه ومتشابهه، أو عن تقديمه وتأخيره، أو عن ناسخه ومنسوخه، وصار يرد عليه من علوم القرآن».

ويمكننا أن نتوقف ـ فى تطور علوم القرآن ـ عند ثلاث مراحل أساسية:

الأولى: مرحلة البحث النوعى فى علوم القرآن: وهى تمتد عبر القرون الستة الأولى من عمر الإسلام وفى هذه المرحلة ظهرت مؤلفات تبحث فى ناحية أو أكثر من علوم القرآن، وحمل كل مؤلف منها اسم الناحية التى تفرد بدراستها: ومن كتب هذه المرحلة:

١ ـ كتب التفسير الموجودة والمفقودة المنسوبة لبعض التابعين، وتابعى التابعين، كمقاتل بن سليمان، ومجاهد بن جبر، ووكيع بن الجراح، وسفيان بن عيينة، وشعبة بن الحاج.. وغيرهم. وتتضمن هذه الكتب إشارات لأنواع من علوم القرآن كالناسخ والمنسوخ، والمكى والمدني، وردت ضمنيا فى ثنايا التفسير. وختمت هذه الكتب بأول تفسير جامع للقرآن الكريم وصل إلينا كاملا وهو تفسير محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ) المسمى *(جامع البيان فى تفسير القرآن)* الذى يعد هو البداية الحقيقية للتدوين المتكامل فى التفسير وعلوم القرآن، وقد احتوى كتابه (جامع البيان) إشارات لابأس بها إلى بعض علوم القرآن عندما يدعو إلى ذلك تفسيره لإحدى الآيات ذات الصلة بذلك العلم فمثلا عندما يفسر قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ (٧) ﴾. (آل عمران/٧). يذكر الآراء والروايات المنقولة فى تفسير كل من المحكم والمتشابه، كما تحدث عن المجمل والمبين والعام والخاص حديثا خاطفا عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) ﴾. (النساء/١١٩)، وتحدث عن الناسخ والمنسوخ عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) ﴾. (البقرة١٠٦).

وكذلك تحدث عن الأحرف السبعة وجمع القرآن وترتيب سورة.

وقد كان لكتب التفسير الفضل فى التمهيد لعلوم القرآن من خلال تلك المقدمات التى وضعها المفسرون لكتبهم فى التفسير وأشاروا فيها لما يتصل بالقرآن، وتفسيره من علوم كما هو الحال فى مقدمة تفسير الطبرى (جامع البيان) وصنع صنيعه الزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) فى مقدمة تفسيره (الكشاف) ثم القرطبى (ت ٦٧٠ هـ) فى مقدمة تفسيره *(الجامع لأحكام القرآن الكريم)* ثم ابن جزى الكلبى (ت ٧٤١ هـ) فى مقدمة تفسيره.

٢ ـ *كتب متخصصة فى علم أو أكثر من علوم القرآن:* وقد ظهر خلال القرن الثالث الهجرى علماء كتبوا مؤلفاتهم فى نوع معين من علوم القرآن مثل:

أ ـ القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) وله كتاب فى غريب القرآن، وكتاب فى فضائل القرآن، وثالث فى الناسخ والمنسوخ.

ب ـ أبو داود السجستانى (ت ٢٧٥ هـ) وله كتاب فى الناسخ والمنسوخ، وكتاب (المصاحف) الذى حققه الدكتور صلاح الدين الجيزاوي، فى *كليه أصول* الدين ـ جامعة الأزهر.

ت ـ على بن المدينى (شيخ البخاري) (ت ٢٣٤ هـ) وله كتاب فى أسباب النزول.

ث ـ كتاب (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ).

جـ ـ محمد بن أيوب الضرير (ت ٢٩٤ هـ) وله كتاب فى المكى والمدنى اسمه (فضائل القرآن).

كما ظهرت فى القرن الرابع الهجري: كتب أخرى أكملت حلقات البحث العلمى فى علوم القرآن منها:

١ ـ (كتاب الحاوى فى علوم القرآن) لمحمد بن خلف المرزبان (ت ٣٠٩هـ)

٢ ـ كتاب (عجائب علوم القرآن) لأبى بكرالأنبارى (ت ٣٢٨ هـ)، ويشتمل على الأحرف السبعة وكتابة المصحف وعدد الآيات والسور.

٣ ـ كتاب (غريب القرآن) لأبى بكر السجستانى (ت ٣٣٠هـ).

٤ ـ كتاب (الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم) لأبى جعفر النحاس (ت ٣٣٩هـ).

٥ ـ كتب فى (إعجاز القرآن) للخطابى (ت ٣٨٨هـ). وآخر للرمانى (ت ٣٨٤هـ).

فلما كان القرن الخامس الهجرى بدأ نوع من التوسع يطرأ على ما تم تأليفه من كتب فى علوم القرآن بصورة أكثر دقة وتعمقاً عما كان فى القرون السبقة، فبدلاً من أن يكون الكتاب قائماً على دراسة علم واحد من علم القرآن، أصبحنا نجد كتبا تضم عدة علوم من علوم القرآن.

ومن الكتب التى اشتهرت من مؤلفات القرن الخامس:

أ ـ كتاب (البرهان فى علوم القرآن) للحوفى (بفتح الحاء) وهو على بن ابراهيم بن سعيد الحوفى (ت ٤٣٠هـ) وقد سبب اسم هذا الكتاب لبسا لدى كثيرين ممن ألفوا فى علوم القرآن فى عصرنا هذا فظنوه كتاباً مختصا بعلوم القرآن لا فى التفسير، وهو ما يزال مخطوطاً حيث توجد منه ستة أجزاء متفرقة مخطوطة تحمل رقم (٥٩ تفسير) بدار الكتب المصرية ليس من بينهاالجزء الأول وتتمة اسم الكتاب هكذا (البرهان فى علوم القرآن من الغريب والإعراب والأحكام والقراءات والتفسير والناسخ والمنسوخ وعدد الآى والتنزيل والوقف والتمام والاشتقاق والتصريف)، وقد اطلعت على أجزاء كثيرة منه لدى زميلنا الدكتور

محمد محمد عثمان الأستاذ المساعد فى كلية الآداب بسوهاج والذى كانت رسالته للدكتوراه عن (منهج الحوفى فى التفسير) فرأيت أن كتاب الحوفى هو فى حقيقته كتاب فى التفسير أساساً ويسير على منهج القدماء فى التفسير التحليلى الموافق لترتيب المصحف، ولكنه يتضمن إلى جانب ذلك أنواعاً لا بأس بها من علوم القرآن الكريم هى التى وردت فى عنوان الكتاب ولكنها منبثة فى ثنايا التفسير.

ب ـ وللحوفى نفسه كتاب فى (إعراب القرآن).

ت ـ كما كتب أبو عمرو الدانى (ت ٤٤٤هـ) كتابا فى القراءات.

ث ـ كما كتب الباقلانى (ت ٤٠٣هـ) كتابا متميزا امتدحه الكثيرون (فى إعجاز القرآن).

المرحلة الثانية: مرحلة بدء تدوين هذا العلم مكتملاً:

ويعد كتاب (فنون الأفنان فى علوم القرآن) لابن الجوزى (ت ٥٧٩هـ) هو البداية الحقيقية للتأليف فى علوان القرآن بالمعنى الفنى الاصطلاحى المعروف، أى بوصف علوم القرآن علماً، والحقيقة أن ابن الجوزى من أكابر علماء الأمة الذين أولوا عناية فائقة لعلوم القرآن، ففى كتابه الذى أشرنا إليه (فنون الأفنان فى عجائب علوم القرآن) تناول فضائل القرآن والأحرف السبعة، ولغات القرآن. والمكى والمدنى والوقف والابتداء والمتشابه.. إلخ ثم ألف كتابا آخر أسماه (المجتبى من المجتبى)، احتوت مقدمته حديثا طيبا عن «فصل الخطاب فى القرآن الكريم» وهو الجديد فى هذه المقدمة التى احتوت إلى جانب هذا الجزء كثيراً مما أورده فى كتابه الشهير (فنون الأفنان).

وقد حقق هذا الكتاب أكثر من مرة وطبع أكثر من مرة لما له من قيمة من جهة، ولجرأة بعض الباحثين وهجومهم على تحقيق ما هو محقق من جهة أخرى.

المرحلة الثالثة: مرحلة استقرار معالم هذا العلم:

وقد استقر علم (علوم القران) وأخذ معالمه المتميزة على يدى الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشى (ت ٧٩٤هـ) صاحب كتاب (البرهان فى علوم القرآن)، ويعد هذا الكتاب هو الأساس الحقيقى لعلوم القرآن بمفهومها العلمى الدقيق فقد ذكر فيه سبعة وأربعين علماً من علوم القرآن أى أنه زاد عن ضعف أو أضعاف ما تناوله سابقوه ممن كتبوا فى علوم القرآن.

ثم جاء السيوطى (ت٩١١هـ) فأشاد بكتاب الزركشى واعتمد عليه فى تأليف كتابه الشهير (الإتقان فى علوم القرآن) اعتماداً كاملاً حتى إنه نقل عنه كثيراً من الفقرات مرة وهو يعزوها إلى الزركشى ومرة دون عزو، كما أخذ عنه بعض تقسيماته وتعريفاته.

ومن عهد السيوطى إلى عصرنا الحاضر لم تعرف المكتبة العربية كتباً ذات قيمة حقيقية تضيف رصيدا جديداً إلى علوم القرآن.

حتى بدأت مع أواسط القرن العشرين نهضة علمية جديدة فى الأزهر أوائل الثلاثينيات حين أنشأت الكليات الأزهرية بأسمائها الحالية، فقدم المشايخ الأوائل رواد التعليم فى كلية أصول الدين كتباً جيدة فى علوم القرآن ومنهم الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقانى صاحب (مناهل العرفان فى علوم القرآن) والشيخ محمود أبو دقيقة والشيخ محمد على سلامة. كما تميزت مؤلفات رائدة خارج الأزهر مثل كتاب (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) للأديب مصطفى صادق الرافعى، وغيره.

الوضع الحالى:

ثم صدرت بعد ذلك مؤلفات عديدة لكثير من أساتذة الجامعة الأزهرية والجامعات الأخرى، غلب على معظمها الطابع المدرسى فى التأليف، فكان معظمها لا يكاد يتعدى سبعة أ. ثمانية علوم من علوم القرآن وتشابه جميعها فى اعتمادها على المصادر التى تحدثنا عنها كالإتقان للسيوطى والبرهان للزركشى.

ومن العرض السابق يتضح لنا:

١ ـ أن هناك حاجة ماسة لاصطناع منهج جديد فى دراسة علوم القرآن يعتمد كثيراً على كل أومعظم تراثنا فى هذه العلوم وليس على مشاهير المؤلفات فقط.

٢ ـ أن هناك حاجة ماسة لمراجعة قوائم المخطوطات فى علوم القرآن وإبراز ما حقق منها وما لم يحقق حتى تتاح للباحثين.

٣ ـ أن تدريس علوم القرآن فى الجامعات ينبغى أن يسبق تدريس سائر العلوم الشرعية لما يترتب على معرفته من أحكام.

فضل تعلم القرآن

يغفل كثير من المسلمين فى عصرنا هذاالذى طغت فيه المادة عن قيمة عظمى من قيم ديننا الاسلايم الحنيف وهى تعليم القرآن لأبنائهم، ويكتفون بما يتعلمه أبناؤهم فى المدارس العصرية التى لا تعطى القرآن الكريم ما ينبغى له من وقت وجهد، وبتتابع هذا الإهمال، أصبح لدينا الآن أجيال من المسلمين، ومنهم معلمون فى المدارس، لاتحسن قراءة القرآن قراءة سليمة من الخطأ، فضلا عن تدريسه وقد وردت أخبار كثيرة فى فضل تعلم القرآن وتعليمه.

فقد روى البخارى وأبو داود والترمذى عَنْ أَبِى عبد الرَّحْمَنِ السُّلَمِىِّ عَنْ عُثْمَانَ رَضى الله عَنْهم عَنِ النَّبِىِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ. خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ، وفى رواية البيهقى: إن أفضلكم مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَه، وأخرج الطبرانى بإسناد جيد من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (خيركم من قرأ القرآن أو أقرأه) يعنى قرأه بنفسه، أو أقرأه بغرض تعليم غيره كيف يقرأ، ولا ينبغى للمسلم أن يشك فى ذلك، فهير الكلام كلام الله، وخير الناس بعد الأنبياء العلماء لقوله ﷺ (العلماء ورثة الأنبياء) وخير العلماء من يشتغلون بخير الكلام: كتاب الله جل جلاله.

وقد يسأل سائل: إن الله أمرنا بذكره فقال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾. [البقرة - ١٥٢]، فأيهما أفضل: قراءة القرآن أم ذكر الله؟ وقد يسأل سائل: إن الله تعالى أمرنا بالدعاء فقال سبحان الله ﴿ وقال رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جهنَّمَ داخرين (٦٠) ﴾. (غافر ٦٠)، فأيهما أفضل الدعاء أم قراءة القرآن؟

وقد أوضحت سنة رسول الله ﷺ جواب هذه الأسئلة فيما رواه الترمذى عن أبى سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الرب عز وجل: من شغله القرآن عن ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين[1].

ولا عجب فى ذلك فإن قراءة القرآن الكريم لاتخلو من الدعاء ففى القرآن كثير من الأدعية ومن السنة أن يدعو المسلم بها إذا صادفها خلال قراءته كما أن القراءة نفسها ذكر لله تعالى، ومن هنا فقد جمع الله سبحانه وتعالى للقارىء أو لمعلم القرآن ثواب الداعين وأجر الذاكرين وتكفل بتحقيق مراد القارىء وإن لم يجهر به.

بل إن فى السنة المشرفة ما يدل على أفضلية القرآن على الصلاة، فقد أخرج ابن ماجة عن أبى ذر رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: (لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة) ويجوز فى الفعل «تعلم» عدة حالات من الضبط وكلها يؤدى معنى مختلفا فيمكن قراءته على أنه بفتح التاء وسكون العين وفتح اللام- أوبفتح التاء والعين واللام «مع تشديد اللام . ويصبح حينئذمخففا من الفعل «تتعلم» أو بضم التاء وفتح العين مع تشديد اللام. هذه الحالات الثلاث تؤدى معنى: أن تخرج فتتعلم آية من غيرك، وفيه حالة رابعة بكسر اللام وتشديدها فيكون المعنى حينئذ أن تخرج لتعليم غيرك آية.

وقد أشار القرآن الكريم فى غير موضع إلى المكانة السامية التى يتمتع بها الذين يتلون كتاب الله، كما بينت السنة النبوية العطرة هذه المكانة فمن ذلك ما

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه، كتاب فضائل القرآن، باب ٢٥ وقال: هذا حديث حسن غريب، جـ٥، بيروت: دار الكتب العلمية بتحقيق أحمد شاكر ص ١٦٩. وأخرجه الدرامى فى سننه وغيرهما. وقد ذهب الألبانى إلى ضعفه (الضعيفة جـ٣ برقم ١٥٣٣)، وجمع ابن العلاء الهمدانى طرقه.

أخرجه ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول لله ﷺ: إن الله تعالى أهلين من الناس، قيل من هم يا رسول الله، قال: أهل القرآن أهل الله وخاصته) ويروى فى معظم مصادر التراث الإسلامى أن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه كان من أكثر الصحابة تلاوة للقرآن حتى لقد قتل وهو يقرأ فى المصحف، ويروى عن التابعى الجليل أبى عبدالرحمن السلمى أنه كان يشير إلى حديث (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) ويقول هذا ـ أى هذا الحديث ـ الذى أقعدنى مقعدى هذا ـ ويشير إلى لزومه المسجد الجامع بالكوفة يعلم الناس القرآن مع جلاله قدره وحاجة الناس إلى علمه وظل على هذا الوضع أربعين سنة وقرأ عليه القرآن فى هذا المسجد الإمامان الحسن والحسين عليهما رضوان الله.

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: الماهر بالقرآن ـ أى الذى يقرأه بطلاقة ـ مع السفرة الكرام والبررة، والذى يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق ـ أى يقرأ بصعوبة ـ له أجران ،

فضل حفظ القرآن:

وقد حثت الشريعة الإسلامية السمحاء على حفظ القرآن الكريم، ووردت النصوص الثابتة فى إكرام الله تعالى لمن يحفظ القرآن الكريم، لأن فى ذلك تحقيقاً لقوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر-٩).. ومما يؤسف له أن الأجيال المعاصرة من الشباب المسلم لم تعد تهتم بهذه الفضيلة الثمينة التى اهتم بها سلفنا الصالح رضي الله عنهم حتى لقد أصبح الشاب يصل إلى الجامعة وحفظه من القرآن لا يتجاوز بضع آيات يصلى بهن إن كان ممن يقيمون الصلاة. ومن هنا فإن من واجب إعلامنا أن يشير بين الحين والحين قضية حفظ القرآن وضرورة أن ينهض بهذه المسؤولية أولو الأمر والمؤسسات التربوية والإعلامية على اختلاف أنشطتها ولعل فى إيراد بعض النصوص من السنة المطهرة تذكيراً للمسلمين بهذا الواجب، وتنبيها لهم لفضل حفظ القرآن الكريم.

فقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجة والنسائى عن أبى مُوسَى الأشْعَرِىِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّة رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذى لاَ يَقْرَأُ القرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ لاَ ريحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ وَمَثَلُ الْمُنَافقِ الَّذى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مثل الريحانة ريحهاطيب وطعمهامر ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كَمَثَلِ الْحَنْظَلَة لَيْس لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ.

وأخرج الطبرانى عن أنس رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من قرأ القرآن يقوم به أثناء الليل والنهار، يحل حلاله ويحرم حرامه حرم الله لحمه ودمه على النار وجعله رفيق السفرة والكرام البررة حتى إذا كان يوم القيامة كان القرآن حجة له».

وأخرج أبو عبيد عن أنس رضي الله عنه مرفوعا عن النبى ﷺ أنه قال: «القرآن شافع مشفع ما حل مصدق من جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار».

وأخرج البيهقى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكترثون لحساب - أى لا يخافون منه - ولا تفزعهم الصيحة ولا يحزنهم الفزع الأكبر: حامل القرآن يؤديه إلى الله تعالى يقدم على ربه سيدا شريفا حتى يرافق المرسلين، ومن أذن سبع سنين لا يأخذ على أذانه طعاما - أى أجرا - وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه».

وبالسند المتصل إلى ابن عباس والضحاك رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال «أشرف أمتى حملة القرآن».

وأخرج الديلمى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «حملة القرآن فى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله».

وأخرج الديلمى فى الفردوس عن أبى أمامة رضي الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «حامل القرآن حامل راية الإسلام فمن أكرمه فقد أكرم الله ومن أهانه فعليه لعنة الله».

وأخرج البخارى والديلمى عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «حملة القرآن أولياء الله تعالى فمن عاداهم فقد عادى الله ومن والاهم فقد والى الله».

هذه الآثار المتصلة والروايات المتعددة تؤكد فى جلاء أن الله أعد مكانة متميزة لأولئك المؤمنين الصادقين الذين نذروا أنفسهم لخدمة كتاب الله تعلما وحفظا

وتعليما ولكن السؤال الذى يطرح نفسه هو: هل استخدام تعبير «حملة القرآن» أو «حامل القرآن» يقتصر على حافظ القرآن عن ظهر قلب أو يمكن أن يتسع ليشمل الذين يتلون القرآن من المصحف؟

والذى أرجحه أنه مقصور على حافظى القرآن عن ظهر قلب بدليل ما ورد فى البخارى ومسلم وغيرهما من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال وهو يصف يوم القيامة وما يلاقيه فيه حامل القرآن من جزاء عظيم قال ﷺ «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها».

ويمكن أن فهم هذا الحديث الذى اتفق عليه الشيخان فى ضوء حديث آخر رواه الديلمى معناه أن درج الجنة على قدر آى القرآن بكل آية درجة، والمفهوم أن المؤمن حين يطلب منه أن يقرأ كما كان يقرأ فى الدنيا، يكون فى حالة كحالة من يستظهر ما حفظه.

قال الإمام ابن حجر: ويؤخذ من الحديث أنه لا ينال هذا الثواب الأعظم إلا من حفظ القرآن وأتقن أداءه وقراءته كما ينبغى له. وإن قلت ما الدليل على أن تعبير الصاحب فى قول الرسول ﷺ «صاحب القرآن» هو الحافظ وليس الملازم للقراءة من المصحف؟ قلت: الأصل أن ما فى الجنة يحكى ما فى الدنيا وقوله «اقرأ كما كنت تقرأ فى الدنيا» صريح الدلالة على أنه المقصود هو الحافظ لأننا فى الدنيا لا نقول لمن يقرأ فى المصحف: صاحب القرآن أو حامل القرآن.

وفى رواية أحمد يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة اقرأ واصعد فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى لا يبقى شىء معه، فهذه الجملة الأخيرة ذات دلالة واضحة على أنه استنفد ما عنده من رصيد محفوظ.

ومن البشائر التى يطمئن لها قلب كل مسلم يسعى إلى حفظ كتاب الله ما رواه البخارى وغيره أن من قرأ القرآن ثم مات قبل أن يستظهره أتاه ملك يعلمه فى قبره ويلقى الله تعالى وقد استظهره.

وفى حديث الطبرانى والبيهقى «من قرأ القرآن وهو يتفلّت منه ولا يدعه فله أجره مرتين، ومن كان حريصاً عليه ولا يستطيعه ولا يدعه بعثه الله يوم القيامة مع أشراف أهله».

المبحث الأول

أول مانزل من القرآن

مما يتصل بعلم تنزيل القرآن، فرع يسميه العلماء (أول مانزل وآخر ما نزل) وهو مبحث جليل الفائدة، عظيم القدر، كبير الأهمية بالنسبة للمسلمين جميعاً، وشديد الأهمية بالنسبة لأهل الفتوى على نحو خاص.

وقد بيّن العلماء أهمية معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل على النحو التالي:

١ ـ معرفة مدى اهتمام المسلمين بالقرآن:

فقد أقبل المسلمون على كتاب ربهم جل جلاله تعلماً وتعليماً بل وسجلوا كل ما يتعلق بالقرآن الكريم، وبكل آية من آياته، متى نزلت؟ وأين نزلت؟ ومنهم من بالغ فى ذلك فوقف على عدد آياته وكلماته وحروفه!!!.

يقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : أخذت من رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، وعنه أيضا أنه قال: ما أنزلت سورة إلا وأنا أعلم فيما نزلت؟ ولو أعلم أن أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل أو المطايا لأتيته.

كما أخرج أبو نعيم بسنده عن على رضي الله عنه قال: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت؟ وأين نزلت؟، إن ربى وهب لى قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً، وعن أبى الطفيل قال الإمام على كرم الله وجهه: سلونى عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت أبليل نزلت أم بنهار، فى سهل أم فى جبل.

٢ ـ معرفة الناسخ والمنسوخ عند التعارض:

فإذا وردت فى موضوع واحد آيتان فأكثر يخالف الحكم فى إحداها الأخرى

مخالفة لا يمكن معها الجمع رجعنا إلى ترتيب النزول ومعرفة السابق نزولا واللاحق له. فإذا وقفنا على ذلك تم لنا معرفة الناسخ من المنسوخ حتى نتمكن من العمل بالحكم الناسخ وترك المنسوخ.

٣ - إدراك الحكمة من تدرج التشريع:

بالنسبة للشريعة بوجه عام حيث فرضت الصلاة بمكة قبل الهجرة، ثم فرض الصوم والزكاة بالمدينة فى السنة الثانية للهجرة على أصح الأقوال، ثم فرض الحج من السنة السادسة للهجرة، أو بالنسبة لموضوع معين كمعرفة التدرج فى تشريع كتحريم الخمر أو الربا.. إلخ كل ذلك لا يتسنى للمسلم معرفته إلا بمعرفة تواريخ إنزال القرآن.

طرق البحث فى هذا المبحث:

وللعلماء فى تناول هذا الفرع من علم تنزيل القرآن طريقان:

أولهما: هو معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن بوجه عام، كقولهم: أول ما نزل من القرآن قوله تعالى {اقرأ} وآخر ما نزل منه قوله تعالى {اليوم أكملت لكم دينكم} على نحو سنوضحه بعد قليل بأدلته.

وثانيهما: معرفة أول ما أنزل فى موضوع معين، وهذا يهم أهل الفتوى وعلماء التفسير حتى يكون استنباطهم للأحكام صحيحا مبنيا على أساس سليم فالذى يقرأ قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) ﴾ (الفرقان - ٦٨). ثم يقرأ قوله تعالى ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) ﴾ (النساء - ٩٣).

لا يستطيع استنباط حكم واضح لقتل النفس إلا إذا رجع إلى تاريخ نزول كل من الآيتين ليعرف أن آخرهما نزولا هى التى عليها الفتوى فى ضوء الضوابط الأخرى للإفتاء ومنها: البحث فى السنة وفى أسباب النزول والعموم والخصوص..

والخلاصة:

أن معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل فى موضوع بعينه كالربا أو الخمر، أو القتل، أو الجهاد وما شابه ذلك من الأهمية، بمكان لذلك أولاه علماء التفسير وعلوم القرآن عناية فائقة وبحثوا فيه لدرجة أن يعرف فيه المكى من المدنى، بل لدرجة أن يعرف من المكى أوله نزولا وآخره وكذلك المدنى، ولدرجة أن يعرف ما نزل صيفا وما نزل شتاء، وما نزل نهارا وما نزل ليلا، وما نزل فى الحضر منه ومانزل فى السفر.

ما أول ما نزل من القرآن؟

للعلماء فى تحديد أول ما نزل من القرآن أربعة أقوال:

القول الأول: وهو الراجح عند جمهور العلماء، وقد أيده السيوطى فى الإتقان والزركشى فى البرهان والزرقانى فى مناهل العرفان وغيرهم، ومؤداه أن أول ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خلق الإنسان من علق (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) ﴾ [العلق ـ ١، ٣].

أدلة هذا القول:

١ ـ روى الإمام البخارى والإمام مسلم رحمهما الله بسنديهما عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم

فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الاختلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد فى الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال إقرأ قال ما أنا بقارىء قال فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ قلت ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال: {اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم} فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال زملونى زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسى فقالت خديجة كلا والله ما يحزنك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى ابن عم خديجة وكان قد تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمى فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة يا ابن أخى ماذا ترى فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى يا ليتنى فيها جذعا ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله ﷺ أو مخرجى هم قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزراً ثم لم يلبث ورقة أن توفى قبل أن تكتمل الرسالة.

٢ ـ أخرج الحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الدلائل، وصححاه عن عائشة قالت: أول سورة نزلت من القرآن {اقرأ باسم ربك الذى خلق}.

٣ ـ أخرج الطبرانى فى الكبير بسند على شرط الصحيح عن أبى رجاء العطاردى قال: كان أبو موسى يقرئنا فيجلسنا حلقا، عليه ثوبان أبيضان فإذا تلا هذه السورة {اقرأ باسم ربك الذى خلق} قال: هذه أول سورة أنزلت على محمد ﷺ.

٤ ـ أخرج سعيد بن منصور فى سننه عن عبيد بن عمير قال: جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال له: اقرأ قال: وماأنا أقرأ؟ فوالله ما أنا بقارى، فقال: {اقرأ باسم ربك الذين خلق} فكان يقول: هو أول ما نزل.

٥ ـ قال أو عبيد فى الفضائل حدثنا عبد الرحمن عن سفيان بن أبى نجيح عن مجاهد قال: إن أول ما نزل من القرآن اقرأ باسم ربك ونون والقلم.

٦ ـ أخرج ابن أشتة فى كتاب المصاحف عن عبيد بن عمير قال: جاء جبريل إلى النبى ﷺ بنمط، فقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارىء، قال: اقرأ باسم ربك، فيرون أنها أول سورة أنزلت من السماء.

القول الثانى : وهو المرجوح، قيل إن أول القرآن نزولا هو قوله تعالى ﴿ يا أيها الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ ﴾ (المدثر ـ ١، ٥).، وقد استدل القائلون بهذا الرأى بما رواه الشيخان عن أبى سلمة بن عبدالرحمن بن عوف أنه قال: سألت جابر بن عبدالله: أى القرآن أنزل قبل، فقال: يأيها المدثر، فقلت أو اقرأ باسم ربك. وفى رواية نبئت أنه {اقرأ باسم ربك الذى خلق}، فقال أحدثكم ماحدثنا به رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ : إنى جاوزت

بحراء فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادى، فنوديت فنظرت أمامى وخلفى وعن يمنى وعن شمالى ثم نظرت إلى السماء فإذا هو جبريل جالس على عرش بين السماء والأرض فأخذتنى رجفة فأتيت خديجة فأمرتهم فدثرونى، فأنزل الله {يأيها المدثر قم فأنذر}.

هذا هو الرأى الثانى فى أول مانزل ولكنه دون الأول فى صحته، فالأول هو الصحيح عند جمهور العلماء، والدليل على أن الأول هو الصحيح والثانى لا يدانيه فى القوة أن جابرا رضي الله عنه فى هذه الرواية التى ذكرت استنبط ذلك باجتهاده ولم ينقل فيه نصا صريحا فهذه الرواية ليست نصا فى تحديد أول ما نزل بل أن جابرا بنى كلامه هذا على ماسمعه من رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى [أى المدة التى انقطع فيها الوحى] لأن الوحى كان قد انقطع مدة عن رسول الله ﷺ .

وقد قال الإمام السيوطى تعقيبا على ذلك «إن جابرا استخرج ذلك باجتهاده، وليس هو من روايته فيقدم عليه ما روته عائشة» [يعنى حديث بدء الوحى الذى ذكرناه آنفا].

وقد رد أصحاب القول الأول على أصحاب القول الثانى محاولين التوفيق بين القولين لأن مستند كل منهما حديث صحيح، فقالوا توفيقا بين القولين: إن المدثر هى أول سورة كاملة تنزل، أما سورة العلق فقد نزل صدرها فقط، ولكن هذا الرأى وجه رواية الصحيحين عن جابر نصت على أن ما نزل من المدثر ينتهى عند قوله تعالى {والرجز فاهجر} ولم تنص على نزول السورة كاملة.

القول الثالث: أول ما نزل من القرآن سورة الفاتحة.

دليل هذا القول:

دليل هؤلاء القائلين بأن الفاتحة أو ما نزل، ما أخرجه البيهقى فى الدلائل والواحدى من طريق يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن أبيه عن أبى ميسرة عمرو بن شرحيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداءً فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا فقالت معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثة له، وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة فانطلقا فقصا عليه، فقال إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى يامحمد يا محمد فأنطلق هاربا فى الأفق فقال لا تفعل إذاأتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم أتنى فأخبرنى، فلما خلا ناداه يا محمد قل {بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين...} حتى بلغ ولا الضآلين».

وهذا الدليل مبنى على حديث هو عند العلماء حديث مرسل من جهة ومن جهة أخرى ليس فيه نص صريح على أن الفاتحة هى أول ما نزل ولايصح أن يقف هذا الحديث المرسل فى مواجهة حديث عائشة الصحيح الذى يستدل به القائلون بالقول الأول. والذى رواه الشيخان.

القول الرابع: ويذهب أصحابه إلى أن أصحابه ما أنزل هو البسملة ودليلهم ما أخرجه الواحدى عن عكرمة والحسن أنهما قالا: أول ما نزل من القرآن {بسم الله الرحمن الرحيم} وأول سورة {اقرأ باسم ربك الذى خلق} وهذا القول هو أضعف الأقوال ولذلك تجاهله العلماء الكبار كالنووى فى شرح مسلم والزركشى فى البرهان.

وخلاصة ما سبق:

أن أول ما نزل هو قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق) وبذلك يكون القول الأول هو أصح أقوال العلماء فى هذه القضية لقوة أدلته.

المبحث الثانى

آخر مانزل من القرآن

يتناول البحث فى آخر مانزل من القرآن ثلاثة جوانب:

أولها: آخر آية نزلت من القرآن.

ثانيها: آخر آية أو آيات نزلت فى موضوع خاص.

ثالثها: آخر سورة نزلت.

وقد أدى اللبس فى تداخل هذه الجوانب الثلاثة إلى اختلاف تفسير المرويات فى تحديد آخرما نزل. فجميع تلك المرويات نقلت إلينا عن الصحابة وليس من بينها حديث واحد مرفوع إلى حضرة النبى ﷺ.

وأقوال العلماء فى تحديد آخر مانزل من القرآن هى:

القول الأول:

أن آخر مانزل هو قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣) ﴾ (المائدة، ٣).

وهذا القول ـ على ضعف فيه سنشرحه قريبا ـ هو المشهور المتداول بين الناس، لما

تشيعه هذه الآية الكريمة من إحساس بتمام النعمة واكتمال الدين. فكأنها إيذان بنهاية الوحى. وقد ساعد على انتشار هذا التداول بين الناس ماارتبط بهذه الآية من رواية صحيحة دلت هذه على نزولها يوم حجة الوداع، فقد روى البخارى بسنده عن طارق بن شهاب قالت اليهود لعمر إنكم تقرءون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيدا فقال عمر إنى لأعلم حين أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله ﷺ حين أنزل يوم عرفة وإنا والله بعرفة قال سفيان وأشك كان يوم الجمعة أم لا {اليوم أكملت لكم دينكم}.

ويستدل أصحاب هذا القول بما ذكره ابن كثير فى تفسيره بسنده عن ابن عباس قوله {اليوم أكملت لكم دينكم} وهو الإسلام، أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدا، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدا. وروى عن السدى: نزلت هذه الآية يوم عرفة، ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ورجع رسول ﷺ فمات قالت أسماء بنت عميس: حججت مع رسول الله ﷺ تلك الحجة فبينما نحن نسير إذ تجلى له جبريل، فمال رسول ﷺ على الراحلة، فلم تطق الراحلة من ثقل ماعليها من القرآن، فبركت، فأتيته فسجيت عليه بردا كان على. وقال ابن جرير وغير واحد: مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوما، رواهما ابن جرير، ثم قال: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن فضيل عن هارون بن عنتره، عن أبيه، قال: لما نزلت {اليوم أكملت لكم دينكم} وذلك يوم الحج الأكبر، بكى عمر، فقال له النبى ﷺ «ما يبكيك؟» قال: أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا، فأما إذا أكمل فإنه لم يكمل شيء إلانقص، فقال «صدقت» ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت «إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء».

وقد فند العلماء هذا الدليل بطريقين:

الأول: نفى العلاقة بين إكمال الدين ونزول القرآن، بمعنى أن المراد بإكمال الدين وإتمام النعمة، هو إشعار المسلمين فى هذا اليوم الذى حج فيه الرسول ﷺ بالمسلمين حجة الوداع وأظهرهم الله بذلك على مناوئيهم وأعدائهم من المشركين، بأن دينهم قد اكتمل. ولا يعنى هذا توقف الوحى وإنزال القرآن وفى هذا يقول الإمام ابن جرير الطبرى.

«اختلف أهل التأويل فى تأويل (اليوم أكملت لكم دينكم) فقال بعضهم: يعنى جل ثناؤه بقوله: اليوم أكملت لكم دينكم: اليوم أكملت لكم أيها المؤمنون فرائضى عليكم وحدوى وأمرى، إياكم ونهيى، وحلالى وحرامى، وتنزيلى من ذلك ما أنزلت منه فى كتابى، وتبيانى ما بينت لكم منه بوحيى على لسان رسولى، والأدلة التى نصبتها لكم على جميع ما بكم الحاجة إليه من أمر دينكم، فأتممت لكم جميع ذلك، فلازيادة فيه بعد هذا اليوم، قالوا: وكان ذلك فى يوم عرفة، عام حج النبى ﷺ حجة الوداع. وقالوا: لم ينزل على النبى ﷺ بعد هذه الآية شىء من الفرائض ولا تحليل شىء ولا تحريمه، وإن النبى ﷺ لم يعش بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة. يعنى بقوله {ورضيت لكم الإسلام دينا}. ورضيت لكم الإستسلام لأمرى والانقياد لطاعتى، على ما شرعت لكم من حدوده وفرائضه ومعالمه دينا يعنى بذلك: طاعة منكم لى.

فإن قال قائل: أو ما كان الله راضيا الإسلام لعباده، إلا يوم أنزل هذه الآية؟ قيل: لم يزل الله راضيا لخلقه الإسلام دينا ولكنه جل ثناؤه لم يزل يصرف نبيه محمدا ﷺ وأصحابه فى درجاته ومراتبه درجة بعد درجة ومرتبة بعد مرتبة وحالا

بعد حال، حتى أكمل لهم شرائعه ومعالمه وبلغ أقصى درجاته ومراتبه، ثم قال حين أنزل عليهم هذه الآية: ورضيت لكم الإسلام دينا بالصفة التى هو بها اليوم، والحال التى أنتم عليها اليوم منه دينا فالزموه ولاتفارقوه. وكان قتادة يقول فى ذلك مايلى:

عن قتادة، قال: ذكر لنا أنه يمثل لأهل كل دين دينهم يوم القيامة، فأما الإيمان فيبشر أصحابه وأهله، ويدعهم فى الخير حتى يجىء الإسلام. فيقول يارب أنت السلام وأنا الإسلام، فيقول: إياك اليوم أقبل، بك اليوم أجزى.

قال ابن جرير:

وأحسب أن قتادة وجه معنى الإيمان بهذا الخبر إلى معنى التصديق والإقرار باللسان، لأن ذلك معنى الإيمان عند العرب، ووجه معنى الإسلام إلى استسلام القلب وخضوعه لله بالتوحيد، وانقياد الجسد له بالطاعة فيما أمر ونهى، فلذلك قيل للإسلام: إياك اليوم أقبل، وبك اليوم أجزى.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية، أعنى قوله تعالى: اليوم أكملت لكم دينكم يوم الأثنين، وقالوا: أنزلت سورة المائدة بالمدينة.

أدلة من قال بأن سورة المائدة نزلت بالمدينة:

عن ابن عباس: ولد نبيكم ﷺ يوم الاثنين، وخرج من مكة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وأنزلت سورة المائدة يوم الاثنين اليوم أكملت لكم دينكم ورفع الذكر يوم الاثنين.

وروى عن قتاده، قال: المائدة مدنية.

وقال آخرون: نزلت على رسول الله ﷺ فى مسيره فى حجة الوداع.

فعن الربيع بن أنس، قال: نزلت سورة المائدة على رسول الله ﷺ فى حجة الوداع، وهو راكب راحلته، فبركت به راحلته من ثقلها.

وقال آخرون: ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس، وإنما معناه اليوم الذى أعلمه أنا دون خلقى، أكملت لكم دينكم.

فقد روى عن ابن عباس: اليوم أكملت لكم دينكم يقول: ليس بيوم معلوم يعلمه الناس. وأولى الأقوال فى وقت نزول الآية، القول الذى روى عن عمر بن الخطاب أنها نزلت يوم عرفة يوم جمعة، لصحة سنده ووهى أسانيد غيره.

القول الثانى:

ذهب بعض العلماء إلى أن آخر ما نزل من القرآن هو قوله تعالى ﴿ يستفتونك قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦) ﴾ (النساء - ١٧٦).

وهى خاتمة سورة النساء، وأن آخر سورة نزلت (براءة) وقد استدل أصحاب هذا القول بما رواه البخارى ومسلم عن البراء رضى الله عنهم قال آخر سورة نزلت كاملة براءة، وآخر سورة نزلت خاتمة سورة النساء {يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة}.

وقد رفض العلماء هذا القول وبرروا هذا الرفض بما يوضحه قول الزرقانى فى مناهل العرفان (١/ ٩٢).

«ويمكن نقض هذا الاستدلال بحمل الخبر المذكور على أن الآية آخر ما نزلت فى المواريث، وأن السورة آخر ما نزل بشأن تشريع القتال والجهاد فكلاهما آخر إضافى لاحقيقى».

القول الثالث:

ذهب بعض العلماء إلى أن آخر آية نزلت هى قوله تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)﴾ (آل عمران،١٩٥).

ودليلهم ماأخرجه ابن مردويه عن طريق مجاهد عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت: «آخر آية {فاستجاب لهم ربهم أنى لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من دياهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب} وذلك أنها قالت يارسول الله: أرى الله يذكر الرجال ولايذكر النساء فنزلت ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)﴾ (النساء، ٣٢). ونزل ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ

وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾ [الأحزاب، ٣٥]. ونزلت هذه الآية فهى آخر الثلاث نزولاً وآخر ما نزل بعد ما كان ينزل فى الرجال خاصة».

وقد رد العلماء على هذا الدليل بأن الآية المستدل بها هى آخر الآيات الثلاث نزولا وليست بآخر ما نزل من القرآن على الإطلاق.

القول الرابع:

أن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ [التوبة، ١٢٨ ـ ١٢٩].

ودليل هذا القول ما رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى بن كعب قال: آخر آية نزلت {لقد جاءكم رسول من أنفسكم} إلى آخر السورة.

وروى عبدالله بن أحمد فى زوائد المسند وابن مردويه عن أبيه أنهم جمعوا القرآن فى خلافة أبى بكر الصديق ، وكان رجال يكتبون، فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧) ﴾ [التوبة، ١٢٧]. ظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن فقال لهم أبى بن كعب: إن رسول الله ﷺ أقرأنى بعدها آيتين: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم} إلى قوله {رب العرش العظيم}، وقال هذا آخر ما نزل من القرآن.

وقد رد العلماء على هذا الدليل بأن هذه الآية هى آخر مانزل من سورة براءة وليست آخر ما نزل من القرآن.

القول الخامس:

أن آخر ما نزل من القرآن هو قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ (الكهف، ١١٠).

واستدل القائلون بهذا بما رواه ابن جرير الطبرى فى تفسيره عن ابن عباس قال: حدثنا عمروبن قيس الكندي، أنه سمع معاوية بن أبى سفيان تلا هذه الآية: فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا وقال: إنها آخر آية أنزلت من القرآن. وهذه الرواية قابلة للشك إذ كيف يروى ابن عباس وهو ترجمان القرآن عن معاوية الذى لم يسلم إلا بعد فتح مكة؟ فى حين صحب ابن عباس الرسول ﷺ طوال حياته وسمع منه ودعا له بالتفقه فى الدين.

القول السادس:

أن آخر ما نزل من القرآن الكريم هو قوله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾ [النصر، ١، ٣].

ودليل هذا القول ما رواه الإمام مسلم رضي الله عنه عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة قال قال لى ابن عباس تعلم (وقال هارون تدرى) آخر سورة نزلت من القرآن نزلت جميعا قلت نعم إذا جاء نصر الله والفتح قال صدقت.

وقد ورد فى شأن هذه الآية أحاديث دلت على أنه بمثابة نعى لرسول الله ﷺ، روى الإمام البخارى بسنده عن ابن عباس قال كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد فى نفسه (أى غضب من ذلك) فقال لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله فقال عمر إنه من قد علمتم فدعاه ذات يوم فأدخله معهم فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم قال ما تقولون فى قول الله تعالى إذا جاء نصر الله والفتح فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم فلم يقل شيئا فقال لى أكذلك تقول يا ابن عباس فقلت لا قال فما تقول قلت هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له قال إذا جاء نصر الله والفتح وذلك علامة أجلك {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} فقال عمر ما أعلم منها إلا ما تقول.

وقد رد العلماء هذا القول بردود منها:

(١) أنها - بنص دليلهم نفسه - آخر سورة نزلت وليس آخر آية نزلت.

(٢) أن قوله (نزلت جميعا) قد يعنى أنها آخر سورة كانت كاملة من سور القرآن الكريم التى نزلت جملة واحدة.

القول السابع:

قيل إن آخر ما نزل هو قوله تعالى ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ (النساء/٩٣).

وقد استدل أصحاب هذا الرأى بمارواه البخارى وغيره عن سعيد ابن جبير قال: هذه الآية اختلف فيها أهل الكوفة فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها فقال هذه الآية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ﴾ هى آخر مانزل وما نسخها شىء.

وقد رد العلماء هذا الدليل بأن هذه الآية آخر ما نزل فى حكم قتل المؤمن عمدا، كما أن قول ابن عباس فى الحديث (وما نسخها من شيء) يدل على نزول شيء بعد هذه الاية ولكنه ليس بناسخ لها. ويؤيد هذا الرد أن الحديث السابق. رواه الإمام مسلم عن سعيد بن جبير قال اختلف أهل الكوفة فى هذه الآية (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم) فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها فقال لقد أنزلت آخر ما أنزل ثم مانسخها شيء.

كمل ورد فى شأن هذه الآية أيضا حديث أخرجه أحمد والنسائى عن ابن عباس أنه قال فى هذه الاية (لقد نزلت فى آخر مانزل ما نسخها شيء).

القول الثامن:

قال أصحاب هذا الرأى إن آخر مانزل هو سورة المائدة واحتج هؤلاء بما رواه الترمذى عن عبدالله بن عمرو قال: آخرسورة أنزلت سورة المائدة، قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب، وما رواه الحاكم عن عائشة رضى الله عنها قالت: آخر سورة نزلت المائدة فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه وما وجدتم من حرام فحرِّموه.

والرد على هذا القول كالرد على سابقه، فقد نصت رواية الترمذى عن عبدالله بن عمرو على أنها آخر (سورة) نزلت وليس آخر آية، وكذلك جاء لفظ عائشة رضى الله عنها فى رواية الحاكم الذى رواها بسنده عن جبير بن نفير قالك حججت فدخلت على عائشة رضى الله عنها فقالت: يا جبير تقرأ المائدة؟ قلت: نعم فقالت: أما أنها آخر سورة نزلت.

القول التاسع:

أن آخر مانزل هو قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) ﴾ (البقرة، ٢٧٨)، ويدل على ذلك ما أخرجه البخارى فى باب موكل الربا لقول الله تعالى {يا أيها الذين آمنوا اتقواالله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولاتظلمون وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خيرلكم إن كنتم تعلمون واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون} قال ابن عباس هذه آخر آية نزلت على النبى ﷺ .

وقد رد العلماء هذاالقول بأنه آخر ما نزل فى شأن الربا لاآخر مانزل من القرآن واستدلوا على هذا بما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده، وابن ماجة فى سننه عن عمر بن الخطاب قال إن آخر ما نزل آية الربا وإن رسول الله ﷺ قبض ولم يفسرها لنا فدعوا الربا والريبة.

القول العاشر:

أن آخر ما نزل من القرآن الكريم آية الدين ـ أطول آية فى القرآن ـ وهى قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا

يأْبَ الشُّهداءُ إذا ما دُعُوا ولا تسأموا أن تكتبُوهُ صغيرًا أو كبيرًا إلىٰ أجله ذلكم أقسط عند اللَّه وأقْوَمُ للشّهادة وأدنىٰ ألاَّ ترتابوا إلاَّ أن تكُون تجارةً حاضرةً تديرُونها بينكم فليس عليْكُمْ جُناحٌ ألاَّ تكتبُوها وأشهدُوا إذا تبايعتُمْ ولا يُضارَّ كاتبٌ ولا شهيدٌ وإن تفعلوا فإنهُ فُسُوقٌ بكُمْ واتقُوا اللَّهَ ويُعلِّمُكُمُ اللَّهُ واللَّهُ بكُلِّ شيْءٍ عليمٌ (٢٨٢) ﴾ (البقرة، ٢٨٢).

واستدل القائلون بهذا بما أخرجه أبو عبيدة فى الفضائل عن ابن شهاب قال: (آخر القرآن عهداً بالعرش آية الربا وآية الدين).

وقد رد العلماء هذا القول بأن المقصود بذلك أنها آخر آية نزلت فى شأن المعاملات، وظاهر كلام السيوطى أنه يؤيد أنهاآخر آية نزلت من القرآن لأنها الأخيرة من ثلاث آيات حاول أن يوفق بين ما روى من أن كلا منهن هى آخر ما نزل فقال:

«ولا منافاة عندى بين هذه الروايات فى آية الربا، وآية {واتقوا يوما...} وآية الدين، لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها فى المصحف، ولأنها قصة واحدة فأخبر كل عن بعض مانزل فى آخر، وذلك صحيح».

القول الحادى عشر:

قال أصحابه إن آخر ما نزل هو قوله تعالى ﴿ واتقُوا يوْمًا تُرْجعُون فيه إلى الله ثُم تُوفَّىٰ كُلُّ نفْسٍ مَّا كسبتْ وهُمْ لا يُظْلمُونَ (٢٨١) ﴾ [البقرة، ٢٨١].

ولقد استدل القائلون بذلك:

١ ـ بما أخرجه ابن أبى حاتم بسنده عن سعيد بن جبير قال: آخر ما نزل من القرآن كله {واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون} وعاش النبى ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات ليلة الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول.

٢ ـ ما جاء فى تفسير البغوى عند شرحه لهذه الآية أن ابن عباس رضي الله عنه قال: له ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة، وعاش بعدها رسول الله ﷺ واحداً وعشرين يوماً، وقال ابن جريج تسع ليال، وقال سعيد بن جبير سبع ليال.

٣ ـ ما رواه ابن مردويه بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت من القرآن {واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون}.

٤ ـ ما أخرجه النسائى من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: آخر شيء نزل من القرآن {واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون}.

الرأى الراجح:

حاول السيوطى الجمع بين آيات ثلاث هى آية الدين، وآية الربا، قوله تعالى {واتقوا يوما..} على النحو الذى بيناه عند الحديث عن القول العاشر، غير أن العلماء لم يسلموا للسيوطى بهذا التوفيق بين الآيات الثلاث. فمن المعروف أن آية الربا نزلت عند إسلام بعض القبائل أن يبقوا ـ مع إسلامهم ـ على ما تحت أيديهم من الربا. فقد روى السيوطى فى «لباب النقول» مانصه:

«أخرج أبو يعلى فى مسنده وابن منده من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: بلغنا أن هذه الآية نزلت فى بنى عمرو بن عوف من ثقيف وقوم من بنى المغيرة. وكانت بنو المغيرة يربون لثقيف فلما أظهر الله رسوله على مكة وضع يومئذ الربا كله فأبى بنو عمرو وبنو المغيرة إلى عتاب بن أسيد وهو على مكة، فقال بنو

المغيرة: أما جعلنا أشقى الناس بالربا ووضع عن الناس غيرنا، فقال بنو عمرو: صولحنا أن لنا ربا فكتب عتاب فى ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية والتى بعدها. وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال: نزلت هذه الآية فى ثقيف منهم مسعود وحسب وربيعة وعبد ياليل: بنو عمرو وبنو عمير.

قال العلماء:

وفى الرواية الأولى عن ابن عباس ما يفيد نزول هذه الآية بعد فتح مكة، يدل على ذلك قوله (فلما أظهر الله رسوله على مكة وضع يومئذ الربا كله)، ثم إن تحريم الربا لا يكون إلا على المسلمين. فدل ذلك على إسلامهم قبل تحريم الربا عليهم ولذلك خاطبهم بقوله {يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين}. ومن ذلك كله نعرف أن هذه الآيات نزلت بعد فتح مكة، وكان فتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة، ونزلت أيضا بعد إسلام ثقيف. وإسلام ثقيف إنما كان فى السنة التاسعة، فأين زمن فتح مكة وإسلام ثقيف من وفاة الرسول ﷺ، وقد كانت وفاته فى السنة الحادية عشرة من الهجرة. ولئن قال قائل إن هناك مسافة زمنية بين فتح مكة وبين إسلام ثقيف يؤمرون بترك الربا مع أنهم لم يكونوا قد أسلموا حين الفتح أو بعده مباشرة.

إن قال ذلك قائل يرد عليه بأن رواية ابن عباس لم تحدد الزمن الذى وضع فيه الربا تحديدا دقيقا ولم تقل إنه كان بعد فتح مكة مباشرة، بل قال لما أظهر الله رسوله ﷺ على مكة وضع الربا بمعنى أن هذا الوضع إنما كان بعد الفتح دون أن يحدد اليوم أو الشهر الذى وضع فيه.

مما سبق يتضح أن آية الربا ليست آخر مانزل من القرآن لأنها نزلت فى السنة

التاسعة للهجرة، وكان فتح مكة فى رمضان سنة ثمان، وإسلام ثقيف كان سنة تسع والآية نزلت بعد إسلام ثقيف، وقد نزلت قبل وفاة الرسول ﷺ بنحو ثمانية عشر شهراً.

أما آية {واتقوا يوما...} فقد نصت الرواية التى نقلتها على أنها نزلت قبل وفاة الرسول ﷺ بسبع ليال أو تسع أو بإحدى وعشرين ليلة، فيكون القول الراجح أنها هى آخر ما نزل، وتكون آية الربا آخر آية نزلت فى شأن المعاملات، أو لنقل إن الآيات الثلاث هى أواخر ما أنزل من القرآن الكريم. وبذلك يمكن الجمع بين القول التاسع والقول الحادى عشر. وهو الراجح فى رأينا والله أعلم.

المبحث الثالث

ترتيب السور والآيات

علم معرفة ترتيب السور والآيات من علوم القرآن التى يغفل عنها كثير من الناس. مع أن له فوائد عظيمة ذكر منها العلماء:

١ - *حسن الوقف على رؤوس الآى عند فريق من العلماء يرى أن الوقف على الفواصل سنة*، بناء على ظاهر الحديث الذى استدلوا به عن أم سلمة أنها ذكرت [أو كلمة غيرها] قراءة رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين) يقطع قراءته آية آية. حتى قالوا إن الوقف عليها والابتداء بما بعدها مرغوب فيه شرعاً، وإن لم يكن مستقلاً بنفسه، لتعلقه بما قبله تعلقاً لفظياً، بأن كان وصفا له مثلا كقوله تعالى ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) ﴾ (الكهف/ ٥)، عقب قوله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) [الكهف/٤]. قالوا فالابتداء فى هذه الحالة جائز عقب رؤوس الآيات اتباعاً لهدى رسول الله ﷺ وسنته فى الوقف على رؤوس الايات.

٢ - *العلم بأن كل ثلاث آيات قصار (معجزة للنبى* ﷺ وكذلك الآية الطويلة التى تعدل بطولها تلك الثلاث القصار. ووجه ذلك أن الله تعالى أعلن التحدى بالسورة الواحدة فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) ﴾ [البقرة/٢٣]. والسورة تصدق بأقصر سورة كما تصدق بأطول سورة، وأقصر سورة

فى القرآن هى سورة الكوثر، وهى ثلاث آيات قصار، فثبت أن كل ثلاث آيات قصار معجزة.

٣ ـ *ومنها أنه جاء فى نصوص كثيرة تقدير الثواب بعدد الآيات*، فلابد من معرفتهاحتى يستطيع العبد أن يعرف عدد الآيات، ويتقرب إلى الله بما ينال من هذا الثواب، وذلك كقوله ﷺ الذى رواه الامام مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات عظام سمان قلنا نعم قال فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم فى صلاته خير له من ثلاث خلفات عظام سمان *(صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين/ حديث رقم ١٣٣٥)* (الخلفة: هى الحامل من النوق)، ومارواه الإمام الترمذى عبدالله بن عمرو عن النبى ﷺ قال يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها *(كتاب فضائل القرآن/٢٨٣٨)*.

٤ ـ *ومنها أن معرفة الآيات يحتاج إليهافى بعض الأحكام الفقهية*، يقول السيوطي: يترتب على معرفة الآى وعدّها وفواصلها أحكام فقهية منها اعتبارها فيمن جهل الفاتحة فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات، ومنها اعتبارها فى الخطبة فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة.

معنى الاية:

تطلق الآية فى اللغة على عدة معان منها:

١ ـ *المعجزة*: ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الرعد/٣٨).
أى بمعجزة.

٢ ـ *العلامة*: ومنه قوله تعالى ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨)﴾ [البقرة/٢٤٨]. أى علامة ملكه.

٣ ـ *العبرة*: ومنه قوله تعالى (إن فى ذلك *لآية* *لكم* إن كنتم مؤمنين) أى لعبرة لمن يعتبر.

٤ ـ *الأمر العجيب*: ومنه قوله سبحانه وتعالى ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾ [المؤمنون/٥٠]. أى كل واحد صار أمراً عجيبا بالآخر.

وجميع هذه الدلالات ينتظمها سياق آى القرآن فكل آية منه معجزة لأنه معجز متحدى به، وكل آية منه علامة من علامات النبوة لما فيها من إبداع لا يستطيع بليغ مهما بلغت قدراته أن يأتى بمثلها على نحو ما فصله الأستاذ الرافعى رحمه الله فى كتابه القيم (إعجاز القرآن).

واشتقاق الآية إما من آى فإنها هى التى تبين أيا من أى. أو من التأيى الذى هو التثبيت والإقامة على الشيء، أو من المأوى أى من قولهم أوى إليه

ووزن آية قيل هو فَعْلَة وحق مثلها أن يكون لامه معتلا دون عينه نحو حياة، لكن صحح لوقوع الياء قبله نحو راية، وقبل فعلة إلا أنها قلبت كراهة التضعيف كطائى فى طيء وقيل هو فاعلة وأصلها آيية فخففت فصارت آية، وذلك ضعيف لقولهم فى تصغيرها أيية، ولو كانت فاعلة لقيل أوية، والأول قول سيبويه والأخير للكسائى.

الآية القرآنية فى الاصطلاح:

قال العلماء: القرآن الكريم مركب من جمل والآية قرآن مركب من جمل أيضاً (ولو تقديراً) ذو مبدأ ومقطع مندرج فى سورة أو طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها ليس بينها شبه بما سواها. وليس معنى هذا أن الآية لاتعلق لها بمعنى سابقتها ،ولا حقتها ، بل المراد أنها مستقلة فى العد ولاتكون جزءاً مما قبلها أوبعدها.

قال أبو عمرو الدانى وابن المنير: لانعلم كلمة هى وحدها آية إلا قوله تعالى (مدهامتان)، وقال غيرهما: بل فى غيرها مثل (والنجم) (والضحى) (والعصر) وفواتح السور عند من عدّها آية. ولعل أبا عمرو وابن المنير أرادا بما قالا الكلمة الواحدة ولم يذكرا ما استدركه غيرهما عليهما من مثل (والنجم) (والضحى) احترازاً من وجود واو القسم.

طريقة معرفة الآية:

لايمكن التوصل إلى معرفة آيات القرآن الكريم إلا بتوقيف من الشارع أى بطريق النقل عن السلف، والدليل على ذلك أن العلماء عدوا (المص) اية، ولم يعدوا نظيرها وهو (المر) آية، وعدوا (يس) آية، ولم يعدوا نظيرها وهو (طس) آية، وعدوا (حمعسق) آيتين، ولم يعدوا نظيرها وهو (كهيعص) آيتين، بل آية واحدة.

ومذهب الكوفيين أنهم عدوا لكل فاتحة من فواتح السور التى فيها شيء من حروف الهجاء آية، سوى (حمعسق)، فإنهم عدوها آيتين، وسوى (طس)، ولم يعدوا من الآيات ما فيه راء وهو (الر) و(المر) وما كان مفرداً وهو (ق) و(ص) و(ن) أى لم يعدوا شيئا منها آية.

وغير الكوفيين لايعتبرن شيئا من الفواتح آية، وعلى أية حال فالخلاف فى هذه

المسألة لايثمر شيئاً، *ومن الأدلة التى استدل بها من قالوا إن معرفة الآيات تكون بالنقل:*

١ ـ ما أخرجه البخارى بسنده عن أبى سعيد بن المعلى قال كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله ﷺ فلم أجبه فقلت يا رسول الله إنى كنت أصلى فقال ألم يقل الله (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) ثم قال لى لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد ثم أخذ بيدى فلما أراد أن يخرج قلت له ألم تقل لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن قال الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته [صحيح البخارى كتاب تفسير القرآن/٤١١٤]. ورواه أيضا أبو داود والنسائي.

٢ ـ ما أخرجه الترمذى والحاكم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: (لكل شىء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هى سيدة آى القرآن هى آية الكرسى) قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير وقد تكلم شعبة فى حكيم بن جبير وضعفه (الترمذى كتاب فضائل القرآن/٢٨٠٣).

٣ـ ما أخرجه الشيخان البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى مسعود البدرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما فى ليلة كفتاه) [البخارى كتاب المغازى رقم ٣٧٠٧، مسلم كتاب صلاة المسافرين ١٣٤٠].

٤ ـ ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عبدالله بن مسعود قال أقرأنى رسول الله ﷺ سورة من الثلاثين من آل حم يعنى الأحقاف قال وكانت السورة إذا كانت أكثر

من ثلاثين آية سميت الثلاثين قال فرحت إلى المسجد فإذا رجل يقرؤها على غير ما أقرأني فقلت من أقرأك فقال رسول الله ﷺ قال فقلت لآخر اقرأها فقرأها على غير قراءتي وقراءة صاحبي فانطلقت بهما إلى النبي ﷺ فقلت يا رسول الله إن هذين يخالفاني في القراءة قال فغضب وتمعر وجهه وقال إنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف قال: قال زر وعنده رجل قال فقال الرجل إن رسول الله ﷺ يأمركم أن يقرأ كل رجل منكم كما أقرىء فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف قال عبد الله فلا أدري أشيئا أسره إليه رسول الله ﷺ أوعلم مافي نفس رسول الله ﷺ قال والرجل هوعلى بن أبي طالب صلوات الله عليه (مسند الإمام أحمد ـ كتاب مسند المكثرين من الصحابة/٣٧٨٤].

٥ ـ وقال ابن العربي: ذكر النبي ﷺ: أن الفاتحة سبع آيات، وسورة الملك ثلاثون آية.

وبعض العلماء يذهب إلى أن معرفة الآيات منهما ما هو سماعي توفيقي ومنها ما هو قياسي، ومرجع ذلك إلى الفاصلة: وهي الكلمة التي تكون آخر الآية، وتشبه نهاية جملة السجع في النثر، وقافية البيت في الشعر، يقولون: فما ثبت أن النبي ﷺ وقف عليه دائما تحققنا أنه فاصلة، وما وصله دائما تحققنا أنه ليس فاصلة، وماوقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة، أولتعريف الوقف التام أو للاستراحة، واحتمل الوصل أن يكون غير فاصلة، أو فاصلة وصلها لتقدم تعريفها.

عدد آيات القرآن:

أجمع العلماء على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف، ثم اختلفوا فيما زاد على

ذلك، فمنهم من قال مائتا آية وأربع آيات، ومنهم من قال مائتا وأربع عشرة، ومنهم من قال مائتا آية وتسع عشرة، ومنهم من قال مائتاآية وخمس وعشرون، ومنهم من قال مائتا آية وست وثلاثون.

وسبب اختلاف السلف فى عدد الآى أن النبى ﷺ كان يقف على رؤوس الآى للتوقيف، فإذا عُلم محلها وصل للتمام فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة، ثم أن بعض القراء يعد البسملة آية من كل سورة وبعضهم لايعدها.

وذكر بعض العلماء أن السبب فى الاختلاف فى العدد هو تعدد الروايات المنقولة عن الرسول ﷺ وذلك كاختلافهم فى نقل القراءات على وجهها ولعل السبب فى ذلك تكرر حدوث الوقائع فتكرر بذلك الروايات.

وممن عنى بإحصاء آى القرآن الكريم من الصحابة: ابن عمر وابن عباس وأنس وعائشة وغيرهم، ونقلة عنهم التابعون، فمن أهل المدينة عروة بن الزبير وعمر بن عبدالعزيز، ومن أهل مكة عطاء بن أبى رباح وطاووس، ومن أهل الكوفة أبو عبدالرحمن السلمى وزر بن حبيش وسعيد بن جبير والشعبى والنخعى، ومن أهل البصرة الحسن البصوى وابن سيرين. ومن أهل الشام كعب الأحبار، وغيرهم.

معنى السورة:

معناها لغة:

السورة تهمز فيقال (السؤرة)، ولاتهمز. فمن همزها جعلها من أسـ... أفضلت، من السؤر (وهو ما تبقى من الشراب فى الإناء)، كأنها قطعة من ... ومن لم يهمزها جعلها من المعنى وسهلها، ومنهم من شبهها بسور البناء ...

منه أى منزلة بعد منزلة، وقيل من سور المدينة لإحاطتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور، ومنه السوار لإحاطته بالساعد، وعلى هذا فالواو أصلية. ويحتمل أن تكون من السؤرة بمعنى المرتبة لأن الآيات مرتبة فى كل سورة ترتيباً مناسباً، وقيل لتركيب بعضها على بعض من التسور بمعنى التصاعد والتركيب، ومنه قوله تعالى ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب (٢١) ﴾ (ص/٢١). أى نزلوا عليه من علو، وقيل لعلو شأنها وشأن قارئها، والسورة المنزلة الرفيعة، قال النابغة الذبيانى يمدح النعمان:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل مَلْكٍ دونها يتذبذب

معناها اصطلاحاً:

والسورة فى الاصطلاح: «قرآن يشتمل على آى ذى فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات»، وقيل إن السورة هى الطائفة من القرآن الكريم المسماة باسم خاص بتوقيف من النبى ﷺ، وقد ثبت أن أسماء السور توقيفية كما اتضح من السطور السابقة، وفى صحيح البخارى عن عبدالرحمن بن يزيد قال رمى عبدالله من بطن الوادى فقلت يا أبا عبدالرحمن إن ناسا يرمونها من فوقها فقال والذى لاإله غيره هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة ﷺ. (صحيح البخارى كتاب الحج/١٦٢٩).

الحكمة من تقسيم القرآن الكريم إلى سورة:

من الحكم التى ذكرها العلماء لتقسيم القرآن الكريم إلى سور:

١ - تقسيم القرآن الكريم إلى سور ييسر حفظه، سورة بعد سورة، وتقسيمه إلى سور طويلة وقصيرة على الترتيب المعروف ييسر على الأطفال تعلمه حيث إن هذا الترتيب يتدرج بهم من السور القصار إلى ما فوقها.

٢ - تقسيم القرآن إلى سور تثبيت لموضوعات السور ودلالة على عناصر كل منها وما تناولته من أحكام فسورة يوسف مثلا تتحدث عن قصة سيدنا يوسف عليه السلام وسورة إبراهيم تتحدث عن قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام وسورة المطففين تتناول تطفيف الكيل والميزان.

٣ - تقسيم القرآن إلى سور طوال وقصار يشير إلى أن الطول ليس شرطاً فى التحدى والإعجاز، فكل سورة معجزة بنفسها وإن بلغت فى القصر ثلاث آيات.

٤ - أن الحافظ إذا أتقن السورة حفظاً اعتقد أنه أخذ من كتاب الله سبحانه وتعالى طائفة مستقلة بنفسها، فيعظم عنده ما ومن حديث أنس: «كان الرجل إذا حفظ البقرة أو آل عمران جد فينا» (أى صار له قدر وهيبة) ومن ثم كانت القراءة فى الصلاة بسورة كاملة أفضل من القراءة بعدة آيات ولو طالت.

٥- أن المطيل فى التلاوة تنشرح نفسه عند ختم كل سورة كما تنشرح نفس المسافر عند قطع كل مرحلة من مراحل سفره.

٦- أن الشىء إذا كان جنسا، واندرجت تحته أنواع، واشتملت الأنواع على أصناف كان أحسن وأفخم لشأنه، ولاسيما إذا تلاحقت الأجزاء، وتجاوبت بحسن الالتئام، وتعانقت الأمثال والحِكَم والأحكام والقصص فى جمال وانتظام.

تقسيم سور القرآن بحسب الطول والقصر:

الناظر فى المصحف يرى أنه مرتب على أن الفاتحة فى أوله ثم البقرة ثم آل عمران وهكذا إلى آخر السور الطوال (جمع طولى) ثم يليها المئون [جمع مائة]، ثم المثانى ثم المفصل إلى آخر سورة الناس.

فالطول أو الطوال (جمع طويلة): هى سبع سور تبدأ من البقرة وتنتهى ببراءة. وإن كانوا ليعدون الأنفال مع براءة سورة واحدة حيث نزلتا فى القتال، ولم يفصل بينهما بالبسملة، والحق أن الأنفال من المثين، ووضعها بين الطول إنما هو بتوقيف من النبى ﷺ، وحكى عن سعيد بن جبير أنه عد السبع الطول من البقرة حتى يونس، وسميت طولا أو طوالا لطولها.

والمئون: ما ولى السبع الطوال، سميت بذلك لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربه.

والمثانى: ماولى المئين ـ وقد تسمى سور القرآن كلها مثانى لأن الأنبياء والقصص تثنى فيه أى تذكر مرة بعد مرة، ومنه قوله تعالى ﴿ اللَّه نزل أحسن الْحَديـث كتابا مُتشابها مثاني تقشعر منه جلُودُ الَّذيـن يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقُلُوبُهُمْ إلى ذكر اللَّه ذلك هُدى اللَّه يهدي به من يشاءُ ومن يُضلل اللَّه فما له من هاد (٢٣) ﴾ [الزمر/٢٣]، ويقال إن المثانى فى قوله تعالى ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني والْقرآن العظيم (٨٧) ﴾ [الحجر/٨٧]. هى آيات سورة الفاتحة، لأنها تثنى فى كل ركعة.

والمفصل: ما ولى المثانى من قصار السور، سمى مفصلا لكثرة الفصول التى بين السور بالبسملة، وقيل لقلة المنسوخ فيه، وآخره سورة الناس.

واختلف فى تحديد أوله:

١ ـ فمن العلماء من قال أوله الجاثية.

٢ ـ ومنهم من قال أوله القتال [illegible]

٣ ـ ومنهم من قال أوله الحجرات.

٤ ـ والصحيح أن أوله سورة (ق)، قال الماوردى فى تفسيره: حكاه عيسى بن عمر عن كثير من الصحابة. وهو الذى يؤيده الحديث الذى رواه أبو داود وابن ماجة وأحمد عن عثمان بن عبدالله بن أوس عن جده قال عبدالله بن سعيد فى حديثه عن أوس بن حذيفة قال قدمنا على رسول الله ﷺ فى وفد ثقيف قال فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة وأنزل رسول الله ﷺ بنى مالك فى قبة له قال مسرد (وكان فى الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف) قال كان كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا، وأكثر ما يحدثنا ما لقى من قومه من قريش ثم يقول فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا] فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذى كان يأتينا فيه فقلنا لقد أبطأ عنا الليلة قال إنه طرأ على جزئى من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه قال أوس سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن قالوا ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل. [سنن إبى داود كتاب الصلاة/ ١١٨٥]. وفى لفظ ابن ماجة «فيحدثنا قائما على رجليه حتى يرواح بين رجليه وأكثر ما يحدثنا ما لقى من قومه من قريش» وحسن ابن كثير إسناده، وعلى هذا إذا جمعنا الأحزاب الستة الأولى ـ أى بعد سورة الفاتحة ـ كان الحاصل ثمانياً وأربعين سورة فتكون التى بعدهن سورة ق.

ومعلوم أن الترتيب الحالى للمصحف غير ترتيب النزول، وقد كان لهذا الترتيب شأن عظيم فقد اكتمل نزول الكتاب وصار دستوراً لخير أمة، ترجع إليه فى عقائدها

وفى استنباط الأحكام منه، ولاشك أن هذا يستدعى ترتيباً غير ترتيب النزول، حيث روعى فيه أحوال القضايا التى نزل بشأنها القرآن الكريم وحال الداعى ﷺ وحال المدعوين.

أسماء سور القرآن:

للعلماء آراء فى أسماء سور القرآن الكريم هل كانت بتوقيف من النبى ﷺ أو كانت باجتهاد مأخوذ من موضوع السورة؟

قال السيوطى: «إن كل سورة سميت باسم خاص بتوقيف من النبى ﷺ» وقال أيضا وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والاثار ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك واستدل بما أخرجه ابن أبى حاتم عن عكرمة قال:

{«كان المشركون يقولون: سورة البقرة، وسورة العنكبوت، يستهزئون بها فنزل (إنا كفيناك المستهزئين)}.

لم تثبت جميع أسماء السور عن رسول الله ﷺ وإنما الثابت بعض الأسماء عنه ﷺ وبعضها مروى عن الصحابة والتابعين.

فقد يكون للسورة الواحدة أسماء متعددة أوصلها السيوطى إلى نيف وعشرين اسماً لسورة الفاتحة، ولم تثبت أحاديث لكل هذه التسميات وقد يكون للسورة اسم واحد وهو الكثير. والواجب على المسلمين المحافظة على الاسم المشهور لكل سورة وعدم تغييره. والوقوف عندما ورد فى المصاحف وكتب التفسير.

آراء العلماء فى ترتيب السور:

اختلف العلماء فى ترتيب سور القرآن بوضعها الحالى وتميزت فى هذا المضمار ثلاثة مذاهب.

المذهب الأول: أن ترتيبها كان باجتهاد الصحابة، وقد جنح إلى هذا المذهب الإمام مالك والقاضى أبو بكر بن العربي، وغيرهما - قال الإمام الزركشى فى البرهان: «قال أبو الحسين أحمد بن فارس: جمع القرآن على ضربين: أحدهما تأليف السور كتقديم السبع الطوال، وتعقيبها بالمئين فهذا الضرب هو الذى تولته الصحابة ﷺ وأما الجمع الآخر فضم الآى بعضها إلى بعض فذلك شيء تولاه رسول الله ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه سبحانه وتعالي.

واستدل هؤلاء على مذهبهم، بأن مصاحف السلف من الصحابة كانت مختلفة فى ترتيب السور، فمصحف على بن أبى طالب ﷺ رتبت فيه السور حسب نزولها، فأوله سورة العلق ثم المدثر ثم المزمل، ثم تبت ثم التكوير وهكذا إلى آخر السور المكية، ثم السور المدنية حسب نزولها أيضاً.

كما استدلوا بأن مصحف ابن مسعود، وأبى بن كعب كانا مبدوءين بالبقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأنعام، ثم الأعراف، ثم المائدة وهكذا، فلو كان ترتيب السور توقيفياً متلقى عن النبى ﷺ كترتيب الآيات لما اختلفت فيه المصاحف وهذا *الاستدلال* مردود *من ثلاثة أوجه*:

الأول: أن المصاحف المذكورة كتبت قبل العرضة الأخيرة، فلما كانت هذه العرضة واستقر بهذا ترتيب القرآن ترتيباً وأحكاماً رتبت هذه المصاحف على مقتضاها بأمر النبى ﷺ.

الثانى: أنه قد ورد فى الأحاديث الصحيحة ما يدل على أن ترتيب كثير من السور كان معلوماً فى حياة النبى ﷺ.

الثالث: أن زيد بن ثابت الذى أسند إليه الخليفة عثمان بن عفان رياسة اللجنة التى قامت على جمع القرآن كان من كتاب الوحي، وشهد العرضة الأخيرة للقرآن، وعلم ترتيب السور من رسول الله ﷺ، وليس من المعقول أن يحدث زيد من تلقاء نفسه ترتيباً للسور غير ما تلقاه من رسول الله ﷺ لأن ذلك لا يليق بصحابى جليل، فلابد أن يكون ترتيبه للسور قد تلقاه من رسول الله ﷺ.

المذهب الثانى:

أن هذا الترتيب توقيفى منقول عن رسول الله ﷺ وأصحاب هذا الرأى يرون أن الإجماع انعقد على مذهبهم هذا، ونسبوا القول بهذا الإجماع إلى الزركشى فى البرهان حيث يقول:

«فأما الآيات فى كل سورة ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفى بلاشك ولا خرف منه ولهذا لايجوز تعكيسها».

وقال القاضى أبو بكر: إن الأمة ضبطت عن النبى ﷺ ترتيب آى كل سورة وموضعها وعرفت مواقعها.

قال السيوطى فى الإتقان:

«وممن نقل الإجماع أبو جعفر بن الزبير فى مناسباته حيث قال: «ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف فى هذا بين المسلمين» وقال ابن الحصار «ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحى: كان رسول الله ﷺ يقول ضعوا آية كذا فى موضع كذا. وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ، ومما أجمع على وضعه الصحابة هكذا فى المصحف».

ومما استدل به أصحاب هذا المذهب:

١ ـ ما رواه أبو داود وابن ماجة وأحمد بأسانيدهم عن أوس بن حذيفة قال قدمنا على رسول الله ﷺ فى وفد ثقيف قال فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة وأنزل رسول ﷺ بنى مالك فى قبة له قال مسدد (وكان فى الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف) قال كان كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا وأكثر ما يحدثنا ما لقى من قومه من قريش ثم يقول لا سواء كنا مستضعفين مستذلين [قال مسدد بمكة فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالوان علينا] فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذى كان يأتينا فيه فقلنا لقد أبطأت عنا الليلة قال إنه طرأ على جزئى من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه قال أوس سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن قالوا ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل. (سنن أبى داود كتاب اصلاة/ ١١٨٥). ١٣٣٥. *قالوا: فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو فى المصحف الآن كان من عهد رسول الله ﷺ.*

٢ ـ ومن الأدلة التى تثبت أن الترتيب بتوقيف من النبى ﷺ ما رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وأحمد وغيرهم عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ اقرأ القرآن فى شهر قلت إنى أجد قوة حتى قال فاقرأه فى سبع ولاتزد على ذلك. [البخارى كتاب فضائل القرآن/٤٦٦]. يقولون: وكيف يختم القرآن فى هذه المدة وهو غير مرتب؟ وقد عرفوا ترتيبه من ملازمتهم للنبى ﷺ وقراءتهم عليه، وأخذهم منه.

٣ ـ واستدلوا ـ أيضا ـ بأن الصحابة أجمعوا على الترتيب الذى كتبت عليه المصاحف

العثمانية ولم يخالف فيه أحد ـ حتى من كانت عندهم مصاحف مكتوبة على غير هذا الترتيب ـ وأما خلاف ابن مسعود لهذا الإجماع فقد ذكر بعض العلماء أنه رجع عنه، وإجماعهم دليل على التوقيف، بل كان بالاجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بترتيبهم واجتهادهم الذى اقتنعوا به، لكنهم لم يتمسكوا به بل عدلوا عنه إلى تَرْتيب عثمان، فدل ذلك على أنه لم يكن باجتهاد، بل بتوقيف.

٤ ـ ومن أدلتهم أيضا أن السور المتجانسة فى القرآن لم يلتزم فيها الترتيب والموالاة، ولو كان الأمر بالاجتهاد للوحظ مكان هذا التجانس والتماثل دائما، لكن لم يكن، بدليل أن «الحواميم» وضعت فى المصحف متوالية، وكذا «الطواسين» ولم توضع «المسبحات» كذلك: وهى السور التى افتتحت بتسبيح الله سبحانه وتعالى بل فصل بينها بسورة لمجادلة والممتحنة والمنافقون.

كما فصل بين «طس الشعراء ـ وطس القصص» بـ «طس النمل ـ مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهاديا لوضعت المسبحات على التوالى لتماثلها فى الافتتاح، وأخرت «طس» عن القصص لما بين القصص والشعراء من التماثل فى الافتتاح والتقارب فى الطول.

المذهب الثالث:

وذهب فريق من العلماء مذهبا وسطا بين المذهبين السابقين فقالوا: إن بعض سور القرآن كان ترتيبها بتوقيف من النبى ﷺ وبعضها الآخر كان باجتهاد من الصحابة. وقد أخذ بهذا المذهب الوسط جماعة من العلماء منهم البيهقى الذى يقول فى كتابه (المدخل):

«كان القرآن على عهد النبى ﷺ مرتبا سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة، لحديث أحمد وأبى داود والترمذى والنسائى وغيرهم عن ابن عباس قال قلت لعثمان بن عفان ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطول ما حملكم على ذلك فقال عثمان كان رسول الله ﷺ ربما يأتى عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها (وكذا وكذا) وإذا نزلت عليه الآية فيقول ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها (كذا وكذا) وكانت الأنفال من أوائل ما أنزلت بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله صلى اللهم عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم فوضعتها فى السبع الطوال. (الترمذى كتاب تفسير القرآن/٣٠٠٤).

قال العلماء:

«فسؤال ابن عباس لعثمان يتضمن أن وصل براءة بالأنفال، وعدم إثبات البسملة بينهما، ووضعهما فى السبع الطوال. إنما هو من عمل عثمان ومن كان معه فى جمع القرآن، وأن هاتين السورتين لم تكونا قبل جمع عثمان بهذه الصفة من اقتران إحداهما بالأخرى، ووضعهما فى السبع الطوال، وجواب عثمان له يدل على تسليم ذلك، وأنه إنما فعل ما فعل لأن رسول الله ﷺ قبض، ولم يبين أن «براءة» سورة مستقلة، أو بعض السورة السابقة وهى الأنفال، فلما رأى عثمان ما بينهما من

تشابه واضح قوى عنده الظن بأن براءة من الأنفال فألحقت بها على أنهما معا سورة واحدة، وكان من نتيجة ذلك أنه وضعهما فى السبع الطوال، لأنهما بعد اعتبارهما سورة واحدة لاتوجد سورة أطول منهما تكمل بها السبع الطوال.

وقد مال السيوطى إلى هذا الرأى فقال:

«إنه ينبغى القول بأن محل الخلاف إنما هو فى ترتيب سور الأقسام الأربعة، وأما نفس الأقسام من الطوال ثم المئين ثم المثانى ثم المفصل فلا خلاف فى ترتيبها إجمالا، فهذا يقتضى القطع بأنه توقيفى وأن يدعى فيه الإجماع، وتوصل إلى هذا القول مما تقدم من الأحاديث ومن حديث ابن عباس فى اقتران براءة بالأنفال، ومن أن المصاحف التى وقع فيها الاختلاف فى الترتيب اتفقت على هذا الترتيب، واختلافها إنما كان فى ترتيب كل قسم - ثم قال «فإذا تحرر ذلك ونظرنا إلى محل الخلاف، فالمختار عندى فى ذلك ما قاله البيهقي، وهو أن كل السور توقيفية سوى الأنفال وبراءة.

وقال أبو جعفر بن الزبير: الآثار تشهد بأكثر ممانص عليه ابن عطية ويبقى القليل الذى يمكن أن يجرى فيه الخلاف، من ذلك - أى مما نص على ترتيبه - الزهراوان والسبع الطوال والمفصل والإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء وقل هو الله أحد والمعوذتان، للأحاديث الواردة فيها، وهى قوله ﷺ: اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة قال معاوية بلغنى أن البطلة السحرة. رواه مسلم عن أبى أمامة الباهلى [صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين/١٣٣٧].. وحديث سعيد بن خالد الذى رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه

«قرأ رسول الله ﷺ بالسبع الطوال فى ركعة، وأنه ﷺ كان يجمع المفصل فى ركعة».

وكذلك ما رواه البخارى أيضا عن عائشة أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات. [البخارى تفسير القرآن/ ٤٦٣٠].

الرأى الراجح:

فى رأينا أن المذهب الراجح هو القائل بأن الترتيب توقيفى خلافا للسيوطى رحمه الله الذى مال إلى القول بالاجتهاد. ودليلنا على رجحان القول بالتوقيف ما رد به العلماء على أدلة المذهبين الآخرين وهو:

١ - أن استدلال القائلين بالاجتهاد باختلاف مصاحف الصحابة لا يدل لهم، لأن اختلافها كان فى وقت النزول، وقبل إتمام الإنزال واستقرار الترتيب على ما كان فى العرضة الأخيرة، بدليل أن أصحاب هذه المصاحف عدلوا عن ترتيبهم إلى ترتيب عثمان عندما جمع عثمان القرآن، واتفق الصحابة على أن يجتمع المسلمون على مصحف واحد، ولو كان ترتيب مصحف عثمان بالاجتهاد - كما يدعون - لا بالتوقيف، لتمسك كل باجتهاده فإن هذا هو الشأن فى الأمور الاجتهادية، فظهر بهذا أن عدولهم عن ترتيبهم لابد أن يكون لدليل توقيفى. وفى ذلك يقول الألوسى فى مقدمة تفسيره: وإجماع الصحابة رضى الله عنهم أقوى دليل على أنهم وجدوا ما أفادهم علما، ولم يدع عندهم مجالا لأدنى وهم فلابد - أى لإجماعهم - إما عن التصريح بمواضع الآيات والسور، وإما من الر إليهم. وإجماع الصحابة على هذا الترتيب وعدولهم عما كانت عليه [illegible] دليل على أنهم وجدوا ما أفادهم علما، ولم يدع عندهم وهما.

٢ ـ أن حديث حذيفة الذى يستدلون به يمكن الرد عليه بأن السور لم تكن رتبت فى ذلك الوقت ثم وقع الترتيب بعد ذلك.

٣ ـ ويمكن الرد على حديث معاذ بأن ما ذكره الرسول ﷺ كان من باب التعليم أى أنه علم معاذا أن يقرأ بالسور القصار تخفيفا على المأمومين إذا كانوا يتضررون من الإطالة.

٤ ـ وأما حديث ابن عباس عن اقتران الأنفال ببراءة فلا يمكن الوثوق به لأنه دليل ظني، وقوله تعالى ﴿ إنَّا نحنُ نزَّلْنا الـذِّكْرَ وإنَّا لهُ لحافظُون (٩) ﴾ (الحجر/٩). قطعى الدلالة فهو أقوى.

وقد قال الألوسى تعليقا على القول المنسوب لعثمان فى نهاية هذا الحديث:

(فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها) وذلك بعيد، إذ الأنفال نزلت في السنة الثانية عقب بدر، والتوبة نزلت فى أواخر التاسعة بعد تبوك وبعد خروج أبى بكر للحج على رأس المسلمين. فكيف يعقل أن يظل الرسول ﷺ زهاء خمسة عشر شهرا ولا يبين للناس أنها منها أوغيرها؟ إنه بذلك يكون قد تأخر عن البيان فى وقت الحاجة إليه بل مات ﷺ قبل البيان وحاشاه ﷺ أن يفعل ذلك، ثم إن إطلاق الاسم على كل منهما واختلافه فيهما مما يعين أن هذه غير تلك ـ وقد سمى رسول الله ﷺ كلا منهما.

وأما قوله (فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم») فبعيد النظر أيضا، لأن البسملة لاتخضع لهوى الكاتب إثباتا أو حذفا. وإنما هى توقيف منه ﷺ، أخرج أبو داود والحاكم وابن حبان وصححاه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان النبى ﷺ لا يعلم ختم السورة حتى تنزل «بسم الله الرحمن الرحيم» وفى رواية: فإذا نزلت بسم الله الرحمن الرحيم علموا أن السورة قد انقضت.

المبحث الرابع

فواتح السور

من المعروف أن عدد سور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة منه تسع وعشرون سورة افتتحها الله سبحانه وتعالى بنصف حروف الهجاء، أ، ب، ت.. إلخ، ومنها سور افتتحت بحرف واحد مثل سورة ن. ص. ق.، ومنها سور افتتحت بحرفين اثنين كسورة، حم، طس، يس، ومنها ما افتتحت بحروف ثلاثة كفاتحة البقرة ألم، وآل عمران ويوسف الر، وهود، ويونس كذلك، وكفاتحة الشعراء والقصص طسم.

ومنها ما فاتحته أربعة حروف كسورة الأعراف المص، وسورة الرعد المر، ومنها ما افتتح بخمسة حروف كاملة كفاتحة مريم، كهيعص وفاتحة الشورى حم، عسق، فما معنى هذه الفواتح؟ وما عسى أن يكون وراء هذه الفواتح من المعانى والأسرار القرآنية؟

وكل حرف من هذه الحروف له سر من الأسرار وله ثواب عند تلاوته لما أخرجه الترمذى والحاكم وغيرهما عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف. [سنن أبى داود كتاب فضائل القرآن/٢٨٣٥].

وقد وقف العلماء أمام هذه الحروف مواقف الحيرة والتردد بين الإقدام والإحجام، فمنهم من قال فيها برأي، ومنهم من تهيب الخوض فيها. وبذلك أصبح أمامنا موقفان متناقضان:

الأول: موقف الذين أعرضوا عنها وقالوا بعدم الخوض فى تفسيرها وقد استدل هؤلاء بما يلى:

أ ـ *الدليل النقلي* وهو مستمد من قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذي أنزلَ عليكَ الكتاب منه آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكتَاب وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذيـــــنَ في قُلُوبهمْ زيْغٌ فيتَّبعُون ما تَشَابَهَ منْهُ ابْتغَاءَ الْفتْنَة وَابْتغَاءَ تَأْويله وَمَا يَعْلَمُ تَأْويلَهُ إلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسخُون في الْعلْم يقُولُون آمَنَّا به كُلٌّ مّنْ عنـد رَبّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَاب ﴿٧﴾ ﴾ (آل عمران/٧). وهم يقفون على لفظ الجلالة وقفا لازماً لأسباب ذكرها الشيخ أحمد بن أحمد الخليلى فى جواهر التفسير فقال:

أحدها: أنه لو عطف «الراسخون فى العلم» على اسم الجلالة للزم إما٧٩« انقطاع (آمنا به) عما قبله، وهو غير جائز لعدم إفادته، وإما رجوعه إلى المعطوف عليه، فيترتب عليه أن يكون الحق تعالى قائلا (آمنا به كل من عند ربنا) واعتقاد ذلك عين الكفر ورأس الضلال.

ثانيها: أن مدح الراسخين فى العلم بإيمانهم به دليل على أنه يختلف عن الحكم الذى فهموه، ولو كانا سواء فى فهمهما لما كان لهذا التخصيص معني.

ثالثها: نسبة الزيغ إلى الذين يريدون تأويله ولو كان كالمحكم لكان طلب معرفته موجباً للمدح لا للذم.

وعزز هؤلاء رأيهم بأنه مروي عن أجلة الصحابة رضي الله عنهم منهم الخلفا الأربعة، وابن مسعود وابن عباس، وهو قول جماعة من أعلام الأمة كالشعبي وسفيان الثوري، والربيع بن خيثم، وكثير من المحدثين.

ب ـ *الدليل العقلي*: وهو أن الله تعالى كلف المؤمنين بما له حكمة منهم كالعبادات المعروفة من صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وزكاة تسد حاجة الفق...

إلخ، وعبادات غير مفهومة الحكمة مثل رمى الجمرات والسعى بين الصفا والمروة والاضطباع، والامتثال فى النوع الثانى أكثر دلالة على تمام الخضوع والطاعة. وإذا جاز ذلك في العبادات العملية فلم لايجوز فى العبادة القولية كتلاوة القرآن؟

الثانى: موقف العلماء الذين أقدموا على تلمس معانيها، والبحث عن أسرارها، وقد استدل هؤلاء أيضاً بأدلة منها:

ب ـ *أدلة نقلية*: كقوله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) [النساء/٨٢]. فإن تدبره ليقتضى أن يكون مفهوماً. وقوله تعالى (هذا بلاغ الناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إلة واحد وليذكر أولوا الألباب) [إبراهيم/٥٢]. فلو لم يكن مفهوما لما صح الإنذار به، ومنه قوله ﷺ فيما رواه الإمام الترمذى فى سننه والإمام مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبدالله قال رأيت رسول الله ﷺ فى حجته يوم عرفة وهوعلى ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول يا أيها الناس إنى قد تركت فيكم ماإن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتى أهل بيتي. [سنن الترمذى كتاب المناقب/ رقم ٣٧١٨]. فكيف يتمسك الإنسان بما لا يفهمه؟

ب ـ *أدلة عقلية منها*:

١ ـ أنه لو تعذرت معرفة شيء من القرآن على أفهام الأمة ما كان لإنزاله فائدة، وكانت مخاطبة الناس به كمخاطبة العربى بالأعجمية، أو الأعجمى بالعربية.

٢ ـ أن الخطاب إنما يوجه إلى المخاطبين لأجل العمل بمقتضى ما يُخاطبون به فإن تعذر فهمه عليهم جميعاً تعذر عليهم العمل به.

٣ ـ أن القرآن الكريم تحدى الله تعالى به العرب، ولايصح التحدى إلا بما هو مفهوم أو قابل للفهم لأن يكون مفهوماً.

والمذهب الراجح:

الراجح فى رأينا هو المذهب الثانى لأنه أقرب إلى روح القرآن الكريم، غير أن من المهم التنبيه إلى ضرورة ألا يحتكر أحد الحقيقة فيزعم أن قوله فى تأويل هذه الحروف المقطعة هو الصواب بعينه وبخاصة أن ما ورد فى تفسيرها من أقوال أو صله العلماء إلى مائة قول.

وما ذهبنا إليه من أن الراجح هو المذهب الثاني، نسبه ابن عطية وأبو حيان والزمخشرى إلى الجمهور، ونسبه الفخر الرازى إلى علماء الكلام. قال ابن عطية بعد ذكر أقوال الصحابة والتابعين فى تفسير (ألم) فى أول البقرة معقباً على تلك الأقوال:

«والصواب ما قاله الجمهور أن تفسر هذه الحروف، ويلتمس لها التأويل، لأنا نجد العرب قد تكلمت بالحروف المقطعة نظماً لها ووضعاً بدل الكلمات ـ التى الحروف منها ـ كقول الشاعر:

قلنا لها قفى فقالت قاف

أراد قالت: وقف، [هو من رجز الوليد بن المغيرة عامل عثمان بن عفان رضي الله عنه قاله يخاطب به عدى بن حاتم، وقد اتهم بشرب الخمر فى قصة مشهورة فى التاريخ، وتمامه« لاتحسبنا قد نسينا الإيجاف»] ، وكقول القائل:

بالخير خيرات وإن شراً فا ولا أريد الشر إلا أن تا

أراد وإن شراً فشر، وأراد إلا أن تشاء. والشواهد فى هذا كثيرة، فليس كونها فى القرآن مما تنكره العرب فى لغتها، فينبغى إذا كان من معهود كلام العرب أن يطلب تأويله ويلتمس وجهه، والوقف على هذه الحروف يكون بتسكينها لنقصانها إلا إذا أخبرت عنها أو عطفتها فإنك تعربها.

وقد نقح الشيخ ابن عاشور فى تفسيره (التحرير والتنوير) آراء العلماء السابقين وردها إلى عشرين قولاً بعد حذف متشابهاتها ونقلها الشيخ الخليلى وأضاف إليها تفصيل أدلتها وعزوها إلى أصحابها وهى باختصار:

«أولها: أنها حروف اقتضبت من أسماء وصفات الله سبحانه وتعالى افتتحت بحروف مماثلة لها، فـ (الم) مثلاً، الألف تشير إلى أحد أو أول آخر، واللام إلى لطيف، والميم إلى ملك أو مجيد أو نحو ذلك. وهو المفهوم مما أخرجه ابن جرير فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وناس من أصحاب النبى ﷺ أنهم قالوا: أما (الم) فهو حرف اشتق من حروف هجاء أسماء الله جل ثناؤه. وأخرج ابن جرير أيضاً عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (ألم) و(حم) و(ن) قال: اسم مقطع، وروى مثل ذلك عن محمد بن كعب القرظي، والربيع بن أنس، واعترض على ذلك بأن صحة ما قالوه يتوقف على التوقيف وأنى لهم به.

ثانيها: أنها رموز لاسماء الله تعالى وأسماء الرسول ﷺ والملائكة، فـ (الم) مثلاً، الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد، قاله الضحاك، وهو كالذى قبله فى توقف صحته على التوقيف.

ثالثها: أنها أسماء للملائكة، وأنها إذا تليت كانت للنداء لملائكتها وتصغى

الملائكة إلى ما يقوله التالى بعد النطق بها، فيقولون: صدقت، إن كان بعدها خبر، ويقولون: هذا مؤمن حقاً، نطق حقاً، وأخبر بحق، فيستغفرون له، وهو قول محيي الدين بن عربى فى كتابه (الفتوحات المكية)، وهو قول بعيد عن أسلوب القرآن ومقاصده.

رابعها: أنها رموز لأسماء النبى وأوصافه خاصة، فالألف مكنى به عن جملة أسمائه المفتتحة بالألف، كأحمد وأبى القاسم، واللام مكنى عن صفاته مثل لب الوجود، والميم مكنى به عن محمد، وما ماثله كمبشر ومنذر، ونسب ابن عاشور هذا القول إلى الشيخ محمد بن صالح التونسى المعروف بابن ملوكه فى رسالة له، ثم قال: وعلق على هذه الرسالة تلميذه شيخ الإسلام محمد معاوية تعليقة أكثر فيها من التعداد وليست مما ينثلج بمباحثه الفؤاد، ويرد هذا القول التزام حذف حرف النداء، وما قيل من ظهوره فى (يس) مبنى على قول من قال إن (يس) بمعنى يا سيد، وهو ضعيف لأن الياء فيه حرف من حروف الهجاء، ولأن الشيخ نفسه عد (يس) بعد ذلك من الحروف الدالة على الأسماء مدلولاً لنحو الياء من (كهيعص).

خامسها: أنها رموز لمدة دوام هذه الأمة بحساب الجمل، قاله أبو العالية استناداً إلى ما رواه البخارى فى تاريخه وابن اسحاق وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنه عن جابر بن عبد الله بن رئاب، قال: مر أبو ياسر أبن أخطب برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ... ②﴾ [البقرة/١ ، ٢]، فأتى أخاه حيي بن أخطب فى رجال من يهود قال: تعلمون والله قد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله سبحانه وتعالى عليه (ألم ذلك الكتاب...) فقالوا: أنت سمعته؟ قال: نعم، قال: فمشى حيي بن أخطب فى أولئك النفر من

يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يامحمد، ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل عليك (ألم ذلك الكتاب) فقال رسول الله ﷺ: بلى، فقالوا، أجاءك بهذا جبريل من عند الله؟ قال: نعم، قالوا: لقد بعث الله جل ثناؤه قبلك أنبياء، ما بين لنبى منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك، فقال حيي بن أخطب - وأقبل على من كان معه -: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، قال: فقال لهم: أتدخلون فى دين نبى إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، هل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال ماذا؟ قال: (ألمص) قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه مائة وإحدى وستون سنة، هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: نعم، قال: ماذا؟ قال (الر) قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مئتان، فهذه إحدى وثلاثون، ومئتا سنة، قال: هل مع هذا غيره يا محمد؟ قال: نعم، (المر) قال: فهذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، الميم أربعون، والراء مئتان، فهذه إحدى وسبعون ومئتا سنة، ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ماندرى أقليلا أعطيت أم كثيرا، ثم قاموا عنه، فقال أبو ياسر لأخيه حيي بن أخطب ولمن معه من الأحبار: ما يريدكم لعله قد جمع هذا كله لمحمد، إحدى وسبعون، وإحدى وستون ومائة، ومئتان وإحدى وثلاثون، ومئتان وإحدى وسبعون، فذلك سبعمائة سنة وأربع ثلاثون، فقالوا: لقد تشابه علينا أمره، قال ابن جرير: ويزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٧) ﴾ (آل عمران/٧).

قال الشيخ الخليلي بعد إيراد هذه القصة:

وليس فى هذه القصة دليل على صحة هذا القول، ولو قدرنا صحتها ـ فما بالكم وسندها ضعيف بالاتفاق ـ فإن القرآن لا يعول فى تفسيره على خرافات أهل الكتاب التى لا تستند إلا على الأوهام، وليس فى إجابة الرسول ﷺ إياهم بعدة حروف أخرى من هذه الحروف المتقطعة فى أوائل السور تقرير لما ذهبوا من أنها ترمز إلى مدة بقاء هذه الأمة، وإنما يحمل ذلك ـ لو صح وما هو بصحيح ـ على قصده ﷺ إبطال مزاعمهم وتفنيد فهومهم على الطريقة المعروفة عند أهل الجدل بالنقض، ومرجعها إلى المنع، وقد قيل إن المانع لا مذهب له، ولا يستفاد من ضحكه ﷺ إلا الإستغراب من جهلهم.

سادسها: أنها رموز، كل حرف منها رمز إلى كلمة، فنحو (الم) أنا الله أعلم، (المر) أناالله أرى، (المص) أنا الله أعلم وأفصل، رواه ابن جرير من طريق أبى الضحى عن ابن عباس، وروى مثله عن سعيد بن جبير، وهو كالقول الثانى مبنى على ما عرف عن العرب أنهم يتكلمون بالحروف المقطعة أحياناً من الكلمات التى تتألف منها، وهو معروف عنهم نظماً ونثراً، ومنه قول زهير:

بالخير خيرات وإن شر فَا.. ولا أريد الشر إلا أن تا..

أراد: وإن شر فشر، وأراد: إلا أن تشاء، فاكتفى من كل كلمة بحرف، وقول آخر:

ناداهم أن اجمعوا ألا تا.. قالوا جميعاً كلهم ألا فا..

أراد بالأول: ألا تركبون، وبالثانى: ألا فاركبوا:

وفى الحديث: «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة» هو أن يقول كلمة: «اق.. مكان اقتل، وفى حديث سعد بن عبادة عند ابن ماجة: «كفى بالسيف شا.. «أى شاهدا، وقال لبيد:

درس المنا.. فمتالع.. فأبان   فتقادمت بالحبس فالسوبان

أراد: المنازل، وقال علقمة:

كأن إبريقهم ظبى على شرف   مقدم بسبا.. الكتان ملثوم

أراد: بسبائب الكتان.

وهو - كما قال العلامة ابن عاشور - يوهنه أنه لا ضابط له، لأنه أخذ مرة بمقابلة الحرف بالحرف أول الكلمة، ومرة بمقابلته بحرف وسط الكلمة، وما ذكر من الشواهد لا يصح حمل فواتح السور عليه لاختلاف المقام، وانعدام النسبة التى تسوغ تخريج القرآن على مثل ذلك.

سابعها: أنها ترمز إلى أحوال نفسية تترتب على تزكية القلب، وتحلية النفس بالحقائق الإيمانية، وهو مبنى على اعتبار عدد الحروف المفتتح بها بتكرارها فهى ثمانية وسبعون حرفاً، ويشار بها إلى شعب الإيمان فى حديث أبى هريرة: «الايمان بضع وسبعون شعبة»، فهذه الحروف هى شعب الإيمان، ولاتكمل لأحد أسراره حتى يعلم حقائق هذه الحروف فى سورها، والبضع يصدق على الثمانية فهى المرادة به.

والأقوال السبعة السابقة تتفق فى أنها جعلت تلك الحروف رموزاً لكلمات أو معان معينة.

القول الثامن: أنها أسماء للسور التى افتتحت بها، وهو قول زيد بن أسلم.

ونسب إلى الخليل وسيبويه، وقال به جم غفير من السلف والخلف، واختاره الفخر الرازي، وعزاه إلى أكثر المحققين، كما عزاه الزمخشري إلى الأكثر، واقتصر عليه الإمام محمد عبده، وأقره تلميذه السيد محمد رشيد رضا فى تفسير سورة البقرة من «المنار» وناظروه بالتسمية لما أشبه أسماء الحروف كـ (لام) اسما لوالد حارثة بن لام الطائي، و(عين) اسما للسحاب،، و(نون) اسما للحوت، و(ق) اسما لجبل موهوم، و(حا) اسما لقبيلة من مذحج، وأيدوه بقول شريح بن أوفى:

يذكرنى حاميمَ والرمح شاجر   فهلا تلا حاميم قبل التقدم

واعتُرض على هذا الرأى بأمور:

الأول: أن الإشتراك بين مجموعة من السور فى فاتحة من هذه الفواتح بعينها كـ (الم) و(حم) يفيد فائدة التسمية لها.

الثانى: أن التسمية تقتضى الاشتهار ولم تشتهر هذه السور بها، وإنما اشتهرت بأسماء أخرى، كالبقرة وآل عمران ويونس وهود ويوسف.

الثالث: أن العرب لم تتجاوز فيما سمت به مجموع لميمين كمعدى كرب، وبعلبك، ولم يسم أحد منهم بمجموع ثلاثة أسماء أو أربعة أو خمسة، فالقول بأنها أسماء لسورها خروج عن لغتهم.

الرابع: وجوب التغاير بين الاسم والمسمى والقول بإسميتها يقتضى اتحادها.

الخامس: أن هذه الألفاظ داخلة فى السور وجزء الشىء متقدم على جميعه رتبة، واسمه متأخر عنه، فيلزم أن يكون متقدما متأخرا معا، وهو محال.

وأجيب عن الاعتراض الأول بأن الأعلام كثيرا ما تكون مشتركة بين الناس أو

البلدان أو غيرهما، وإنما صح الاشتراك لأن العلم يوضع لكل واحد وضعا مستقلا، وما يتبع هذه التسميات من الإضافات وغيرها كاف لتعيين المراد بها.

وعن الثاني: بأنه ورد عنه ﷺ: «يس قلب القرآن»، و«من قرأ حم حفظ إلى أن يصبح» وفى السنن وغيرها أن النبى ﷺ سجد فى (ص). وإذا ثبت فى البعض ثبت فى الجميع إذ لافارق،واشتهار أحد العلمين لايضير علمية الآخر، فكثير من الأسماء مجهولة لايتوصل إلى معرفتها إلا بعد التفتيش لغلبة الكنى أو الألقاب عليها، كأبى هريرة وذى اليدين، وقد يكون عدم الاشتهار لنفس الاشتراك فيترك لاحتياجه إلى ضميمة كـ (الم) هنا.

وعن الثالث: بأن التسمية بثلاثة أسماء فما فوق إنما تمنع إذا ركبت تركيبا مزجيا، وجعلت اسما واحداً، أما إذا نثرت نثر أسماء الأعداد فلا تمنع لأنها من باب التسمية بما حقه الحكاية، وقد وردت التسمية بجملة تركبت من أكثر من كلمتين: كشاب قرناها، وسر من رأى، وقد سوى سيبويه بين التسمية بالجملة، والبيت من الشعر وطائفة من أسماء حروف المعجم.

وعن الرابع: بأن التغيير الحاصل بين الكل والجزء كاف لتسويغ تسمية أحدهما بالآخر، ولذلك كان الحرف الهجائى المسمى جزءاً من اسمه فى الغالب، فلا مانع من العكس، على أن تسميات سور القرآن الكريم غالباً ما تكون كلمة مأخوذة من السورة المسماة.

وعن الخامس: بأن التقدم والتأخر إنما هما بحسب الاعتبارات، الجزء مقدم على الكل من حيث ذاته، ومؤخر عنه من حيث الوصف وهو الاسمية إن اعتبر اسما له، وقد سبق فى الجواب الذى قبله أن غالب التسميات المشهورة لسور القرآن تكون بانتزاع كلمات منها كالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة، والأنعام وهلم جرا

تاسعها: أنها أسماء وقد ذكر هذا الرأى ابن جرير فى تفسيره ونسبه إلى قتادة ومجاهد وابن جريج، ونسبه غيره إلى الكلبى والسدى، ورده ابن عاشور لأنه قد وقع بعد بعضها ما لا يناسبها كانت أسماء للقرآن، نحو ﴿ الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② ﴾ [الروم/١-٢]. و﴿ الٓمٓ ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ② ﴾ [العنكبوت/١-٢].

عاشرها: أن كل مجموعة مركبة منها هى اسم من أسماء الله، واستؤنس له بما روى عن على أنه كان يقول:

«يا كهيعص، يا حم عسق» وعليه فالحروف المفردة يرجع بها إلى ما يناسبها أن تندرج تحته من الأقوال، وأبطله ابن عاشور فى تفسيره لعدم الارتباط بين بعضها وما بعده بحيث يسوغ أن يكون خبراً أو نحوه عن اسم الله، مثل قوله ﴿ الٓمٓ ① ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② ﴾ [البقرة/١-٢]. و﴿ الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ① ﴾ (إبراهيم/١).

الحادي عشر: أنها أفعال، فإن حروف (الم كتاب) هى نفس الحروف التى فى (الم) بمعنى نزل، فالمراد من (الم ذلك الكتاب...) نزل عليكم، قاله الماوردي، ورد بأنه لاتقرا بصيغ الأفعال مع عدم إمكان حمل جميعها على هذا التأويل نحو (كهيعص، الر) وهو كما قيل لولا غرابته لكان حرياً بالإعراض عنه.

الثاني عشر: أن هذه الحروف أقسام (جمع: قسم، أى أيمان) أقسم الله سبحانه وتعالى بها كما أقسم بالقلم تنويها بشأنها، لأنها أسماء تألفت من

مسمياتها، وهى كذلك أساس التخاطب، ومصدر العلوم، وهذا القول نسبه ابن جرير إلى ابن عباس وعكرمة، ونسبه غيره إلى الأخفش.

الثالث عشر: وهو أشهر الأقوال فى تفسيرها: أنها سيقت على طريقة التهجى مسرودة على نمط التعديد فى التهجية، لإيقاظ شعور السامعين، وإثارة فكرهم، ليدركوا أن هذا الكتاب - الذى تحدوا ببلاغته، وحاروا عندما طولبوا بأن يأتوا بأقصر سورة من مثله وهم فرسان البلاغة القابضون على نواصيها والرائضون لعاتيها ومستعصيها - إنما هو من جنس كلامهم الذى ألفوه، وحروفه هى نفس الحروف التى يصوغون منها كلامهم، فلو كان صادراً عن ملكات البشر لكان بإمكانهم أن يعارضوه فيقابلوا الكلمة بكلمات، والسورة بسور، ولكن عجزهم دل على أنه فوق مدارك الافهام وأسمى من أن تناله ملكات الأنام.

هذا القول منسوب إلى المبرد وقطرب والفراء، وعليه ابن تيمية والحافظ المزى شيخ ابن كثير المفسر، وانتصر له الزمخشرى فى كشافه أتم الانتصار واختاره الشيخ ابن عاشور، وذكر أن المناسبة أو قوعها فى فواتح السور أن كل سورة مقصودة بالإعجاز لقوله تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) ﴾ (البقرة/٢٣). فناسب افتتاح ما به الإعجاز بالتمهيد لمحاولته، وأيده بأن التهجى ظاهر فى هذا المقصد، فلذلك سكتت عنه العرب لظهور أمره، لأن التهجى معروف عندهم، فإذا ذكرت حروف الهجاء على تلك الكيفية التى عهدت فى التعليم فى غير مقامه أدرك السامعون أنهم عوملوا معاملة المتعلم لتشابه الحالين فى العجز عن الإتيان بكلام بليغ،وفى هذا تعريض بهم بمعاملتهم معاملة الصبيان أول تعليمهم القراءة والكتابة، وفى ذلك ما

لا يخفى من الإغراء والإثارة على التحدى والمعارضة، كما أيده أن معظم هذه الحروف نزلت فى أوائل السور المكية، وإنما شاركتها من المدنية البقرة وآل عمران، ولعل ذلك لنزولهما بعيد الهجرة من مكة، وقصد التحدى فى القرآن المكى قصد أولى وعضده أيضا بأن الحروف المختتمة أسماؤها بألف ممدودة كالياء والهاء والراء والطاء والحاء، قرئت فى هذه الفواتح مخففة على طريقة تهجى الصبيان.

الرابع عشر: أنها أريد بها تعليم العرب الأميين الحروف المقطعة، كما يعلم الصبيان، فإذا وردت عليهم بعد ذلك مركبة كان ذلك أسهل عليهم، وهو قول عبدالعزيز بن يحيي، وهذا لأن العرب ندر فيهم، من قرأ وكتب لأن عنايتهم كانت موجهة إلى فنون الفروسية وطرائق القتال، وكان جلهم أهل بادية لايدعوهم داع إلى تعلم القراءة والكتابة، وإذا وجد بينهم من تعلمها فلا يكون إلافى الحواضر كحواضر اليمن والحجاز، ومع ذلك كانوا قلة نادرة مغمورة بالسواد الأعظم من الأميين ومن حيث إن القرآن نزل قاضيا على الأمية كانت مجموعة من سورة مفتتحة بهذه الفواتح المقتضبة للتهجى الذى هو مفتاح القراءة والكتابة.

واعترض على هذا الرأى بأن الحروف المصدرة بها فى السور ليست جميع حروف المعجم وإنما هى نصفها كما بينه صاحب الكشاف، وبذلك لا يسوغ أن يكون ذكرها للتعليم.

الخامس عشر: أنها حروف أريد بها التنبيه كأدوات النداء، نحو يا فلان التى يراد بها تنبيه ذهن السامع وهو محكى عن ثعلب والأخفش وأبى عبيدة.

قال ابن عطية: كما يقول فى إنشاد أشهر القصائد لا وبل، وفى معناه قول الفخر الرازى فى تفسير فاتحة العنكبوت:

«إن الحكيم إذا خاطب من يكون فى محل الغفلة أو من يكون مشغول البال بشغل من الأشغال، يقدم على الكلام المقصود شيئاً غيره ليلتفت المخاطب لسببه إليه، ويقبل بفكره عليه، ثم يشرع فى المقصود، وذلك المقدم قد يكون كلاما ذا معنى مفهوم كقول القائل: اسمع واجعل بالك إلى وكن لي، وقد يكون شيئاً هو فى معنى الكلام المفهوم كقول القائل: أزيد ويا زيد وألا يا زيد، وقد يكون صوتاً غير مفهوم كم يصفر خلف إنسان لتلتفت إليه، وقد يكون ذلك الصوت بغير الفم كما يصفق الإنسان بيديه ليقبل السامع عليه، ثم إن موقع الغفلة كلما كان أتم والمقصود كان أهم، كان المقدم على المقصود أكثر، ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال: أزيد، والبعيد بيا فيقال: يا زيد، والعاقل ينبه أولا فيقال: ألا يا زيد، ثم قال: إذا ثبت هذا فنقول أن النبى ﷺ وإن كان يقظان الجنان ولكنه إنسان يشغله شأن عن شأن، فحسن من الحكيم أن يقدم فى خطابه حروفاً هى كالمنبهات، ثم إن تلك الحروف إن كانت لا يفهم معناها كانت أتم فائدة لأن المقصود بها إقبال السامع على المتكلم ما بعدها، فلو كانت كلاماً منظوماً وقولاً مفهوماً لربما ظن سامعها أنها غاية المقصود، وليس شيء وراءها فيقطع التفاته عن المتكلم، أما إن كانت صوتاً بلا معنى كانت أدعى إلى إقبال السامع واستدامة إصغائه للمتكلم لعلمه أن وراءها غاية لم يصل إليها.

السادس عشر: أن تصدير بعض السور بهذه الفواتح أريد به شد انتباه السامعين إلى معجزة القرآن المنزل على النبى الأمي، وذلك أن النطق بهذه الحروف مركبة فى الكلمات أمر تساوى فيه العرب، فلا فرق بين الأميين وأهل الكتاب منهم بخلاف النطق بأسمائها، فإنه كان نادراً لا يتجاوز القراء والكتاب الذين خالطوا أهل

الكتاب فاقتبسوا منهم معرفة الكتابة والقراءة، ويستبعد جدا النطق بها من أمى لم تسبق له قراءة أو كتابة استبعاد القراءة والكتابة نفسها، كما سبحانه وتعالى ﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾ (العنكبوت/٤٨).

فكان نطق النبى ﷺ بها يكن هو ولا قومه يعلمونها، ففى كلا الأمرين شهادة على عدم تلقيهما إلا من وحى الله سبحانه وتعالى، إذ مثلهما كمثل المتكلم بلغة أجنبية لمن لم يسمعها من قبل.

وتعقبه الإمام ابن عاشور بأن الأمى لاتعسر عليه التهجية.

السابع عشر: أنها وردت هكذا ليصغى إليها المشركون لما فيها من الغرابة، فينصب فى أذانهم ما يليها من المعاني، والقصص والأحكام، وذلك أهم كانوا يتصامون عنه خشيةتأثيره عليهم ببيانه البليغ، ومعناه الساطع وكما حكي الله عنهم قولهم: ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون (٢٦) ﴾ [فصلت/٢٦]، فكانت هذه الفواتح وسيلة لإنصاتهم، قاله قطرب، وهو قريب من بعض ما تقدم.

الثامن عشر: أنها علامة لأهل الكتاب وعدوا بها من قبل أنبيائهم فى سور الكتاب الذى ينزل على النبى المنتظر ﷺ.

التاسع عشر: أنها وردت هكذا تنبيها على تركب كلمات القرآن من الحروف الحادثة التى يتركب منها سائر الكلام، ليكون فى ذلك هدم لدعوى من يقول بقدم القرآن من هذه الأمة، وذلك أن الله سبحانه وتعالى علم أن قوماً سيقولون ذلك، فأنزل هذه الحروف لتكون دليلاً على بطلان معتقداتهم.

العشرون: أنها ثناء الله سبحانه وتعالى بها على نفسه، وقد روى ذلك ابن عباس وهو يرجع أيضاً إلى بعض ما سبق.

قال العلامة الشيخ الخليلى معقباً على هذه الأقوال:

«وأكثر هذه الأقوال ليس بحاجة إلى دليل على ضعفه، ومن ورائها أكثر منها، فإن ما قيل فى هذه الفواتح يناهز مائة قول أو يتجاوزها، فما من اسم من أسماء الله أو صفة من صفاته فيه حرف من هذه الحروف إلا قيل إنه المراد بذلك الحرف، سواد كان فى أوله أو وسطه أو آخره، ومما لا يمارى فيه أن الأقوال - وإن جلت منزلة قائلها - إذا لم تعضدها الأدلة لا تعدو أن تكون دعاوى أعوزتها البينات.

وأدلى بعض العلماء المعاصرين بدلوهم فى هذا المعترك فقالوا:

* إن هذه الحروف من أعجب المعجزات والدلالات على صدق الرسول ﷺ وهذا مماترضاه النفوس، فقد ذكر فى فواتح السور نصف الحروف الهجائية إن لم تعد الألف وجعلها فى تسع وعشرين سورة عدد الحروف وفيها الألف وأتى بنصف المهموسة ونصف المجهورة ونصف الشديدة، ونصف الرخوة، ونصف المطبقة ونصف المنفتحة. وهذا أمر فيه إعجاز للعقول وحيرة فيقال: كيف تنصف الحروف الهجائية وتنصف أنواعها من مهموسة وشديدة وهذه الأنواع لم يدرسها أحد فى العالم أيام النبوة ثم لما ظهرت تلك الدراسات وافقت تلك الحروف بأنصافها وهذا يعطى العقول مثلا من الغرابة الدالة على أن هذا لا يقدر عليه المتعلمون فدل ذلك على أنها من عند الله.

* إن الله خلق العالم منظماً محكماً متناسقاً ومتناسباً والكتاب السماوى إذا جاء مطابقاً لنظامه موافقا لإبداعه دل ذلك على أنه من عنده سبحانه وتعالى.

* *والعالم المشاهد فيه عدد الثمانية والعشرين وذلك فيما يأتى:*

١- مفصل اليدين فى كل يد أربعة عشر.

٢ ـ خرزات عمود ظهر الإنسان منها أربع عشرة فى أسفل الصلب وأربع عشرة فى أعلاه.

٣ ـ خرزات العمود التى فى أصلاب الحيوانات التامة الخلقة كالبقر والجمال والحمير وسائر الحيوانات التى تلد أولادها منها أربع عشرة فى مؤخر الصلب وأربع عشرة فى مؤخر البدن.

٤ ـ عدد الريشات التى فى أجنحة الطير المعتمدة عليها فى الطير أربع عشرة ريشة ظاهرة فى كل جناح.

٥ ـ منازل القمر ثمان وعشرون منزلة فى البروج الشمالية أربع عشرة وفى البروج الجنوبية أربع عشرة، فهكذا فى القرآن الكريم جاءت الحروف العربية مقسمة قسمين قسم منها أربعة عشر منطوق به فى أوائل السور، وقسم منها أربعة عشر غير منطوق به فى أوائلها: وكأنه تعالى يقول «أى عبادى إن منازل القمر ثمان وعشرون قسماً، ومفاصل الكف ثمانية وعشرون وهى قسمان، والحروف التى تدعم فى حرف التعريف أربعة عشر فلتعلموا أن هذا القرآن هو تنزيل منى لأنى نظمت حروفه على النمط الذى اخترته فى صنع الأجسام الإنسانية والحيوانية ونظام الحروف الهجائية، فمن أين لبشركمحمد أن ينظم هذا النظام ويجعل هذه الأعداد موافقة للنظام الذى وضعته، والسكن الذى رسمته والنهج الذى سلكته، إن القرآن تنزيل منى وقد وضعت هذه الحروف السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، بل جعلت النظام فى العالم وفى الوحى متناسباً وهذا الكتاب سيبقى إلى آخر الزمان ولغته ستبقى معه إلى آخر الأجيال.

الراجح:

والراجح فى رأينا من خلاصة ما ذكره العلماء فى فواتح السور، أنها حروف استأثر الله تعالى بعلمها ونزل القرن الكريم بها على هذه الكيفية المخالفة لنظام نثر العرب الذى كان سائداً لتأكيد معنى الإعجاز البيانى للقرآن الكريم. والله تعالى أعلم.

المبحث الخامس

المكى والمدنى

معرفة المكى والمدنى علم جليل من علوم القرآن يعكس اهتمام المسلمين بهذا الكتاب الكريم ومحافظتهم على التأريخ لكل سورة وكل آية. متى وكيف وأين ولماذا أنزلت؟

ولهذا العلم فوائد عظيمة منها:

أولاً: علم معرفة المكى والمدنى يخدم فروعاً أخرى من علوم القرآن مثل علم أسباب النزول، وعلم التفسير وعلم قصص القرآن، وعلم العام والخاص، وعلم المحكم والمتشابه.

ثانياً: هذا العلم يوضح لنا تاريخ التشريع الإسلامي، والأطوار التى مر بها الفقه والاجتهاد فى خدمة العقيدة والشريعة.

ثالثاً: يسهم هذا العلم فى حل الإشكالات التى تترتب على ما بين بعض الآيات من تشابه أو اختلاف عن طريق معرفة تواريخ وأماكن ومناسبات النزول.

رابعاً: على هذا العلم ينبنى جزء كبير من علم الناسخ والمنسوخ عن طريق تتبع الأحكام التى نزلت فى موضوع معين كالربا أو الزنا أو الجهاد.. إلخ.

خامساً: هذا العلم يؤكد حقيقة الإعجاز القرآنى وأنه من عند الله سبحانه وتعالى وليس من وضع النبى ﷺ كما زعم بعض المستشرقين والكفرة، وذلك لأن من المستحيل على العقل البشرى أن يراعى هذه الدقة فى عدم تناقض الأحكام فى كتاب واحد تم جمعه فى ثلاث وعشرين سنة قال تعالى ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ (النساء، ٨٢).

سادساً: تفريق إنزال القرآن بين أماكن ومناسبات مختلفة يؤكد رحمة الله جل جلاله بأمة الإسلام، وبنبيه محمد ﷺ فقد أراد المشركون أن ينزل هذا الكتاب جملة واحدة وفي هذا ما فيه من صعوبة على المسلمين في حفظه ورعايته قال تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) ﴾ (الفرقان، ٣٢).

وعلم المكى والمدنى يؤكد هذه الحقيقة: حقيقة حكمة التفريق والتنجيم فى إنزال القرآن.

سابعاً: إن معرفة المكى والمدنى وتدرج نزول الآيات حسب المواقف التى واجهت الدعوة الإسلامية تقدم لنا منهجاً متكاملاً فى الدعوة والتغيير الاجتماعى يمكن استشفافه من متابعة التطور الزمنى والحركى للدعوة.

كيف نعرف المكى والمدنى:

لمعرفة المكى والمدنى طريقان عند العلماء أحدهما سماعى والثانى قياسي:

فالأول: النقل عن الصحابة والتابعين:

فلم يثبت شيء عن النبى ﷺ يحدد ما هو المكى وما المدني، ولكن ثبت ذلك عن الصحابة الذين عاصروا نزول كل آية واهتموا بالتأريخ لها مكانا وزمانا وأسبابا. ومهمة الباحث فى هذا العلم أن يتناول تلك المرويات بالنقد والتحليل والموازنة طبقا لأصول منهج المحدثين المعروفة فى دراسة الأسانيد.

والدليل على أهمية هذا الطريق ما روى من قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «والله الذى لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت؟ ولا

نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت؟ ولو أعلم أن أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه».

وقد ورد عن ابن عباس وغيره من أصحاب رسول الله ﷺ علم المكى والمدني.

ثم إن التابعين رضي الله عنهم قد نقلوا علم الصحابة رضي الله عنهم للمعارف القرآنية من أسباب النزول وتاريخ النزول وغير ذلك من علوم القرآن ومعارفه وأحواله، ومن هنا كانت معرفتهم بالقرآن الكريم وأحواله كبيرة واسعة يدل على ذلك ما أخرجه أبو نعيم فى الحلية: قال أبو أيوب سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال: نزلت فى سفح ذلك الجبل وأشار إلى جبل «سلع».

والثانى: **الحكم العقلى:**

ويمكن للباحث أن يحكم بعقله ما إذا كانت الآيات مكية أو مدنية إذا استطاع أن يحيط علما بخصائص المكى والمدنى التى أوردها العلماء. ولهذا الطريق أصول قديمة ثبتت بالطريق الأول: أى بطريق الرواية فقد روى الدارمي بسنده عن يحيي بن سلام أنه قال: ما نزل بمكة وما نزل بطريق المدينة قبل أن يبلغها النبى ﷺ ، فهو من المكي، وما نزل على النبى ﷺ في أسفاره، بعد ما قدم المدينة فهو من المدني، وماكان من القرآن {يا أيها الذين آمنوا} فهو مدنى وما كان {يا أيها الناس} فهو مكي.

وذكر أيضا بإسناده عن عروة بن الزبير قال: ما كان من حد أو فريضة فإنه أنزل بالمدينة، وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنه أنزل بمكة.

وذكر ابن أبى شيبة فى مصنفه فى كتاب فضائل القرآن: حدثنا وكيع عن

الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال: كل شيء نزل فيه {يا أيها الناس} فهو بمكة وكل شيء نزل فيه {يا أيهاالذين آمنوا} فهو بالمدينة.

وأخرجه الحاكم في المستدرك عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله رضي الله عنه قال: ما كان {يا أيها الذين آمنوا} نزل بالمدينة، وما {كان يا أيها الناس} فبمكة، قال السيوطي: وأخرجه أبو عبيد في الفضائل عن علقمة مرسلا.

كما أخرج أيضا عن عبدالرحمن بن يزيد عن ابن مسعود قال: قرأنا المفصل حينا وحججنا بمكة ليس فيها {يا أيها الذين آمنوا} وقال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

تقسيم القرآن إلى مكى و مدني:

غلب على علماء القرآن تقسيمهم سور القرآن الكريم إلى مكية ومدنية باعتبار تغليب هذين المكانين على غيرهما فقد أنزلت آيات من القرآن في غير مكة. والمدينة كقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) ﴾ [القصص، ٨٥]، فقد نزلت هذه الآية الكريمة بموضع يقال له (الجحفة) وهي قرية كبيرة كانت على بعد أربع مراحل من مكة كما يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان، وهي ميقات أهل مصر والشام إذا لم يمروا على المدينة، فإن مروا على المدينة فميقاتهم ذو الحليفة.

وقوله تعالى ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) ﴾(الزخرف، ٤٥)، ونزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء والمعراج، وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عليه

دَلِيلاً ﴿٤٥﴾ [الفرقان، ٤٥]. أنزلت بالطائف. وهناك آيات أخر أنزلت بالحديبية وفى الغزوات المختلفة.

غيرأن العلماء درجوا ـ كما قلنا ـ على التقسيم الغالب ودفعهم هذا إلى أمرين:

الأول: تتبع الآيات التى أنزلت بالمدينة وحكمهـا مكى، وتلك التى أنزلت بمكة وحكمها مدني.

الثاني: الاختلاف فى تحديد مفهوم المكى والمدنى، أو ما المقصود بالمكى وما المقصود بالمدني.

قال السيوطى فى الإتقان نقلا عن ابن النقيب فى مقدمة تفسيره:

اعلم أن للناس فى المكى والمدنى اصطلاحات ثلاثة: أشهرها أن المكى ما نزل قبل الهجرة، والمدنى ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أو بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع أم بسفر الأسفار، أخرج عثمان بن سعيد الرازى بسنده عن يحيي بن سلام قال: ما نزل بمكة وما نزل فى طريق المدينة قبل أن يبلغ النبى ﷺ المدينة فهو من المكي. وما نزل على النبى ﷺ فى أسفاره بعدما قدم المدينة فهو من المدني. وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل فى سفر الهجرة مكى اصطلاحا، الثاني: أن المكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدنى ما نزل بالمدينة، وعلى هذا تثبت الواسطة، فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكى ولا مدني. وقد أخرج الطبرانى فى الكبير من طريق الوليد بن مسلم عن غفير بن معدان عن سليم بن عامر عن أبى إمامة قال: قال رسول الله ﷺ «أنزل القرآن فى ثلاثة أمكنة: مكة، والمدينة، والشام» قال الوليد: يعنى بيت المقدس. وقال الشيخ عماد الدين بن كثير فى تفسيره بتبوك أحسن.قال

السيوطى أو ابن النقيب: ويدخل فى مكة ضواحيها كالمنزل بمنى وعرفات والحديبية، وفى المدينة ضواحيها كالمنزل ببدر وسلع.

الثالث: أن المكى ما وقع خطابا لأهل مكة، والمدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة» وقد ناقش العلماء هذه الاصطلاحات التى تناقلها العلماء من بعد السيوطى عن ابن النقيب فقالوا:

١ ـ إن تحديد المكى بما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدنى ما نزل بالمدينة ـ أو غيرها ـ بعد الهجرة . تحديد غير دقيق لأنه لا يشمل الآيات التى نزلت فى غير مكة والمدينة مثل قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢)﴾ (التوبة، ٤٢). ومثل تلك الآيات التى أشرنا إليها منذ قليل إلى أنها نزلت بالطائف أو بيت المقدس أو غيرهما.

٢ ـ الاصطلاح الثانى الذى يرى أصحابه أن المكى ما وقع خطابا لأهل مكة، وغالبا ما يصدر بعبارة يا أيها الناس، والمدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة وغالبا يصدر بعبارة يا أيها الذين آمنوا، هذا الاصطلاح غير دقيق لثلاثة أسباب:

(أ) أن فى القرآن الكريم ما نزل ولم يصدر فيه خطاب لأهل مكة أو المدينة بتلك الألفاظ المذكورة، وعندما نستعرض بعض السور المكية لانجد فيها {يا أيها الناس} مثل سورة الشمس فإنها مكية بالإجماع وليس فيها الخطاب بهذا اللفظ، وهناك كثير من السور وجه الخطاب فيها للرسول ﷺ كسورة الكوثر وسورة النصر، فهاتان السورتان ليس فيهما خطاب لأهل مكة والمدينة فهل معنى ذلك أنهما خارجتان عن المكى والمدنى؟

(ب) أن هذا التعريف لا ينطبق على جميع الآيات التى صدرت بعبارتى {يا أيها الناس} و{يا أيها الذين آمنوا} فهناك آيات مدنية صدرت بقوله {يا أيها الناس}، وآيات مكية صدرت بقوله {يا أيها الذين آمنوا} فسورة البقرة وسورة النساء مدنيتان ومع ذلك فيهما {يا أيها الناس} ففى سورة البقرة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) ﴾ (البقرة، ٢١). وفى سورة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء، ١]. وسورة الحج المكية فيها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) ﴾ [الحج، ٧٧].

(ت) بعد الفتح ودخول أهل مكة فى الإسلام صار الخطاب عاما للجميع فى السور التى أنزلت بعد الفتح. وبهذا يكون ذلك التعريف للمكى والمدنى من القرآن غير دقيق.

علامات السور المكية:

حاول العلماء تحديد علامات يمكن بها معرفة السور المكية فقالوا:

١ ـ كل سورة من سوره المفصل فهى مكية، أخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال: «نزل المفصل بمكة، فمكثنا وحججا تقرؤه ولا ينزل غيره ـ والمفصل هو السور الأخيرة من القرآن الكريم، من أول سورة الحجرات إلى سورة الأعلى على الأصح، وسميت بذلك لكثرة الفصل فيها بين السور بعضهم وبعض من أجل قصرها، وقيل سميت بذلك لقلة المنسوخ فيها، فقولنا فصل: لا نسخ فيه ولا نقض

(مناهل العرفان، ١/ ١٩٠/ ١٩١).

٢ ـ كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة، فهى مكية سوى البقرة.

٣ ـ كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهى مكية سوى البقرة أيضا.

٤ ـ كل سورة فيها سجدة فهى مكية.

٥ ـ كل سورة فى أولها حروف التهجى فهى مكية سوى سورة البقرة وآل عمران فهما من السور المدنية، وفى سورة الرعد خلاف.

٦ ـ كل سورة فيها {يا أيها الناس} وليس فيها {يا أيها الذين آمنوا} فهى مكية غالبا.

٧ ـ كل سورة فيها لفظ {كلا} فهى مكية ـ وقد ذكر هذا اللفظ ثلاثا وثلاثين مرة فى القرآن الكريم، وذلك فى خمس عشرة سورة كلها فى نصف القرآن الأخير المبدوء بسورة الكهف والمنتهى بسورة الناس ـ قاله الدرينى رحمه الله.

وما نزلت كلا بيثرب فعلمن ولم تأت فى القرآن فى نصفه الأعلى

قالوا: وحكمة ذلك أن نصف القرآن الأخير نزل أكثره بمكة وأكثرها جبابرة، فتكررت فيه على وجه التهديد، والتعنيف لهم، والإنكار عليهم، بخلاف النصف الأول وما نزل منه فى اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلتهم وضعفهم.

خصائص السور المكية:

١ ـ ذكر قصص الأنبياء والأمم الخالية، ودعوة الناس إلى الإعتبار بهم وما حصل لهم نتيجة مخالفة رسل الله، وفيها تثبيت للنبى ﷺ والجماعة المسلمة فى هذا

العهد. وللحجة يستثنى من هذه القصص ما نزل عن قصة عيسى عليه السلام ومريم وقصة ولادته، فقد نزل بعد ذلك فى المدينة، إقامة للحجة على أهل الكتاب.

٢ - عرض الأدلة على وجود الله تعالى ووحدانيته وعلى بعث الأحياء مع أرواحها من بعد الموت، والحساب، ومواجهة المشركين بهذه الأدلة، ورد شبهاتهم، وإقامة الحجة عليهم ومحاولة ردهم إلى الفطرة الإنسانية السليمة بعد أن يروا زيغ معتقداتهم وشركهم.

٣ - تثبيت فؤاد الرسول ﷺ ، ودعوته إلى الصبر على الأذى، تأسيا بالأنبياء والرسل من قبله، الذين واجهوا قوما معاندين، وأوذوا فى سبيل الله وكذبوا، فصبروا، حتى جاء نصر الله.

٤ - يغلب على أسلوب الآيات المكية الإيجاز لأنها تخاطب قوما اشتهروا بالفصاحة والبلاغة فجاءت جامعة بين الإيجاز والإعجاز.

علامات السور المدنية:

اتفق العلماء على أن للسور المدنية علامات تعرف بها، من أهمها أن :

١ - كل سورة ذكر فيها الحدود والفرائض فهى مدينة.

٢ - كل سورة ذكر فيها المنافقون فهى مدينة، سوى سورة العنكبوت فإنها مكية إلا إحدى عشرة آية من أولها فهى مدنية لأنها تحدثت عن المنافقين.

٣ - كل سررة فيها الإذن بالجهاد أو الأمر به أو أحكامه فهى مدنية إلا سورة الحج.

خصائص القرآن المدنى:

كما اتفقوا على أن للآيات والسور المدينة خصائص عامة يمكن إيضاحها فيما يلى:

١ - اشتملت الآيات والسور المدنية على التشريعات العى أنزلت فى المناسبات المختلفة لتنظيم العلاقات الاجتماعية على مستوى الأسرة وعلى مستوى المجتمع، وتنظيم المعاملات المالية بين الناس.

٢ - تضمن القسم المدنى من القرآن أسلوب الحوار مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى وبين طرق الحوار معهم وأسلوبه، وفى الوقت نفسه تضمن القسم المدنى جزءا كبيرا كشف ألاعيب اليهود وتاريخ الجرائم التى ارتكبوها من تحريف للتوارة، وقتل للأنبياء، ونقض للعهود وفى السور المدنية تفاصيل كثيرة حول هذه القضايا.

٣ - نظرا لكثرة المنافقين بالمدينة، فقد اهتم القسم المدنى من القرآن الكريم بكشف مؤامراتهم، وفضح أساليبهم ومخططاتهم التى كانوا يحاولون بها النيل من الدعوة الإسلامية.

٤ - فى القسم المدنى تفصيل لأحكام الحرب والجهاد والدفاع والأسر والقتال والمعاهدات والغنائم وما يتصل بذلك مما يمكن أن نعده البواكير الأولى التى تربى فى أحضانها الفقه الإسلامى الذى يعد أساسا لما يسمى حاليا بالقانون الدولى العام.

٥ - من سمات القسم المدنى الأسلوبية أن آياته طويلة إذا ما قورنت بالقسم المكى

الذى يغلب عليه الإيجاز. وقد يكون ذلك راجعا لأن من الآيات التى تتضمن تشريعا يناسبها الطول أكثر من القصر ليكون التعبير لدى المستمع أو القارىء أكثر وضوحا وتحديدا.

السور التى أنزلت بمكة:

أول ما نزل بمكة {اقرأ باسم ربك} ثم {ن والقلم} ثم {يا أيها المزمل} ثم {يا أيها المدثر} ثم {تبت يدا أبى لهب} ثم {إذا الشمس كورت} ثم {سبح اسم ربك الأعلى} ثم {والليل إذا يغشي} ثم {والفجر} ثم {والضحي} ثم {ألم نشرح} ثم {والعصر} ثم {والعاديات} ثم {إنا أعطيناك الكوثر} ثم {ألهاكم التكاثر} ثم {أرأيت الذي} ثم {قل ياأيها الكافرون} ثم {سورة الفيل} ثم {الفلق} ثم {الناس} ثم {قل هو الله أحد} ثم {والنجم إذا هوي} ثم {عبس وتولي} ثم {إنا أنزلناه} ثم {والشمس وضحاها} ثم {والسماء ذات البروج} ثم {والتين والزيتون} ثم {لإيلاف قريش} ثم {القارعة} ثم {لا أقسم بيوم القيامة} ثم {الهمزة} ثم {المرسلات} ثم {ق والقرآن} ثم {لا أقسم بهذا البلد} ثم {الطارق} ثم {اقتربت الساعة} ثم {ص. والقرآن} ثم {الأعراف} ثم {الجن} ثم {يس} ثم {الفرقان} ثم {الملائكة} ثم {مريم} ثم {طه} ثم {الواقعة} ثم {الشعراء} ثم {النمل} ثم {القصص} ثم {بنى إسرائيل} ثم {يونس} ثم {هود} ثم {يوسف} ثم {الحجر} ثم {الأنعام} ثم {الصافات} ثم {لقمان} ثم {سبأ} ثم {الزمر} ثم (غافر) ثم {حم الدخان} ثم {حم الجاثية} ثم {حم الأحقاف} ثم {والذاريات} ثم {الغاشية} ثم {الكهف} ثم {النحل} ثم {نوح} ثم {ابراهيم} ثم {الأنبياء} ثم {المؤمنون} ثم{ألم التنزيل} ثم {والطور} ثم {الملك} ثم {الحاقة} ثم {سأل سائل} ثم {عم يتساءلون} ثم {والنازعات} ثم {إذا السماء انشقت} ثم {الروم}.

واختلفوا فى آخر ما نزل بمكة فقال ابن عباس: العنكبوت، وقال الضحاك وعطاء، المؤمنون، وقال مجاهد ويل للمطففين.

فهذا ترتيب ما نزل من القرآن الكريم بمكة وعليه استقرت الرواية عن الثقات وهى خمس وثمانون سورة.

السور التى نزلت بالمدينة:

هى سورة البقرة ثم الأنفال ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء، ثم إذا زلزلت، ثم الحديد ثم محمد ثم الرعد ثم الرحمن ثم هل أتى ثم الطلاق ثم لم يكن ثم الحشر ثم إذا جاء نصر الله ثم النور ثم الحج ثم المنافقون ثم المجادلة ثم الحجرات ثم التحريم ثم الصف ثم الجمعة ثم التغابن ثم الفتح ثم التوبة ثم المائدة.

ومنهم من يقدم المائدة على التوبة، فهذا ترتيب ما نزل بالمدينة، وقد اختلف العلماء فى فاتحة الكتاب فقال ابن عباس والضحاك ومقاتل وعطاء إنها مكية، وقال مجاهد: مدنية.

وعلى ذلك يكون ما نزل بالمدينة ستا وثمانين سورة ويكون المجموع مائة وأربع عشرة سورة، وهو عدد سور القرآن الكريم.

السور التى اختلف فيها هل هى مكية أو مدنية:

اثنتا عشرة سورة هى: الفاتحة، الرعد، الرحمن، الصف، التغابن، المطففين، القدر، البينة، الزلزلة، الإخلاص، الفلق، الناس.

قال العلماء: إن عدد السور المكية المتفق عليها اثنتان وثمانون سورة، وإن عدد السور المدنية المتفق عليها عشرون سورة.

الآيات المدنية فى السور المكية:

قال الإمام الفيروز آبادي فى كتابه بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز:

«وأما الآيات المدنية التى فى سور مكية فسورة الأنعام مكية سوى ست آيات ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) ﴾ [الأنعام، ٩١ - ٩٢].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) ﴾ [الأنعام، ٢١] نزلت فى عبدالله بن سعد وفى مسيلمة الكذاب.

و﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠) قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا

مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ﴾[الأنعام، ١٥٠-١٥٣].

وسورة الأعراف مكية سوى ثلاث آيات ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) ﴾ [الأعراف، ١٦٣-١٦٥].

وسورة إبراهيم مكية سوى قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) ﴾ [ابراهيم، ٢٨، ٢٩].

وسورة النحل مكية إلي قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [النحل، ٤١]، وباقى السورة مدنى.

وسورة بنى إسرائيل مكية سوى قوله تعالى ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) ﴾[الإسراء، ٧٣].

وسورة الكهف سوى قوله تعالى ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ

والْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾ [الكهف، ٢٨].

وسورة القصص مكية سوى قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) ﴾ [القصص، ٥٢] نزلت فى أربعين رجلا من مؤمني أهل الكتاب، قدموا من الحبشة وأسلموا مع جعفر بن أبى طالب.

وسورة الزمر مكية سوى قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ (الزمر، ٥٣).

والحواميم كلها مكية، سوى هذه الآية فى الأحقاف ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) ﴾ [الأحقاف، ١٠] نزلت فى عبدالله بن سلام.

الآيات المكية فى السور المدنية:

قال الفيروز آبادى فى البصائر:

{وأما الآيات المكية فى السور المدنية ففى سورة الأنفال ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال، ٣٣]، يعنى أهل مكة.

وسورة التوبة مدنية، سوى آيتين من آخرها ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ [التوبة، ١٢٨، ١٢٩].

وسورة الرعد مدنية، غير قوله: ﴿ولَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ (الرعد، ٣١).

وسورة الحج مدنية سوى أربع آيات ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ (الحج، ٥١، ٥٥).

وسورة الماعون إلى قوله ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾ [الماعون، ٤]، ومنها إلى آخر السورة مدنية.

وأما الذى حُمل من مكة إلى المدينة فسورة يوسف أول سورة حملت من مكة، ثم سورة الأخلاص، ثم سورة الأعراف هذه الآية ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ (الأعراف، ١٥٨-١٥٩).

وأما الذى حمل من المدينة إلى مكة فمن سورة البقرة ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) ﴾ [البقرة، ٢١٧]. ثم آية الربا فى شأن ثقيف، ثم تسع آيات من سورة براءة أرسل بها إلى مكة صحبه على رضي الله عنه، فى رد عهد الكفار عليهم فى الموسم. ومن سورة النساء ﴿ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) ﴾ (النساء، ٩٨، ٩٩)، فيعذر تخلف المستضعفين عن الهجرة.

منظومة فى شأن المكى والمدني:

وقد نقل السيوطى فى الإتقان منظومة لأبى الحسن بن الحصار أوردها فى كتاب له أسماه الناسخ والمنسوخ فقال السيوطي:

«قال أبو الحسن بن الحصار فى كتابه الناسخ والمنسوخ: المدنى باتفاق عشرون سورة والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك مكى باتفاق، ثم نظم فى ذلك أبياتا فقال:

يا سائلي عن كتاب الله مجتهدا … وعن ترتيب[1] ما يتلى من السور

وكيف جاء بها المختار من مضر … صلى الإله على المختار من مضر

وما تقدم منها قبل هجرته … وما تأخر في بدو وفي حضر

ليعلم النسخ والتخصيص مجتهد … يؤيد الحكم بالتاريخ والنظر

تعارض النقل في أيام الكتاب وقد … تؤولت[2] الحجر تنبيها لمعتبر

أم القران وفي أم القري نزلت … ما كان للخمس قبل الحمد من أثر

وبعد هجرة خير الناس قد نزلت … عشرون من سور القرآن في عشر

فأربع من طوال السبع أولها … وخامس الخمس فى الأنفال ذى العبر

وتوبة الله إن عدت فسادسة … وسورة النور والأحزاب ذى الذكر

وسورة لنبى الله محكمة[3] … والفتح والحجرات الغر في غرور

ثم الحديد ويتلوها مجادلة … والحشر ثم امتحان الله للبشر[4]

وسورة فضح الله النفاق بها … وسورة الجمع تذكارا لمدكر

وللطلاق وللتحريم حكمهما … والنصر والفتح تنبيها علي العمر

هذا الذى اتفقت فيه الرواة له … وقد تعارضت الأخبار في أخر

فالرعد مختلف فيها متي نزلت … وأكثر الناس قالوا الرعد كالقمر

ومثلها سورة الرحمن شاهدها … مما تضمن قول الجن في الخبر

وسورة للحواريين قد علمت … ثم التغابن والتطفيف نو النذر

وليلة القدر قد خصت بملتنا … ولم يكن بعدها الزلزال فاعتبر

وقل هو الله من أوصاف خالقنا … وعوذتان ترد اليأس بالقدر

وذا الذي اختلفت فيه الرواة له … وربما استثنيت أي من السور

وماسوى ذاك مكي تنزله … فلا تكن من خلاف الناس في عسر

فليس كل خلاف جاء معتبرا … إلا خلاف له حظ من النظر

---

(١) هكذا وردت الكلمة فى الإتقان، وبهذا ينكسر الوزن، ولعل صوابها (ترتب) أو (تراتيب).

(٢) هكذا وردت الكلمة فى لإتقان، وبهذه الرواية ينكسر الوزن ولعل صوابها (تزول).

(٣) سورة محمد.

(٤) سورة الممتحنة.

المبحث السادس

أسباب النزول

يقلل بعض قصار النظر من شأن هذا العلم من علوم القرآن اعتقاداً منهم أنه ينتمى إلى البحوث التاريخية أكثر من انتمائه الى علوم القرآن، وهذا خطأ شنيع يترتب عليه مفاسد كثيرة تتعلق بأحكام الفقه، فالعلم بأسباب النزول يفيد المفسر، والفقيه، والأصولى، وعلماء الحديث والعقيدة والدعوة وغيرهم.

ويتناول هذا العلم نوعين متماسين من أنواع علوم القرآن لم يفرق بينهما - من دارسى علوم القرآن - إلا القليلون، وهما:

١ - أسباب النزول.

٢ - مناسبات النزول.

والفرق بين النوعين فرق دقيق، فسبب النزول هو الحدث الذى من أجله أنزلت الآية، أما المناسبة فإنها تتعلق بوجه الربط بين بداية آية ونهايتها، أو وضع آية بجوار آية، ويشترط الزمان فى المناسبة، بمعنى أن الآيات كانت تنزل على أسبابها وفقاً للحوادث التى استدعت إنزالها، فلما أمر النبى ﷺ أصحابه بترتيب الآيات كما أعلمه جبريل عليه السلام، أصبحت الحاجة ماسة لمعرفة مناسبة الآية لما حولها، أو مناسبة أولها لآخرها بقطع النظر عن سبب نزولها أو نزول جزء منها.

قال الزركشى (١/٢٥):

«وقد تنزل الآيات على الأسباب خاصة، وتوضع كل واحدة منها مع ما يناسبها من الآية رعاية لنظم القرآن وحسن السياق».

الفرع الأول: أسباب النزول:

ليس لكل آية سبب للنزول، ولكن هذا لايعنى أنها تخلو من فائدة، فكل حرف فى نظم القرآن الكريم له فائدة وكل كلمة لها قيمة، وهناك آيات كثيرة ارتبط نزولها بأسباب خاصة. ومن هنا قسم العلماء آيات القرآن إلى قسمين: ما نزل من غير سبب، والكلام فى علم أسباب النزول يدور حول الآيات ذوات الأسباب أى تلك التى نزلت فى أعقاب:

- سؤال وجه للنبى ﷺ من المسلمين أو من غيرهم.

- حادثة وقعت وقت نزول القرآن ولم يكن قد تقرر لها تشريع قبل وقوعها.

ومن هذا التعريف لعلم أسباب النزول يتضح لنا:

١ - أن قصص الأنبياء السابقين التى وردت فى القرآن الكريم ليس لها أسباب نزول، فقد جاءت تسلية للنبى ﷺ وتثبيتاً لقلبه إزاء ما يرتكبه المشركون من إيذاء ومكر وكيد للدعوة الإسلامية.

٢ - أن أمور المستقبل مثل هزيمة الروم ثم انتصارهم مما أشار القرآن أنه سيقع مستقبلاً لا علاقة لها بأسباب النزول وإنما وردت لتدل على إعجاز القرآن وأنه من عند الله سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة.

٣ - أن ما وقع قديماً من أحداث إذا سئل عنه النبى ﷺ ودل القرآن بلفظه على وقوع السؤال كان له أسباب نزول مثل قصة ذى القرنين ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣)﴾(الكهف/ ٨٣). أما ما وقع فى الماضى ولم يسأل عنه أحد كقصة أصحاب الفيل وقصة بقرة بنى إسرائيل، فليس له سبب نزول، وإنما

يشبه ما أشرنا إليه من قصص الأمم السابقة. وإذا كان ذلك فلنا أن نتساءل الآن: ما فائدة دراسة علم أسباب النزول؟ وقد أجاب العلماء على هذا السؤال فذكروا من فوائد دراسة علم أسباب النزول ما يلي:

أولاً: معرفة سبب النزول لفهم الآية:

فهناك كثير من آيات القرآن يتوقف الإنسان أمام معناها ولا يستطيع القطع بدلالتها إلا إذا عرف سبب نزولها.

ومن أمثلة ذلك:

أ ـ قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)﴾ [البقرة/ ١١٥]. قد يفهم المسلم أن استقبال القبلة ليس شرطاً من شروط صحة الصلاة. ويتوهم أن الصلاة إلى أى اتجاه مقبولة. وهذا خطأ ترتب على إغفال معرفة سبب نزول الآية.

قال الزركشى فى البرهان:

«فإننا لو تركنا مدلول اللفظ لاقتضى أن المصلى لايجب عليه استقبال القبلة سفراً ولاحضراً، وهو خلاف الاجماع، فلا يفهم مراد الآية حتى يعلم سببها، وذلك أنها نزلت لما صلى النبى ﷺ على راحلته، وهو مستقبل من مكة إلى المدينة، حيث توجهت به، فعلم أن هذا هو المراد».

فقد روى مسلم والترمذى والنسائى والحاكم بأسانيدهم عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يصلى على راحلته وهو مقبل من مكة إلى المدينة. وتدل رواية الحاكم على أن ذلك مباح فى التطوع فقط [أو فى شأن من يصلى باجتهاده إذا لم

يتيسر له معرفة الاتجاه] دون الفريضة، فإن استقبال القبلة في الفريضة شرط، وقال السيوطي بعد أن ذكر ذلك عن ابن عمر: هذا أصح ما ورد في هذه الآية إسناداً.

ب ـ قوله تعالى ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) ﴾ [البقرة/١٥٨]. فهم منها بعض الصحابة أن السعي بين الصفا والمروة ليس شرطاً من شروط الحج والعمرة، وسبب هذا الفهم اشتباه ذلك في دلالة عبارة (فلا جناح عليه). ولكن السيدة عائشة رضى عها عندما سمعت بهذا الفهم، صححت الخطأ واستندت إلى سبب نزول الآية.

فقد أخرج الإمام مسلم بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قال قلت لها إني لأظن رجلا لو لم يطف بين الصفا والمروة ما ضره قالت لم قلت لأن الله تعالى يقول (إن الصفا والمروة من شعائر الله) إلى آخر الآية فقالت ما أتم الله حج امريء ولا عمرته لم يطف بين الصفا والمروة ولو كان كما تقول لكان فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما وهل تدرى فيما كان ذاك إنما كان ذاك أن الأنصار كانوا يهلون في الجاهلية لصنمين على شط البحر يقال لهما إساف ونائلة ثم يجيئون فيطوفون بين الصفا والمروة ثم يحلقون فلما جاء الإسلام كرهوا أن يطوفوا بينهما للذى كانوا يصنعون في الجاهلية قالت فأنزل الله عز وجل (إن الصفا والمروة من شعائر الله) إلى آخرها قالت فطافوا.

ثانياً: معرفة سبب النزول يفسر حكمة التشريع الإلهي:

إن معرفة حكمة التشريع تيسر الاقتناع به لدى المسلم العادى الذى يزداد يقينه اطمئناناً كلما اقترب من فهم سر التحريم والتحليل. ولا يتأتى ذلك إلا بمعرفة سبب

نزول كثير من الآيات التشريعية، ومن أمثلة ذلك معرفة سبب تحريم الخمر، فإنه لما نزلت آية النساء وهي قوله تعالى ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى ﴾ [النساء/٤٣]. كان سبب نزولها أن رجلاً أم الناس فخلط في قراءته خلطاً مكفراً حيث قرأ سورة «الكافرون» فقال: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، بإسقاط «لا».. والآيات التي نزلت في تحريم الخمر من سورة المائدة ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) ﴾ [المائدة/ ٩٠]. نزلت بسبب قوم شربوا وسكروا، واشتد بينهم الخصام فتجادلوا وتضاربوا حتى جرح بعضهم بعضا، فنزل التحريم فتبين من هذين الموقفين أن معرفة سبب النزول تعين على تثبيت قلب المسلم حين يرى سمو التشريع ونبله وحكمته.

ثالثاً: نفي توهم الحصر:

يدل ظاهر بعض الآيات على حصر الحكم في أشياء معينة، فآية الذبائح التي يقول الحق تبارك وتعالى فيها: ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) ﴾ [الأنعام/ ١٤٥]. توحي ظاهرها بأنها حصرت أنواع المحرمات من الذبائح كما فهم بعض الفقهاء كالمالكية. وقد يؤدي هذا الفهم إلى تحليل ما حرمه الله كتحليل لحم الحيوانات ذات الأنياب كالسباع والطيور ذات المخالب كالصقور مع أن تحريمها ثابت. والرجوع إلى أسباب النزول هنا يفيد في نفي مايتوهمه البعض من حصر الحكم في فئات معينة.

قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ:

«إن الكفار لما حرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادة والمحادة، جاءت الآيات مناقضة لغرضهم، فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه، ولاحرام إلا ما حللتموه، نازلا منزلة من قال: لا تأكل اليوم حلاوة، فتقول: لا آكل اليوم إلا الحلاوة، والغرض: المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة، فكأنه قال: لاحرام إلا ما حللتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، ولم يقصد حل ما وراءه، إذ القصد: إثبات التحريم لا إثبات الحل».

وقال إمام الحرمين أبو المعالى الجويني:

«وهذا فى غاية الحسن، ولولا سبق الشافعى إلى ذلك لما كنا نستخير مخالفة مالك فى حصر المحرمات فيما ذكرته الآية» [البرهان: ١/٢٣].

رابعاً: تخصيص الحكم بالسبب:

يذهب جمهور العلماء إلى أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب أى أن اللفظ فى الآية موجه إلى كل مسلم والأصل فيه العموم ولاعبرة بسبب نزول الآية الذى هو غالباً سبب خاص بشخص أو موقف معين.

ولكن هناك جماعات من العلماء يقولون إن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ أى أن حكم الآية نزل من عند الله تعالى خاصاً بشخص معين أو موقف معين، وتطبيقه على حالات أخرى لا يكون إلا عن طريق القياس إذا انطبقت شروط القياس. وهذا الفريق الأخير لا يستطيع التوصل إلى أحكامه إلا بمعرفة أسباب النزول.

خامساً: عدم إخراج سبب النزول من حكم الآية إذا ورد مخصص له:

وذلك لأن الإجماع قد انعقد على أن حكم السبب باق قطعاً، فيكون التخصيص مقصوراً على ما عدا ذلك. ولو لم يعرف الفقهاء أسباب النزول لكان من الممكن أن يخرجوا الحكم المرتبط بسبب النزول، وهذا مخالف للإجماع - كما سبق - والعلة فى ذلك: أن دخول السبب فى اللفظ العام للآية (أو الآيات) كان قطعياً، فلا يجوز إخراجه بأمر ظنى هو الاجتهاد، فقد قام الإجماع على هذا، وهذا ما حكاه القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المتكلم المشهور فى كتابه مختصر التقريب [الإتقان: ١/٢٨].

سادساً: معرفة من نزلت فيه الآية على وجه التعيين(١):

حتى لا يشتبه بغيره فيتهم البريء ويبرأ المتهم، وذلك كماحدث أن قال مروان بأن آية ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا ﴾ [الأحقاف:١٧]، نزلت فى عبدالرحمن بن أبى بكر، فنفت عائشة ذلك.

فلقد أخرج البخارى من طريق يوسف بن مالك قال كان مروان على الحجاز استعمله معاوية فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه فقال له عبدالرحمن بن أبى بكر شيئا فقال خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا فقال مروان إن هذا الذى أنزل الله فيه (والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى) فقالت عائشة من وراء الحجاب ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلا أن الله أنزل عذري. وأخرج عبدالرازق من طريق مكى أنه سمع عائشة تنكر أن تكون الآى نزلت فى عبدالرحمن ابن أبى بكر.وقالت إنها نزلت فى فلان وسمت رجلا.

(١) سيأتى تفصيل لهذه النقطة فى المبحث الرابع عشر من هذا الكتاب وموضوعه (مبهمات القرآن).

سابعاً: تسهيل فهم الآيات وحفظها:

عن طريق معرفة سبب نزولها إذ إن ربط الآيات بأسباب نزولها ييسر حفظها وتذكرها، وقد دلت قوانين علماء النفس الحديثة الخاصة بتذكير وتداعى الأفكار على هذه الحقيقة.

طريق معرفة سبب النزول:

أسباب النزول لا مجال للعقل فيها، فجميعها تعتمد على النقل فقط، ويكون النقل عادة عن الصحابة لأنهم عاصروا نزول آيات القرآن الكريم وعاشوا الأحداث التى ارتبطت بها بعض الآيات.

وعلى ذلك فإن أسباب النزول المروية عن الصحابة رضى الله عنهم ينطبق عليها ما ينطبق على الأحاديث الشريفة التى رويت عن النبى ﷺ من حيث شروط الصحة والسلامة.

وعلى هذا فإن روى سبب النزول عن صحابى فهو مقبول لأن قول الصحابى له حكم الحديث المرفوع فيما لا مجال للاجتهاد فيه فإنه من المستبعد أن يكون الصحابى قد قال ذلك من تلقاء نفسه، قال الحاكم فى علوم الحديث: إذا أخبر الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت فى كذا فإنه حديث مسند.

أما إذا روى سبب النزول بحديث مرسل أى سقط من سنده الصحابى وانتهى إلى التابعى فحكمه أنه لايقبل إلا إذا صح واعتضد بمرسل آخر وكان الراوى له من علماء التفسير المشاهير الذين أخذوا علمهم عن الصحابة كمجاهد وعكرمة وغيرهما.

كيف تروى أسباب النزول؟

لرواية أسباب النزول صور أربع:

الأول : أن يقول الصحابى قولا صريحاً: (سبب نزول آية كذا هو كذا وكذا...).

الثانية: أن يقول ذلك بصورة غير صريحة كأن يقول مثلا: حدث كذا وكذا فنزل قوله تعالي: كذا.

الثالث: أن يروى الصحابى أن رسول الله ﷺ سئل عن كذا وكذا فنزلت آية كذا وكذا.

وهذه الصور الثلاث تعد نصا فى بيان أسباب النزول.

الرابعة: أما الصورة الرابعة فهى أن يقول الصحابي: هذه الآية نزلت فى كذا وكذا أى يبين حكم الآية ولا يسند ذلك إلى موقف حدث أو إلى كلام صدر عن الرسول ﷺ أو إلى سؤال وجه إليه ﷺ. وهذه الصورة الرابعة ليست نصا صريحا فى سبب النزول ولكنها تحتمله.

وقد تتعدد الروايات وتتفاوت صحة وضعفا، وقد تكون الروايات المتعارضة متفاوتة من حيث كونها نصا يثبت سبب النزول، أو يحتمله، وينشأ عن هذا التعارض عدة صور:

الصورة الأولى: إذا كانت إحدى الروايتين صحيحة دون الأخري، والحكم فى هذه الحالة الاعتماد على الرواية الصحيحة فى سبب النزول وترك الأخرى غير الصحيحة.

ومثال لهذه الصورة: ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جندب بن سفيان رضى

الله عنهم قال اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة فقالت يا محمد إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث فأنزل الله عز وجل (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلي) قوله (ما ودعك ربك وما قلي) تقرأ بالتشديد والتخفيف بمعنى واحد ما ترك ربك وقال ابن عباس ما ترك وما أبغضك.

كما أخرج الطبرانى وابن أبى شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت خادم رسول الله ﷺ «أن جروا دخل بيت النبى ﷺ فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبى ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحى فقال: يا خولة ما حدث فى بيت رسول الله ﷺ جبريل لا يأتيني؟ فقلت فى نفسي: لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو فجاء النبى ﷺ ترعد لحيته. وكان إذا أنزل عليه أخذته الرعدة فأنزل الله (والضحى والليل إذا سجى) إلى قوله تعالى (فترضى).

قال الحافظ ابن حجر فى شرح البخاري: قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية غريب وفى إسناده من لا يُعْرَف فالمعتمد مافى الصحيح.

الصورة الثانية: أن تكون الروايتان صحيحتين، غير أن إحداهما لها مرجع، فالحكم: أن نأخذ بالرواية الراجحة، ونرد الرواية المرجوحة. والمرجح أن تكون إحدى الروايتين أصح من الأخرى، أو أن يكون راوى إحدى الروايتين مشاهدا للقصة.

ومثال هذه الصورة: ما أخرجه البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال كنت أمشى مع النبى ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب فمر بنفر من اليهود فقال

بعضهم سلوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه لا يسمعكم ما تكرهون فقاموا إليه فقالوا يا أبا القاسم حدثنا عن الروح فقام. ساعة ينظر فعرفت أنه يوحى إليه فتأخرت عنه حتى صعد الوحى ثم قال (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي). وما أخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس قال قالت قريش ليهود أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل فقال سلوه عن الروح قال فسألوه عن الروح فأنزل الله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) قالوا أوتينا علماً كثيرا أوتينا التوراة ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا فالرواية الأولى تدل على أن الآية نزلت بالمدينة بسبب سؤال اليهود والرواية الثانية تدل على أنها نزلت بمكة بسبب سؤال قريش. والأولى هى الراجحة لكونها فى البخارى وهو أعلى درجة من الترمذى، ومن جهة ثانية لأن ابن عباس كان حاضراً للقصة.

الصورة الثالثة:

وفيها تكون كل من الروايتين صحيح ولايمكن ترجيح إحداهما على الأخرى، ولكن يمكن نزول الآية عقب السببين المذكورين فى كل منهماللقرب بين حدوثهما فيحمل ذلك على تعدد السبب ووحدة المنزل فيهما.

مثال ذلك ما أخرجه البخارى م طريق عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف أمرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سحماء فقال النبى ﷺ: البينة أو حد فى ظهرك فقال يا رسول الله إذا وجد أخبرنا مع امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة. فجعل النبى ﷺ يقول: البينة أو حد فى ظهرك، فقال هلال والذى بعثك بالحق إنى لصادق. ولينزلن الله ما يبرىء ظهرى من الحد. فتنزل جبريل. وأنزل الله: (والذين يرمون أزواجهم..) فقرأ حتى بلغ (إن كان من الصادقين).

كما أخرج البخارى عن سهل بنسعد قال: «جاء عويمر إلى عاصم بن عدى فقال: أسأل رسول الله ﷺ «أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع به فسأل عاصم رسول الله ﷺ فكر رسول الله ﷺ المسائل. فأخبر عاصم عويمراً. فقال والله لآتين رسول الله ﷺ فلأسألته. فأتاه فسأله. فقال: إنه قد أنزل الله فيك وفى صاحبتك قران« الحديث.

فيجمع بين هذين الحديثين بأن أول من سأل ووقع له ذلك هلال. ثم تصادف أن سأل عويمر أيضا قبل أن تنزل الإجابة من السماء. فنزلت الآيات فى شأن الاثنين معا. وهذا التوفيق أولى من الرد لأن الرد لايصار إليه إلا عند تعذر الجمع. أو إمكان الترجيح. وإلي هذا الجمع أشار الإمام النووى فى شرحه على صحيح مسلم فقال. «ويحتمل أنها نزلت فيهما جميعاً. فلعلهما سألا فى وقتين متقاربين. فنزلت الآية منهما».

الفرع الثانى:

وأما الفرع الثانى من فروع علم أسباب النزول، فهو يختص بمناسبات النزول كما أوضحنا فى صدر هذا المبحث، ولا يكاد المتخصصون يعرفون مؤلفا فى هذا الفرع يضارع كتاب البقاعى الشهير (نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور) فهو حجة فى علم مناسبات النزول.

ويهتم هذا الفرع بسر تجاور الآيات وسر تجاور السور بعضها إلي جانب بعض ويرجع الفضل فى تنبيه الأذهان إلى هذا الفرع من علوم التفسير إلى أبى بكر النيسابورى (ت ٣٢٤هـ) فقد ورد فى البرهان للزركشى (٦٢/١) والإتقان للسيوطى (٣٨/٢) أنه أول من تكلم فى علم المناسبات كلاما صريحاً، فكان إذا

قرئت عليه يقول: لم جعلتم هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة فى جعل هذه السورة إلى جنب هذه؟ وكان يزرى على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبات.

مثال:

تقديم فعل الأمر على مناسبة السياق: عند تفسير قوله تعالى (واصبر لحكم ربك) يقول البقاعي: «ولما كان العلم المحيط من الملك القاهر أعظم مسل للولى وأكبر مخيف للعدو، قال عاطفا على «فذرهم» أو ما على تقديره، فكن أنت من العلماء بذلك ليكون فيه لك أعظم تسلية »واصبر».. أوجد الصبر على ما أنت فيه من أداء الرسالة ومالها من الكلف من أذى الناس وغيره، ولكونه فى مقام الإعراض عن الكفار، وكون إعراضه عنهم أصعب عليه من مقاساة إنذاره، وإن نشأ عنها تكذيبهم واستهزاؤهم، اشتدت لغاية هنا بالصبر فقدم، وأيضا فإن الإعراض عنهم مقتض لعدهم فانين. وذلك هو مقام الجمع، والجمع لايصلح إلا بالفرق، فلذلك قدم الأمر باصبر، وذكر الحكم إشارة إلى أنه متمكن فى مقام الفرق كما أنه عريق فى مقام الجمع بخلاف المدثر، فإن سياقها للإنذار الناشيء عنه غاية الأذى، فاشتدت العناية هناك بتقديم ذكر الإله .

المؤلفات فى علم أسباب النزول:

وإذا كان علم المناسبات لم يعرف كتابا مثل كتاب البقاعى، فإن أسباب النزول عرفت كثيرا ممن أفردوها بالتأليف، فقد *قال صاحب كشف الظنون* عن هذا العلم وما ألف فيه:

«علم أسباب النزول من فروع علم التفسير، وهو علم بحث فيه عن سبب نزول

سورة أو آية ووقتها ومكانها وغير ذلك ومباديه مقدمات مشهورة منقولة عن السلف والغرض منه ضبط تلك الأمور وفائدته معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم وتخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب وأن اللفظ قد يكون عاما ويقوم الدليل على تخصيصه فإذاعرف السبب قصد التخصيص على ما عداه ومن فوائده فهم معانى القرآن واستنباط الأحكام إذ ربما لايمكن معرفة تفسير الآية بدون الوقوف على سبب نزولها مثل قوله تعالى (فأينما تولوا فثم وجه الله) وهو يقتضى عدم وجوب استقبال القبلة وهو خلاف الإجماع ولايعلم ذلك إلابأن نزولها فى نافلة السفر، وفيمن صلى بالتحرى ولا يحل القول فيه إلا بالرواية والسماع ممن شاهد التنزيل، كما قال الواحدي، ويشترط فى سبب النزول أن يكون نزولها أيام وقوع الحادثة وإلا كان ذلك من باب الإخبار عن الوقائع الماضية كقصة الفيل كذا فى مفتاح السعادة ومن الكتب المؤلفة فيه:

١ ـ أسباب النزول، لشيخ المحدثين على ابن المدينى وهو أول من صنف.

٢ ـ أسباب النزول، للشيخ عبدالرحمن بن محمد المعروف بمطرف الأندلسى المتوفى سنة اثنتين وأربعمائة وترجمته بالفارسية لأبى النصر سيف الدين أحمد الأسبرتكيني.

٣ ـ أسباب النزول، لمحمد بن أسعد القرافى.

٤ ـ أسباب النزول، للشيخ الإمام أبى الحسن على بن أحمد الواحدى المفسر المتوفى سنة ثمان وستين وأربعمائة وهو أشهر ماصنف فيه أوله: الحمد لله الكريم الوهاب.. إلخ وقد اختصره الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبرى المتوفى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة فحذف أسانيده ولم يزد عليه شيئا.

٥ ـ أسباب النزول، للشيخ الإمام أبى الفرج عبدالرحم ابن على بن الجوزى البغدادى.

٦ ـ أسباب النزول، للشيخ أبى جعفر محمد بن على بن شعيب المازندرانى المتوفى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة.

ويضاف إلى ما سبق ذكره:

١ ـ ابن حجر العسقلاني، وهو الحافظ: شهاب الدين: أبو الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلاني، المتوفى سنة ٨٤٢هـ، صنف كتابه «العجائب فى بيان الأسباب».

٢ ـ جلال الدين: عبدالرحمن السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ، صنف كتابه المسمى «لباب المنقول فى أسباب النزول». وقد طبع هذا الكتاب بهامش تفسير الجلالين فى بولاق سن ١٢٨٠هـ.

المبحث السابع

القَسَم فى القرآن

أنزل القرآن الكريم عن الله تبارك وتعالى بلغة العرب، وجرى على ما جرت عليه أساليب العربية من الفصاحة والبلاغة. وقد تنوعت أساليب التعبير فى القرآن تنوعا يلائم المواقف التى سيقت فيها تلك الأساليب على نسق لغة العرب.

ومن هنا فقد اهتم الباحثون فى علوم القرآن بتخصيص فرع من تلك العلوم يعنى بأساليب القسم القرآنى وسموا هذا الفرع من علوم القرآن (أقسام القرآن) تناولوا فيه المواضع التى ورد فيها القسم فى القرآن الكريم متنوعاً بتنوع المواقف التعبيرية.

والأقسام جمع قسم (بفتح القاف والسين) بمعنى اليمين أو الحلف لتوكيد الكلام فى نفس السامع. وقطع طريق الإنكار لديه.

وقد عرض الزركشى عند عرضه لهذا الفرع من فروع القرآن مسألتين فى غاية الأهمية:

أولاهما: إذا كان الهدف من القسم هو نفس الإنكار فما معنى أن يقسم الله تعالى فى كتابه الكريم؟

والثانية: إذا كان الحلف بغير الله منهياً عنه فكيف أقسم الله تعالى بمخلوقاته كالنجم والطور والتين والزيتون..إلخ؟

قال الإمام الزركشى (البرهان ٣/٤١):

«فإن قيل: ما معنى القسم منه سبحانه؟ فإنه إن كان لأجل المؤمن، فالمؤمن يصدق مجرد الإخبار، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده.

فالجواب: قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: إن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها،و وذلك أن الحكم يفصل باثنين: إما بالشهادة، وإما بالقسم، فذكر الله تعالى النوعين حتى لايبقى لهم حجة.

وقوله تعالى ﴿لعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾ [الحجر/٧٢]. وعن بعض الأعراب أنه لما سمع قوله تعالى ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)﴾ [الذاريات/ ٢٢، ٢٣]. صاح وقال: من الذى أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين؟ قالها ثلاثا، ثم مات.

فإن قيل: كيف أقسم بمخلوقاته وقد ورد النهى علينا ألا نقسم بمخلوق؟

قيل: فيه ثلاثة أجوبة:

أحدهما: أنه حذف مضاف، أى «ورب الفجر» و«ورب التين»، وكذلك الباقي.

والثانى: أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها، فنزل القرآن على ما يعرفون.

والثالث: أن الأقسام إنما تجب بأن يقسم الرجل بما يعظمه، أو بمن يجله، وهو فوقه، الله تعالى ليس فوقه، فأقسم تارة بنفسه، وتارة بمصنوعاته، لأنها تدل على باريء وصانع، واستحسنه ابن خالويه.

وقسمه بالنبى ﷺ فى قوله: (لعمرك) ليعرف الناس عظمته عند الله، ومكانته لديه، قال الأستاذ أبو القسم القشيرى فى «كنز اليواقيت»: وقسم بالشيء لا يخرج عن وجهين: إما لفضيلة أو لمنفعة، فالفضيلة كقوله تعالى ﴿وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ (٣)﴾ [التين٢/٣]، والمنفعة نحو ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١)﴾ التين/١).

القسم من الناحية اللغوية:

القسم في اللغة مرادف لليمين والهدف منه إما منع النفس عن فعل شيء، أو الإتيان به، أو تأكيد حدوث فعل أو نفيه.

وفي اللغة: أقسم، وحلف، وآلي.. ومن الشعر القديم:

قليل الألايا حافظ ليمينه   وإن بدرت منه الألية برت

(والألايا جمع ألية وهي اليمين) ومن صيغ القسم أو اليمين: والله، وبالله، وتالله، وأيم الله، وأيمن، ويغلب أن يتبع كلا منها فعل مضارع مؤكد بالنون واللام.

والباء عند اللغويين هي أصل أدوات القسم لأنها تدخل على الظاهر مثل قوله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ (١٠٩) ﴾ (الأنعام/١٠٩). كما تدخل على المضمر كقول الشاعر:

رأى برقا فأوضع فوق بكر   فلا بك، ما أسال وما أغاما

دلالات القسم في اللغة:

والقسم عند اللغويين يأتي لتحقيق دلالتين:

الأولى: قسم الطلب: ومنه يهدف المتكلم بما يقسم به إلى طلب معرفة شيء لا يعرفه كقول مجنون ليلى يخاطب زوجها وردا:

بدينك هل ضممت إليك ليلى   وهل قبلت قبل الصبح فاها؟

الثانية: قسم الإخبار: وهو عكس السابق، وفيه يهدف المتكلم إلى إفادة السامع وإخباره بما لايعرفه، ومنه قول امرىء القيس:

قلت يمين الله أبرح قاعدا   ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

دلالات القسم فى القرآن الكريم:

دلالة القسم الرئيسية فى القرآن الكريم هى التأكيد بمعنى إزالة الشك والشبهة من نفوس المستمعين وتوصيل المعانى إليهم فى أتم شكل من أشكال اللغة التى يألفونها فى أساليبهم التعبيرية.

كقوله تعالى ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) ﴾ [الحجر/ ٩٢].

وقد فرقت الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء) فى كتابها القيم (الإعجاز البيانى للقرآن) بين دلالات الفعلين (حلف) و(أقسم) فى القرآن الكريم فذهبت إلى أن الحلف يرتبط بالكذب والفجور، أما القسم فيرتبط بالصدق دائما. فإذا جاء على لسان المنافقين أو الكافرين فإنما جاء كذلك لأنهم حين حلفوا توهموا فى أنفهسم الصدق. وننقل هنا نص كلامها لما فيه من فائدة:

«جاءت مادة «ح ل ف» فى ثلاثة عشر موضعا، كلها بغير استثناء فى الحنث باليمين. والغالب أن يأتى الفعل مسندا إلى المنافقيه، كآيات التوبة التى فضحت زيف نفاقهم:

(وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) [٤٢]. (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون) [٥٦]. (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) [٧٤].

(يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لايرضى عن القوم

الفاسقين) [٩٦]. (وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) [١٠٧].

ومعها فى المنافقين كذلك، آيات:

النساء ٦١-٦٣: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

المجادلة ١٤: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

المجادلة ١٨: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

وآية القلم ١٠-١٢: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾.

وجاء الفعل مرة واحدة مسندا إلى ضمير الذين آمنوا فوجبت عليهم كفارة الحلف ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المائدة/ ٨٩].

وأما القسم، فيأتى فى الأيمان الصادقة. وجاء موصوفا بالعظمة فى آية الواقعة: ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [٧٦].

وسؤالا من الله تعالى، على وجه الاعتبار، لكل ذى حجر،فى آية الفجر ٥: (هل فى ذلك قسم لذى حجر)؟

واختص القسم بحرمة الشهادة على الوصية، حيث لا يحل الحنث باليمين، فى آيتى المائدة (١٠٨، ١٠٩).

وكان أصحاب الجنة، فى سورة القلم، صادقين:

(إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين * ولا يستثنون).

وليس المجرمون بكاذبين إذ يقسمون يوم تقوم الساعة «ما لبثوا غير ساعة». وكذلك يسند القسم فى القرآن إلى الضالين، عن وهم منهم أو إيهام بالصدق، قبل أن ينكشف أنهم كانوا على ضلال، كما فى آيات:

الأنعام ١٠٩: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) ﴾.

فاطر ٤٢: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (٤٢) ﴾.

الأعراف ٤٨، ٤٩: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ (٤٩) ﴾؟

إبراهيم ٤٤: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) ﴾.

الأنعام ١٠٩: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) ﴾.

وفى آية المائدة ٥٣: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) ﴾.

يحتمل سياقها أن يكون هذا القسم قبل أن يبتلى المنافقون بالتجربة الكاشفة عن كذبهم والله أعلم.

وعقبت الدكتورة بنت الشاطىء رحمها الله على تحليلها هذا بقولها:

وأمام هذا البيان القرآنى، لا يهون أبداً أن نفسر القسم بالحلف، وصنيع القرآن يلفت إلى فرق دقيق بينهما. فإن لم نقل إن القسم لليمين الصادقة - حقيق أو وهما - والحلف لليمين الكاذبة على إطلاقها - فلا أقل من أن يكون بين دلالتيهما الفرق بين العام والخاص فيكون القسم لمطلق اليمين بعامة، ويختص الحلف بالحنث فى اليمين على ما اطرد فى البيان القرآنى».

أنواع القسم فى القرآن الكريم:

أ - وقد ورد القسم فى القرآن بذات الله سبحانه وتعالى فى سبعة مواضع هى:

* ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣) ﴾ [الذاريات/٢٣].
* ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) ﴾ [يونس/٥٣].
* ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) ﴾ [التغابن/ ٧].
* ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ﴾ [مريم/٦٨].
* ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) ﴾ [الحجر/ ٩٢].

* ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [النساء/ ٦٥].

* ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) ﴾ [المعارج/ ٤٠].

فهذه سبعة مواضع أقسم الله فيها بنفسه والباقى كله أقسم بمخلوقاته.

ب ـ كما أقسم الله تعالى بفعله نحو قوله تعالى ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾ [الشمس/ ٤ ـ ٨].

جـ ـ كما أقسم بمفعوله أى بمخلوقاته كقوله تعالى ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) ﴾ [النجم/١]. وقوله تعالى ﴿ وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) ﴾ [الطور/١ ، ٢].

د ـ والقسم فى القرآن ظاهر، ومضمر، فالظاهر نحو (والتين والزيتون) (والطور) (والنجم إذا هوي).

والمضمر قسمان، قسم دلت عليه اللام، مثل قوله تعالى ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦) ﴾ [آل عمران/١٨٦]. لتبلون أى والله لتسمعن.

وقسم دل عليه سياق الكلام مثل قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ﴾ [مريم/٧١].

والألفاظ الجارية مجرى القسم نوعان: نوع تكون فيه كغيرها من الأخبار التى ليست بقسم فلا تجاب بجواب مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨) ﴾ [الحديد/٨]. وقوله ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ﴾ [البقرة/٦٣]. وقوله ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) ﴾ [المجادلة/١٨]. فهذا النوع يجوز أن يكون قسما مراعاة للفظ، ويجوز أن يكون حالا، لعدم ذكر الجواب.

ونوع آخر يذكر فيه الجواب فهم قسم، كقوله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لاَّ تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) ﴾ [النور/٥٣]. وقوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) ﴾ [آل عمران/١٨٧].

وبتأملنا فى آيات الأقسام الواردة فى القرآن الكريم، نجد أن معظم أفعال القسم المحذوفة لاتكون إلا بالواو، أما إذا ذكرت الباء فيذكر الفعل معها، كقوله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) ﴾ [الأنعام/١٠٩]. وقوله تعالى ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) ﴾ [التوبة/٥٦].

نفى فعل القسم فى القرآن الكريم:

ورد فى القرآن الكريم دخول (لا) النافية على فعل القسم فى قوله تعالى ﴿ لا

أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ [القيامة/١]، وفى قوله تعالى (لا أقسم بهذا البلد) [البلد/١]. وغيرهما من المواضع، وقد أثارت هذه الظاهرة اهتمام علماء اللغة وعلماء التفسير واختلفوا فى تفسيرها، وانقسموا إلى قسمين رئيسيين، قال الأول منها بزيادتها وأيدوا أقوالهم بأدلة من شعر العرب ونثرهم تؤكد وجود ظاهرة زيادة حرف فى الكلام العربى. وقال الآخرون بأن وجودها ليس بزيادة واضطرهم ذلك إلى التأويل.

فقد ذهب بعض العلماء إلى أن القرآن الكريم كله وحدة واحدة وعلى ذلك فإن (لا) فى مطلع سورة القيامة تنفى شيئا آخر فى آخر السورة السابقة وهى سورة المدثر التى جاء آخرها إنكار الكفار للبعث والقيامة كما يظهر من قوله تعالى ﴿ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [المدثر/٥٣].

فكأنه سبحانه وتعالى يقول: لا أى لا صحة لما تزعمون من إنكار البعث ثم يستأنف الكلام فيقول: أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة إنكم ستبعثون. وجه هذا التأويل عندهم أن القرآن كله كالسورة الواحدة، ولهذا يذكر الشيء فى سورة وجوابه فى سورة أخرى. وقيل إنها نافية، والمنفى هو فعل القسم، والكلام خبر لا إنشاء، حذف خبر المبتدأ فيه،والمعني: لا أقسم بيوم القيامة إعظاما له وإلى هذا ذهب الزمخشرى (الكشاف ١٨٩/٤) وابن هشام فى المغنى (١/ ٢٠٠). ويؤخذ على التأويل الأول من هذين التأويلين أن فيه حذفا لاسم لا وخبرها دون دليل يشير إليهما، كأن تكون (لا) جوابا لسؤال. وأما أن القرآن كالسورة الواحدة فأمر لا خلاف عليه، ولكن فى تقرير الأحكام، وعرض القضايا وقص القصص، أما أن يذكر فى سورة أمر يراد نفيه، ثم يذكر الحرف الذى ينفيه فى سورة أخرى فمباعدة بين

متلازمين يقتضى البيان أن يقترنا، ليعلم المرء من فوره أن الكلام مبنى على النفى لا على الإثبات.

أما جعل لا نافية بفعل القسم فإنه يوقع فى خلف ظاهر بين القسم وجوابه كما فى قوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)﴾ [الواقعة/ ٧٥، ٧٦]، فصور الآية الأولى لنفى القسم بمواقع النجوم والآية التالية لها تؤكد أن القسم بها عظيم

والرأى الوجيه عندنا هو رأى من يقول بزيادة لا فى قوله تعالى ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١)﴾ (القيامة/ ١)، ولايرد هذا الرأى الحجة القائلة بأن الزائد لايكون فى أول الكلام، لأن الزيادة استغناء وإطراح، والبدء بالزائد عناية واهتمام، لأن هذه الحجة لاسند لها من اللغة، بل هى حجة فلسفية عقلية. ثم ما الذى يضير البيان أو ينقص منه إذا استهل زيادة لتنبيه واسترعاء الأسماع؟ ولقد زيدت الباء مع ذلك ابتداء فى (بحسبك) من قول الشاعر:

بحسبك فى القوم أن يعلموا بأنك فيهم غنى مضر

ويمكن أن تعد (لا) فى زيادتها ابتداء مثل (ألا) الاستفتاحية، ومثل (يا) حين تدخل على ما لا ينادى نحو قوله تعالي: (قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون) [يس/٢٦]. وجعل (يا) مزيدة هنا للتنبيه أولى من جعلها للنداء.

شبهات الملاحدة:

وقد أهتم علماء القرآن الكريم فى مبحث أقسام القرآن بتسجيل افتراءات ذوى الأهواء من أعداء القرآن الذين قالوا إن القرآن استخدم فى أقسامه - فى المرحلة المكية - الأشياء الطبيعية المحسوسة: كالتين والزيتون، والشمس، والليل، والضحى،

وطور سنين، والبلد الأمين. وهذا دليل على تأثر القرآن بالبيئة التى لاتتعدى مداركها الأمور المادية الملموسة، أما فى المرحلة المدنية، فالقوم على قدر عال من العلوم والثقافة والمعارض، لذا خلت من هذه الأقسام المرتبطة بالحس.

فأجاب العلماء بأن هذه الشبهة باطلة، لأن أهل مكة كان لهم الصدارة فى الفصاحة والبلاغة والبيان، باعتراف جميع القبائل العربية آنذاك، وما كانت الندوات تعقد فى عكاظ وغيرها إلا اعترافا بهذه الأسبقية، وليسوا من أهل السذاجة والبلاهة كما يقولون.

والإقسام بهذه المخلوقات ليس دليلا على السذاجة وانحطاط الدرجة، وإنما لحكمة سامية، لا يدركها إلا أصحاب العقول السليمة فإن المشركين شاع فيهم الشرك، ولاسبيل لاستئصاله من قلوبهم إلا بعرض مشاهد الكون السائرة فى انتظام، وهم يشاهدونها على نسق عجيب، للانتقال بهم إلى الاعتراف والايمان.

ثم إن القرآن فى تلك المرحلة، لم يكن - فى أقسامه - مقصور على الماديات والمحسوسات، بل نوع فى ذلك حتى يلفت عقولهم إلى كل ما من شأنه أن يحملهم على التفكير الواعي، الذى يقودهم إلى ساحة الإيمان، فقال سبحانه وتعالى ﴿ يسٓ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) ﴾ (يس/ ١-٥).

وأقسم بحياة المنزل عليه ﷺ فقال (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) [الحجر/ ٧٢].

كما أقسم بأمور لا يرونها فقد أقسم بالملائكة فقال ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) ﴾ (الصافات/ ١، ٢). وأقسم بالرياح حيث قال سبحانه

وتعالى ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) ﴾ [الذاريات/١، ٢]. إلى غير ذلك من الأقسام المتنوعة - وكلها فى العهد المكى - التى تكشف النقاب عن بطلان تلك الشبهة المغلفة.

وفى الحقيقة ماكان إعراضهم نتيجة تناقض فى القرآن، أو شبهة تلحقه، ولكنه الكفر والجحود الذى حال بينهم وبين التصديق والإيمان، يقول الله تعالى ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ (الأنعام/٣٣).

كما أن الإقسام بالأمور المحسوسة فيه كما قال العلماء أسرار، لا تنكشف إلا لأصحاب النفوس الصافية.

فالقسم بالضحى: إشارة إلى أن الوحى الذى تتابع بعد انقطاع وفترته، فيه حياة القلوب وسعادتها فى الدارين، كما أن الضحى فيه الحركة والنشاط اللذان يكفلان - بعد القدرة والمشيئة - حياة الأبدان.

والقسم بالليل: إشارة إلى أن الحياة بما فيها من كدح ونصب لابد للحياة من سكون وراحة ممثلا ذلك فى الليل، وإذا كان الرسول ﷺ قد لاقى فى جنب الله ما لاقى فى تبليغ الوحى وتحمل أعبائه فى مواجهة المشركين، خصوصا فى بداية أمر الوحي، فإنه قد فتر عنه فترة ليستجمع نشاطه وقواه، ثم يأتيه الوحى من جديد، ليواصل مسيرة الدعوة والتبليغ، فهذ الفترة أشبه ما تكون بالليل الذى يستريح فيه الخلق من نصب الحياة وكدحها، ليستطيعوا مواصلة الحياة الدنيوية، فإن قبلوا هذا، فلقبلوا ذلك.

يقول الشيخ الزرقانى:

«فمن هذا نعلم: أن الحلف بالضحى والليل فى هذا المقام، ليس مجرد تذكير بآياته ونعمه فحسب، بل هو أيضا دليل على أن تنزل الوحى أشبه بضحوة النهار، وأن فترة الوحى أشبه بهدأة الليل، فإذا كانوا يتقبلون الضحى والليل بالرضا والتسليم، لما فيهما من نفع الإنسان بالسعى والحركة والحياة بالنهار، والنوم والاستجمام بالليل، يجب أن يتقبلوا أيضا مايجرى على محمد ﷺ من نزول الوحى وفترته للمعنى الذى سلف».

وفى قسمه بالتين والزيتون، وطور سينين: ليس الأمر قاصرا على التذكير بآلاء الله ونعمه فى هذه المخلوقات، لتقود المكلفين إلى الإيمان بموجدها، بل هى تذكير بالعهود الماضية وما جرى فيها للباطل والمبطلين على أيدى الحق والمحقين، فالتين إشارة إلى عهد آدم، وما جرى له بسبب الشيطان، حيث كان يستظل أولاً بورق التين، ثم لما انكشفت سؤاتهما شرعا فى سترها بورق التين، والزيتون، إشارة إلى عهد نوح عليه السلام حينما انقضى زمن الطوفان، واستقرت السفينة على الجودي، وفكر هل تصلح الأرض للمكث فيها؟ فأرسل طائرا فلم يأته بخير، وأرسل آخر فعاد حاملا ورقة من شجر الزيتون ففرح وعلم أن غضب الله سكن، وأنه أراد للحياة أن تعمر به، وبأولاده ومن كان معه.

وفى قسمه بطور سنين إشارة إلى شريعة موسى عليه السلام الذى جاء بعد أن فسدت عقيدة الناس وأظلمت الدنيا بمعاصى أهلها، فناداهم إلى التوحيد، وناداهم إلى الفضائل وما حسن من الأخلاق، ونهاهم عن مقارفة الذنوب، لأنه سبب الخراب والدمار، واستمر المرسلون من بعده على هذا النهج، حتى جاء نبى الله عيسى عليه السلام

ليزيل عن العقيدة ماعلق بها من آثار الزيغ والضلال، وما أن انقضى عهده - برفعه - حتى عادت البشرية إلى ما كانت عليه من البدع والخرافات والجهالات حتى أنقذها خالقها ببعثة سيدنا محمد ﷺ وفى القسم بـ «وهذا البلد الأمين» وهى مكة إشارة إلى ذلك.

وقالوا أيضاً: إن القسم فى العهد المكى قد اشتمل على كثير من اللغو فى فواتح بعض السور مثل: ق، ن، ألم، ألمص، كهيعص، إلخ، وهذا يتنافى مع ادعاء أن القرآن هدى للناس وبيان لأمور دينهم، كما أن هذه الفواتح من تصرف كتبة الوحى . من اليهود - ويقصدون بها بداية الكلام أو نهايته كعبارتهم (أمرنى محمد) أو (أوعز إلى محمد) وعبادتهم تحمل البراءة من الإيمان، وقالوا إن الحروف هذه قصد منها التعمية أو التهويل، أو إظهار القرآن بأسلوب عميق مخيف، أو كانت رمزا للتمييز بين المصاحف المختلفة ثم ألحقت بالقرآن نتيجة لمرور الزمن.

هذا كلام كله هراء، ولا يقوله عاقل، إذ إن التاريخ يثبت أنه لم يكن للرسول ﷺ كتبة من اليهود، وأن عبارة (أوعز إلى محمد) أو (أمرنى محمد) لاتحمل معناها تلك للفواتح فى لغة من اللغات، كما أن هذا لو وقع استغله اليهود للتشهير بالقرآن والمنزل عليه، وهم الذين عرفوا بالعداوة الشديدة للإسلام عامة، وللرسول خاصة ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا(٨٢)﴾ (المائدة/٨٢). فلما لم يحدث مثل هذا كان هذا دليلا على أن هذه الشبهة أثر من آثار مرض القلوب.

المبحث الثامن

العام والخاص

علم العام والخاص من أهم علوم القرآن الكريم ـ وإن كانت كلها مهمة ـ لشدة ارتباطه بالفتوى، إذ تتوقف صحة الفتوى فى أحيان كثيرة على مدى علم المفتى أو الفقيه بالعام والخاص، وقدرته على التمييز بينهما.

فالأدلة الشرعية المصوغة بلغة العرب يحتاج فهمهما فهما صحيحا إلى معرفة دقيقة بأسرار هذه اللغة. ومن ثم فقد أولى علماء أصول الفقه هذا العلم عناية خاصة وأفاضوا فييشرح أبوابه ومباحثه إفاضة ملحوظة.

تعريف العام:

تدل مادة (عمم) فى المعاجم العربية على الشمول، فقولنا «عم المطر أي شمل البلاد، والعمامة: غطاء يشمل الرأس، والعم: الجماعة الكثيرة.

وفى الإصطلاح عرفه السيوطي من المفسرين بأنه: (لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر (الإتقان/٢/٢١). وعرفه الأصوليون بأنه(لفظ وضع وضعا واحدا لكثير غير محصور مستغرق جميع مايصلح له) أو بأنه (لفظ دال على جميع أجزاء ماهية مدلوله أي مدلول اللفظ). أي أن اللفظ العام هو الذى يشمل كل فرد من أفراد ما يتناوله الكلام فإذا قلت لأخيك: أكرم كبير السن، كان قولك (كبير السن) عاما يشمل الذكر والأنثي والمسلم وغير المسلم، والحيوان والإنسان، فإذا خصصته بعد ذلك بأى مخصص انتقل من صفة العموم إلى صفة الخصوص.

أنواع العام:

الأول: ما يدل علي العموم بأصل وضعه اللغوى، مثل كلمة (مَنْ) الموصولة كقوله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ (الجاثية/١٥).

الثانى: مايدل على العموم عرفا، كقوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ (النساء/٢٣). فإنه يدل على تحريم جميع أنواع الاستمتاع وليس تحريم الزواج فقط.

الثالث: ما يدل على العموم عقلا، كقوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ (البقرة/١١١). فإنه يدل عقلا على إمكانية قبول أى برهان من جنس البراهين.

صيغ العموم:

صيغ العموم كثيرة منها:

١ ـ اسم الشرط واسم الاستفهام ويشملان:

* من (فى العاقل) مثل قوله تعالى ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ

فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ ﴾ (الطلاق/٢). أو قولك: من زارك أمس؟

* وما (في غير العاقل) مثل قوله جل جلاله ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾(فاطر/٢). أو قولك: ما جاء بك الآن؟

واستعمال «من» فيمن يعقل، و«ما» فيما لايعقل شائع قد ورد في الكتاب والسنة وكلام العرب، وقيل: تكون «ما» لمن يعقل ولمن لايعقل فى الخبر والاستفهام، والصحيح الأول.

وقال العلماء: «من» و«ما» في الاستفهام للعموم، فإذا قلنا: من في الدار؟ جاء الجواب بعاقل أو بغير عاقل مثل: زيد، أو: فرس، وعلة جواز ذلك أن العموم إنما هو باعتبار حكم الاستفهام، لاباعتبار الكائن في الدار، فالاستفهام عم جميع الرتب، فالمستفهم عم بسؤاله كل واحد يتصور كونه في الدار، فالعموم ليس باعتبار الوقوع، بل باعتبار الاستفهام واشتماله علي كل الرتب المتوهمة.

٢ ـ ومن صيغ العموم أيضا (أين، وأنى، وحيث لمكان)، مثل قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ (الحديد/٤). وقوله سبحان وتعالى ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ (النساء/٧٩)، فى الجزاء وتقول مستفهماً: أين زيد؟

٣ ـ و(متى) للزمان المبهم، مثل: متى تقم أقم، ولايقال: متى طلعت الشمس؟ لأن زمن طلوعها غير مبهم، واستدل لمتى بقول الشاعر:

متي تأته تعشو إلى ضوء ناره   تجد خير نار عندها خير موقد

٤ ـ ومن صيغ العموم أيضا: الاسم الموصول سواء أكان مفردا كالذي والتي، أم مثنى مثل قوله تعالى ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦) ﴾ (النساء/١٦)، أم مجموعا، مثل قول الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) ﴾ (الأنبياء/١٠١). وقوله ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) ﴾ (النساء/٣٤)، وقوله ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ﴾ (الطلاق/٤).

٥ ـ ومن صيغه أيضا (كل) وهى أقوى صيغ العموم وأشهرها.

٦ ـ ومن صيغ العموم أيضا (جميع) وهى مثل (كل) إلا أنها لا تضاف إلا إلي معرفة، فلا يقال: جميع رجل، وتقول جميع الناس، وجميع العبيد، ودلالتها علي كل فرد فرد بطريق الظهور، بخلاف (كل) فإنها بطريق النصوصية. وفرق الحنفية بينهما بأن (كل) تعم كل جهة الإفراد، و(جميع) على جهة الاجتماع،

ومن صيغ العموم أيضا: كل ما كان نحو «كل» و«جميع»، مثل أجمع وأجمعين.

وكذلك (معشر، ومعاشر، وعامة، وكافة، وقاطبة)، قال الله تعالى ﴿ قال فبعزّتك لأُغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعين (٨٢) ﴾ (ص/٨٢)، وقال تعالى ﴿ يا معشر الْجنّ والإنس ألم يأتكم رُسُلٌ منكم يقصُّون عليكم آياتي ويُنذرونكم لقاء يومكم هذا قالُوا شهدْنا علىٰ أنفُسنا وغرَّتْهُمُ الْحياةُ الدُّنْيا وشهدُوا علىٰ أنفُسهمْ أنَّهُمْ كانُوا كافرين (١٣٠) ﴾ (الأنعام/ ١٣٠)، وقوله جل جلاله: ﴿ إنَّ عدَّة الشُّهُور عند الله اثْنا عشر شهْراً في كتاب الله يوْم خلق السَّمٰوات والأرْض منها أرْبعةٌ حُرُمٌ ذلك الدّينُ الْقيّمُ فلا تظْلمُوا فيهن أنفُسكُمْ وقاتلُوا الْمُشْركين كافَّةً كما يُقاتلُونكُمْ كافَّةً واعْلمُوا أنَّ الله مع الْمُتَّقين (٣٦) ﴾ (التوبة/٣٦).، وقال رسول الله ﷺ «إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»، وقالت عائشة رضى الله عنها: «لما مات رسول الله ﷺ ارتدت العرب قاطبة»، قال ابن الأثير: أى جميعهم.

لكن معشر ومعاشر لايكونان إلا مضافين، بخلاف قاطبة وعامة وكافة فإنها لا تضاف.

٧ ـ ومن صيغ العموم أيضاً الجموع بأنواعها الجموع السالمة، وجموع التكسير سواء أكانت جموع قلة أم جموع كثرة. بشرط أن تكن تلك الجموع معرفة باللام أو بالإضافة، كقوله تعالى ﴿ إنَّ الْمُسْلمين والْمُسْلمات والْمُؤْمنين والْمُؤْمنات والْقانتين والْقانتات والصَّادقين والصَّادقات والصَّابرين والصَّابرات والْخاشعين والْخاشعات والْمُتصدّقين والْمُتصدّقات والصَّائمين والصَّائمات والْحافظين فُرُوجهم

وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥) ﴾ (الأحزاب/ ٣٥). فهذا جمع سالم معرف بالألف واللام.

ومن المعرف بالإضافة قوله تعالى ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (١١) ﴾ (النساء/ ١١)، فهذا جمع معرف بالإضافة عام فى جميع الأولاد ذكورا كانوا أو إناثاً، كباراً أم صغاراً.

٨ ـ ومن صيغ العموم المفرد المحلي بأل (غير العهدية) مثل قوله تعالى ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) ﴾ (المائدة/ ٣٨)، وقوله ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ (النور/ ٢).

٩ ـ ومن صيغ العموم أيضا: النكرةالواردة في سياق النفي مثل: ليس في الدار رجل، أو فى سياق النهى (لأن النهى فيه معنى النفى) مثل: لا تضرب أحدا.

وخالف بعضهم فى أنها فى سياق النفى ليست للعموم، وهو محجوج بقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً

وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)﴾ (الأنعام/٩١)، ردا على من قال: (ما أنزل الله على بشر من شيء)، لأنه لولم يكن عاما لما حصل به الرد.

ومن أمثلة النكرة فى سياق النهى قوله تعالى ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤)﴾ (الكهف/٢٣، ٢٤)، وقوله تعالى ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١)﴾ (طه/٨١)، وقوله جل جلاله ﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢)﴾ (الإسراء/٣٢)، وقوله سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾ (الأنعام/١٥١)، وقوله ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)﴾ (البقرة/١٨٨).

أنواع العام:

قسم العلماء العام إلى ثلاثة أنواع هي:

أ ـ العام الباقي على عمومه:

وقد اختلفوا فيه فقال الإمام البلقيني (ت ٨٢٤هـ) فيما نقله عنه الإمام السيوطى (ت ٩١٠هـ) فى كتابه التحبير فى علم التفسير:

«هذا النوع مثاله عزيز إذ ما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص، فقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) ﴾ (لقمان/٣٣)، قد يخص منه غير المكلف، ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣) ﴾ (المائدة/٣)، خص منه حالة الاضطرار وميتة السمك، والجراد، ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) ﴾ (البقرة/ ٢٧٥)، خص منه العرايا، ومما يصلح مثالا له: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) ﴾ (الزمر/٦)، وقوله تعالى (.. والله بكل شيء عليم).

وقال الزركشي ت ٧٩٤هـ: «إنه كثير في القرآن وأورد منه قوله تعالى ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ

أحدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ (الكهف/ ٤٩)، وقوله: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جعلكم أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ (فاطر/ ١١)، ثم قال السيوطى:

«وقد استخرجت من القرآن بعد الفكر آية فيها، وهي قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ (النساء/ ٢٣)، فإنه لاخصوص فيها».

ب ـ العام المراد به الخصوص:

ومنه قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزادهم إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (آل عمران/ ١٧٣)، فالمراد بالناس الأولى (نعيم بن مسعود الأشجعى) والمراد بالناس الثانية أبو سفيان وأصحابه.

قال الإمام القرطبى فى تفسير هذه الآية:

«اختلف فى قوله تعالى: (الذين قال لهم الناس) فقال مجاهدومقاتل وعكرمة والكلبى: هو نعيم بن مسعود الأشجعى. واللفظ عام ومعناه خاص كقوله: (أم يحسدون الناس) يعني محمدا ﷺ. السدى: هو أعرابى جُعل له جُعْل على ذلك. وقال ابن إسحاق وجماعة: يريد بالناس ركب عبدالقيس مروا بأبى سفيان فدسهم إلى المسلمين ليثبطوه. وقيل: الناس هنا المنافقون. قال السدى: لما تجهز النبى ﷺ وأصحابه لمسير إلى بدر الصغير لميعاد أبى سفيان أتاهم المنافقون وقالوا: نحن أصحابكم الذين نهيناكم عن الخروج إليهم وعصيتمونا، وقد قاتلوكم فى دياركم وظفروا فإن أتيتموهم فى ديارهم فلا يرجع منكم أحد. فقالوا: (حسبنا الله ونعم الوكيل). وقال أبو معشر: دخل ناس من هذيل من أهل تهامة المدينة، فسألهم

أصحاب رسول الله ﷺ عن أبي سفيان فقالوا: (قد جمعوا لكم) جموعا كثيرة .فاخشوهم) أى فخافوهم واحذروهم فإنه لا طاقة لكم بهم. فالناس على هذه الأقول على بابه من الجمع.

وكذلك قوله تعالى (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين)(آل عمران/٣٩)، والمراد بالملائكة مخصوص وهو جبريل عليه السلام.

جـ - العام المخصوص:

قالوا: وهو كثير فى القرآن، ومثلوا له بقول الله تعالى ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (آل عمران/٩٧)، فهو عام ولكن يراد به المستطيعون خاصة.

الفرق بين النوعين الأخيرين:

- قال السيوطى فى التحبير:

«هذان النوعان من الناس من لم يفرق بينهما حيث ذكر العقل من المخصصات والأصح التفرقة، وللسبكى فيهما رسالة مستقلة، ولهم بينهما فروق:

أحدها: أن العام الذى أريد به الخصوص قرينته عقلية، ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ (الزمر/٦٢).

الثانى: أن قرينته معه، مثل ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (آل عمران/١٧٣)، قال

الشافعى): فإذا كان من مع رسول الله ﷺ ناسا غير من جمع لهم الناس وكان المخبرون لهم ناسا غير من جمع لهم وغير من معه ممن جمع عليه، وكان الجامعون لهم ناسا فالدلالة بما وصفت من أنه إنما جمع لهم بعض الناس دون بعض والعلم محيط أنه لم يجمع الناس كلهم ولم يخبرهم الناس كلهم ولم يكونوا هم كل الناس، ولكنه لما كان اسم الناس يقع على ثلاثة نفر وعلى جميع الناس وعلى من بينهم جميعهم وثلاثة منهم كان صحيحا فى لسان العرب أن يقال: (الذين قال لهم الناس) وإنما قال ذلك أربعة نفر (إن الناس قد جمعوا لكم) يعنى المنصرفين من أحد.

قال البلقينى: ولم يبين الشافعى) سند ما ذكره من أنهم أربعة نفر، ويحتمل أن يكون ذلك صح عنه بطريق.

وقد ذكر أهل التفسير أن المراد بالناس القائل وهونعيم ين مسعود الأشجعى وحده.

الثالث: أن المراد به الخصوص لايصح أن يراد به العموم بخلاف المخصوص.

الرابع: أنه يصح أن يراد به واحد اتفاقا، والمخصوص لابد فيه من.

الخامس: أن المراد منه أقل مما خرج والداخل فى المخصوص أكثر مما خرج وهو قريب من الذى قبله.

قال السيوطى: بقى فرق آخر هو أعظم مما ذكره، وهو أن المراد به الخصوص مجاز قطعا لأنه لفظ استعمل فى بعض أفراده، والمخصوص حقيقة على الأصح لأن تناول اللفظ للبعض الباقى فى التخصيص كتناوله له بلا تخصيص وذلك التناول حقيقى اتفاقا فكذا هذا.

ومن أمثلة المراد به الخصوص: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ من فضله فقد آتينا آلَ إبراهيم الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ (النساء/٥٤)، (أى رسول الله ﷺ) وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ (النمل/٢٣)، ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾ (الكهف/٨٤). ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأحقاف/٢٥).

معيار العموم:

ما المعيار الذى يعرف به أن هذا اللفظ عام وليس خاصاً؟ قال العلماء فى الجواب عن هذا: معيار العموم: صحة الاستثناء من غير عدد، يعنى أنه يستدل على عموم اللفظ بقبوله الاستثناء منه، فإن الاستثناء إخراج ما لولاه لوجب دخوله فى المستثنى منه، فوجب أن تكون كل الأفراد واجبة الاندراج، وهذا معنى العموم فأنت إذا قلت لمعلم: أكرم طلابك كان هذا التعبير عاما يشمل جميع من يقوم هذا المعلم بالتدريس لهم، ويتحول اللفظ من عام إلى خاص إذا قلت: إلا الكسالى، فيصبح اللفظ (طلابك) فى هذه الحالة خاصا وسبب تخصيصه الاستثناء.

ومن النماذج التى أوردها العلماء لقصد العموم فى القرآن الكريم على ما رواه الزركشى:

كقوله تعالى ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾ (الكهف/٧٧)، ولم يقل للإشعار بتأكيد العموم، وأنهما لم يتركا أحدا من أهلها إلا

استطعماه، وأبى، ومع ذلك قابلهم بأحسن الجزاء، وفيه التنبيه على محاسن الأخلاق، ودفع السيئة بالحسنة.

وقوله تعالى ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾ (يوسف/٥٣)، فإنه لو قيل: «إنها لأمارة» لاقتضى تخصيص ذلك، فأتى بالظاهر ليدل على أن المراد التعميم، مع أنه برىء من ذلك بقوله بعد (إلا ما رحم ربى)، وقوله: (إن ربى غفور رحيم) ولم يقل: «إنه» إما للتعظيم وإما للاستلذاذ.

وقوله تعالى ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) ﴾ (النجم/٢٨)، وقوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨) ﴾ (الشورى/٤٨)، ولم يقل: «فإنه» مبالغة فى إثبات أن هذا الجنس شأنه كفران النعم.

الخاص:

وأما الخاص فهو يقابل العام، ويمكن تعريفه بأنه (ما لا يستغرق الصالح له من غير حصر) أو بتعبير آخر: هو اللفظ الذى لاينطبق حكمه ولاتشمل دلالته كل أفراده.

ونأخذ من هذا التعريف أن هناك مخصصاً ومخصصاً، فالمخصص (بصيغة اسم الفاعل، أى بكسر الصاد الأولى مع تشديدها) فهو العلة التى بها يخرج اللفظ عن دلالته العامة التى تشمل جميع أفراده.

والمخصص (بصيغة اسم المفعول، أى بفتح الصاد الأولى مع تشديدها) فهو اللفظ الذى أخرج عنه بعض أفراده.

وعلى ذلك فكل لفظ عام يقبل التخصيص، قال الشيخ محمد سالم محيسن:

«القابل للمخصص هو الحكم الثابت لأمر متعدد، لأن التخصيص هو إخراج البعص كما تقدم، وهذا لايتصور فى الأمر الواحد.

والتعدد: إما أن يكون فى اللفظ، كقوله تعالى ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ (التوبة/ ٥)، وقد خص منه أهل الذمة وأمثالهم.

وإما أن يكون فى المعنى وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول:

العلة: وهى معنى يشمل أفراداً كثيرة مثل:

نقصان الرطب بالجفاف، فإنها لتحريم بيعه بالتمر لما فيه من التفاضل وهو موجود بالعرايا (جمع عرية)، وهو ثمر نخلة يهبه مالكه الفقير ثم يشتريه منه بمقدارمن التمر ويعطيه له عند الجذاذ)، مع أنه يجوز بيعها بالتمر، فكان ذلك تخصيصاً لعليته.

النوع الثانى:

مفهوم الموافقة فإنه حكم يشمل أفراداً كثيرة، فيخصص بشرط عدم نسخ حكم المنطوق.

مثل: تحريم أنواع إيذاء الوالدين، المفهوم من تحريم التأفيف بقوله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) ﴾ (الإسراء/٢٣)، وقد خص عنه جواز حبس الوالد لحق الولد.

النوع الثالث:

مفهوم المخالفة، فإنه حكم عام، فيخصص بدليل راجح عليه مثل:

مفهوم حديث: «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً» أي نجاسة، بل يدفعها عن نفسه لكثرته.

فإن مفهومه أن ما دون القلتين يحمل الخبث، أي ينجس بملاقاة النجاسة، وإن لم تغيره، سواء كان راكدا، أو جاريا، لأن الجاري لاينجس بملاقاتها، إلا إذا غيرت أحد أوصافه لحديث: «وإن لم تغيره سواء كان راكدا أو جاريا».

ولكنه خص بالراكد أي قصر عليه، والمنطوق أرجح من المفهوم، والصواب،أنه لا يشترط فى المخصص أن يكون راجحا، لأن التخصيص إعمال للدليلين.

تخصيص الكتاب بالسنة:

ومن أمثلته قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) ﴾ (البقرة/ ٢٧٥)، فقد خصصت السنة منه بيعاً كان معروفا

عندهم هو بيع حبل الحبلة. فكان الرجل يبتاع الجزور إلى أن تنتج الناقة ثم تنتج التى فى بطنها. كما خصصت السنة نوعا من الربا هو العرايا الثابتة، ففى الصحيحين عن عدد من الصحابة أن النبى ﷺ رخص فى بيع العرايا فى خمسة أوسق أو دون خمسة أوسق.

تخصيص السنة بالكتاب:

ويجوز تخصيص ما ورد عاما فى السنة النبوية المطهرة بالقرآن الكريم، وهذا نوع قليل ذكره السيوطى فى التحبير وذكر من أمثلته: قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) ﴾ (التوبة/ ٢٩)، خصص عموم قوله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»، وقوله تعالى﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ(٢٣٨) ﴾ (البقرة.٢٣٨)، خص عموم نهيه ﷺ عن الصلاة فى الأوقات المكروهة بإخراج الفرائض، وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) ﴾ (النحل/ ٨٠)، خص عموم قوله ﷺ: «ما بين من حى فهو ميت»، وقوله ﴿ فِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ (التوبة/ ٦٠)، خص عموم قوله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى»، فإنهما يعطيان مع الغنى، وقوله تعالى ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ

أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) ﴾(الحجرات/٩)، خص عموم قول الرسول ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار».

حالات أخرى للتخصيص:

وقد توسع العلماء فى هذا الباب حتى ذكروا أن العموم فى القرآن قد يخصص بالإجماع كآية المواريث ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) ﴾ (النساء/١١)، فقد خص منها بالإجماع الرقيق: لأن الرق مانع من الإرث.

كما قالوا إن عموم القرآن قد يخصص بالقياس كآية ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ (النور/٢)، فقد خص منها بالقياس زنا العبيد قياسا على الأمة التى نص على تخصيصها عموم قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥) ﴾ النساء/٢٥).

أدلة التخصيص ووسائله:

الأساليب أو الأدلة أو الوسائل التى يتم بها تخصيص العام أربعة عند علماء القرآن هى:

الأول: الاستثناء: وهو الإخراج بإلا ونحوها:

مثال ذلك قول الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾ (النور/٤ ـ ٥).

وقوله ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤) ﴾ (المائدة، ٣٣، ٣٤).

الثانى: الصفة:

كقوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) ﴾ (النساء/٢٣)، فقوله (اللاتى دخلتم بهن) صفة لنسائكم والمعنى أن الربيبة من المرأة المدخول بها محرمة على الرجل، أما إذا لم يتم الدخول بالأم فإن الربيبة حينئذ تحل للرجل أن يتزوجها.

الثالث: الشرط:

كقوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)﴾ (البقرة/ ١٨٠)، فقوله (إن ترك خيرا الوصية) أى «مالا» شرط فى الوصية.

الرابع: الغاية:

كقوله تعال ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)﴾ (البقرة/١٩٦).

الخامس: بدل البعض من الكل:

كقوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)﴾ (آل عمران/٩٧)، فقوله (من استطاع) بدل من الناس، فيكون وجوب الحج خاصا بالمستطيع.

والمخصص المنفصل:

هو ما كان فى موضع آخر من آية أو حديث أو قياس، كالأمثلة التى ذكرناها سابقا.

أهمية مراعاة العموم والخصوص عند الإفتاء:

قلنا فى مطلع هذا المبحث: إن معرفة علم العام والخاص ذات أهمية كبرى عند الإفتاء لما يترتب على الخلط بينهما من إساءة فى الفتوى.

قال الإمام أبو بكر القفال الشاشى الفقيه الشافعى الأصولى الكبير (ت٣٦٥هـ): «ومن ضبط هذا الباب - أى العام والخاص - أفاد علما كبيرا».

والذى نود أن ننبه إليه هنا أن تكون العبرة عند النظر فى العموم إلى المعانى لا إلى الألفاظ.

فمثلا: يرى الزركشى أن قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤)﴾ (التوبة/٣٤)، لا يصلح الاحتجاج بها فى إيجاب الزكاة فى قليل الذهب والفضة وكثيره، وفى المتنوع منهما من الحلى وغيره، ألا ترى أن من ملك دون النصاب منهما داخل فى جملة المتوعدين بترك الإنفاق منهما! وهذا يدل على أن القصد من الآية إثبات الحكم فى ترك أداء الواجب من الزكاة منهما، وفيها دليل على وجوب الزكاة فيهما، وليس فيها بيان مقدار ما يجب من الحق فيهما.

* وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥)﴾ (المؤمنون/٥)، القصد منها مدح قوم صانوا فروجهم عما لا يحل، ولم يواقعوا بها إلا من كان يملك النكاح أو اليمين، وليس فى الآية بيان ما يحل منها وما لا يحل، ثم إذا احتيج إلى تفصيل ما يحل بالنكاح وملك اليمين صبر إلى ما قصد، وتفصيله بقوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ (النساء/٢٣).

* ومثله قوله تعالى ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴾ (البقرة/١٨٧)، فلو تعلق متعلق بقوله (وكلوا واشربوا) فى إباحة أكل أو شرب كل شيء قد اختلف فيه لكان لا معنى له، لأن المخاطب قد غفل عن أنها لم ترد مبينة ذلك، بل مبينة لحكم جواز الأكل والشرب والمباشرة إلى الفجر دعا لما كان الناس عليه من حظر ذلك على من نام، فبين فى الآية إباحة ما كان محظورا، ثم أطلق لفظ الأكل والشرب والمباشرة لاعلى معنى إباحته الحكم فيما يحل من ذلك وما يحرم. ألا ترى أنه لا يدخل فيه شرب الخمر والدم والميتة ولا المباشرة فيما لايبتغى معه الود، ومثله فى القرآن كثير، وهذايدل على أن النظر فى العموم إلى المعانى لا لإطلاق اللفظ.

هل فى القرآن ماهو عام مطلقاً؟

نقل الشوكانى عن علم الدين العراقى أنه قال: «ليس فى القرآن عام غير مخصوص إلا أربعة مواضع:

أحدها: قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ

تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) ﴾ (النساء/٢٣)، فكل ما سميت إما عن نسب أو رضاع، وإن علت، فهى حرام.

ثانيها: قوله تعالى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) ﴾ (الرحمن/٢٦)، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) ﴾ (آل عمران/١٨٥).

ثالثها: قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ﴾ (البقرة/٢٨٢).

رابعها: قوله تعالى ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) ﴾ (البقرة/٢٨٤).

ثم اعترض الشوكانى على الموضع الرابع بأن القدرة لاتتعلق بالمستحيلات، وهى أشياء، ثم أطلق الشوكانى بما سبق قوله تعالى ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦) ﴾ (هود/٦). (راجع شرح الكوكب المنير ٢/١٨٧، وإرشاد الفول ٢ ١٤٣).

واختلف العلماء فى الخطاب الخاص بالنبى ﷺ مثل قوله تعالى (يأيها النبى)، وقوله (يأيها الرسول) هل يشمل الأمة، أو لايشملها ؟

فذهب قوم إلى أنه يشملها باعتباره ﷺ قدوة لها.

وذهب آخرون إلى أنه لايشملها، لأن الصيغة تدل على اختصاصه بها.

واختلفوا أيضا في الخطاب من الله تعالى بـ «يأيها الناس» هل يشمل الرسول ﷺ أو لا يشمله؟ والصحيح في ذلك أنه يشمله لعمومه - وإن كان الخطاب ورد على لسانه ليبلغه إلى غيره.

وقد فصل بعضهم فقال:

«إن اقترن الخطاب الموجه إلى النبي ﷺ بلفظ (قل) لم يشمله، لأن ظاهره الإبلاغ، كقوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾ (الأعراف/١٥٨) - وإلا شمله. والأصح عند علماء أصول الفقه أن الخطاب - بـ «يأيها الناس» يشمل «الكفار، والعبيد» لعموم اللفظ. وقيل: لا يعم «الكافر» بناء على عدم تكليفه بالفروع، ولا «العبد» لصرف منافعه إلى سيده شرعا.

المبحث التاسع

المطلق والمقيد

المطلق: هو مايدل على واحد غير معين. كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ من نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) ﴾ (المجادلة/٣)، فلفظ الرقبة هنا مطلق لأنه يدل على أية رقبة.

والمقيد هو ما يدل على واحد معين بصفة زائدة لحقيقته، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) ﴾ (النساء/٩٢)، فوصف الرقبة هنا بأنها مؤمنة جعل اللفظ مقيدا ولا ينطبق إلا على صنف المؤمنين من العبيد.

واستنتج الأصوليون من هذا التعريف أن المطلق يشمل كل نكرة فى سياق الإثبات، ولأن النكرة فى سياق النفى تعم جميع ماهو من جنسها وهذا الاستنتاج يقودنا إلى سؤال مهم يرد هنا يتعلق بكيفية التفرقة بين: العام والمطلق.

وقلنا فى تعريف العام: إنه لفظ يستغرق جميع ما يصلح له. والاستغراق هنا معناه شمول جميع أفراده دفعة واحدة. أما المطلق فإنه يدل على واحدة من جنسه. أى يشمل جميع أفراده بالبدلية: أى يصلح كل واحد منهم بديلا للآخر.

فالعموم هو العموم الشمولى، والإطلاق هو العموم البدلى.

قال الشيخ محمد سالم محيسن فى توجيه هذه القضية:

«العام لفظ يستغرق مايصح له بوضع واحد، فقوله لفظ» جنس فى التعريف، وقوله «يستغرق» أى يتناول دفعة لأن الاستغراق فى الاصطلاح هو التناول دفعة وهو قيد فى التعريف، خرج به النكرة فى الإثبات سواء أكانت مفردة كرجل، أم مثناة كرجلين، أو جمعاً كرجال، أو اسم جمع كقوم، أو اسم عدد كعشرة، لأنها لا تتناول ما تصلح له من الأفراد «دفعة» بل على البدل.

فتناول المفردة كل فرد، والمثناة كل اثنين، والمجموعة كل جماعة، والعشرة كل عشرة، على سبيل البدل فى الجميع.

وقوله «جميع مايصل له» أى يستغرق جميع الأفراد التى يصلح لها، أى يصدق عليها لغة، أو عرفا، وهو قيد لإخراج الأفراد التى لا يصلح لها.

فعدم استغراق لفظ «من» مثلا لغير العاقل لايقدح فى عمومه، لأنه لايصلح لغة له.

وقوله «بوضع واحد»، متعلق بقوله «يصلح» والباء للسببية، لأن الوضع هو سبب صلاحية اللفظ للمعني، أى يصلح لها باعتباره وضع واحد، باعتبار جميع أوضاعه، وهو قيد «ثالث» لإدخال المشترك المستعمل فى أحد معانيه كلفظ «العين» المستعمل فى الفوارة دون الباصرة، فإنه عام وإن لم يستغرق أفراد الباصرة مع كونه صالحا لها، لأنه يصلح لها بوضع آخر.

فالعموم: هو تناول اللفظ لما يصلح له من الأفراد دفعة، ويسمى عموما شموليا،

وقد يطلق على تناول الأفراد على سبيل البدل بأن يصدق على كل فرد بدلا عن الآخر، كما فى النكرة، ويسمى عموما بدليا، والعموم الشمولى هو المراد منه عند الإطلاق».

وقال صاحب شرح الكوكب المنير فى التفرقة بينهما مانصه:

«العام: فى اصطلاح العلماء، لفظ دال على جميع أجزاء ماهية مدلوله، أى مدلول اللفظ.

قال الطوفى - بعد أن ذكر للعام حدودا كلها معترضة: اللفظ إن دل على الماهية من حيث هى، هى، فهو المطلق كالإنسان، أو على وحدة معينة كزيد فهو العلم، أو غير معينة كرجل، فهو النكرة، أو على وحدات متعددة، فهى إما بعض وحدات الماهية فهو اسم العدد، كعشرين رجلا، أو جميعها فهو العام.

فإذا هو: اللفظ الدال على جميع أجزاء ماهية مدلوله، وهو أجودها.

فهذا الحد مستفاد من التقسيم المذكور، لأن التقسيم يرد على جنس الأقسام، ثم يميز بعضها عن بعض بذكر خواصها التى تتميز بها، فيتركب كل واحد من أقسامه من نسبه المشترك، ومميزه الخاص،وهو الفصل، ولامعنى للحد إلا اللفظ المركب من الجنس والفصل.

وعلى هذا فقد استفدنا من هذا التقسيم معرفة حدود ماتضمنته من الحقائق، وهو المطلق والعلم والنكرة واسم العدد والعام.

فالمطلق: هو اللفظ الدال على الماهية المجردة عن وصف زائد.

والعلم: هو اللفظ الدال على وحدة معينة.

واسم العدد: هو اللفظ الدال على بعض وحدات ماهية مدلوله.

والعام: ماذكرنا.

وقوله: «فإن دل على الماهية من حيث هي، هي «أى مع قطع النظر عن جميع ما يعرض لها من وحدة وكثرة، وحدوث وقدم، وطول وقصر، ولون من الألوان، فهذا المطلق كالإنسان من حيث هو إنسان: إنما يدل على حيوان ناطق، لا على واحد، ولا على غيره مما ذكر، وإن كان لا ينفك عن بعض ذلك».

رأى السيوطى:

تناول السيوطى المطلق والمقيد فى كتابه الإتقان فقال ما خلاصته:

«المطلق: الدال على الماهية بلاقيد، وهو مع المقيد كالعام مع الخاص، قال العلماء: متى وجد دليل على تقييد المطلق صير إليه، وإلا فلا،بل يبقى المطلق على إطلاقه، والمقيد على تقييده، لأن الله تعالى خاطبنا لغة العرب، والضابط: أن الله إذا حكم فى شيء بصفة أو شرط، ثم ورد حكم آخر مطلقا نظر. فإن لم يكن له أصل يرد إليه ولا ذلك الحكم المقيد وجب تقييده به، وإن كان له أصل غيره لم يكن رده إلى أحدهما بأولى من الآخر. فالأول مثل: تقييد الأيدى بقوله (إلى المرافق)، فى الوضوء، وإطلاقه فى التيمم، الثانى: مثل تقييد الصوم بالتتابع فى كفارة القتل والظهار، وتقييده بالتفريق فى صوم التمتع، وأطلق كفارة اليمين لتنافى القيدين، ولا على أحدهما لعدم المرجح)(الإتقان/٣/٩١ وما بعدها).

وقال فى كتابه التحبير"

«المطلق: الدال على الماهية بغير قيد، وقد اشتهر من مذهب الشافعى أنه يحمل المطلق على المقيد وفى ذلك تفصيل، لأنهما إن اتحد حكمهما وموجبهما وكانا مثبتين

وتأخر المقيد عن وقت العمل بالمطلق فالمقيد ناسخ للمطلق وإلاحمل عليه، وكذا إن كانا منفيين، وإن كان أحدهما أمرا والآخر نهيا قيد المطلق بضد الصفة وإن اختلف السبب، فمذهب الشافعي الحمل عليه قياسا كما في قوله تعالى في كفارة القتل ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ (النساء/٩٢)، وفي كفارة الظهار ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) ﴾ (المجادلة/٣)، وإن اتحد الموجب واختلف الحكم حمل عليه أيضا كما في قوله تعالى في آية الوضوء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦) ﴾ (المائدة/٦)، وفي آية التيمم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣) ﴾ (النساء/٤٣).

وأما المقيد في موضعين وقد أطلق في موضع وليس بأحدهما من الآخر فلا يحمل على شيء منهما كقوله تعالى في قضاء أيام رمضان: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ

وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) ﴾ (البقرة/ ١٨٥)، فى كفارة الظهار: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) ﴾ (المجادلة/٤)، وفى صوم التمتع ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) ﴾ (البقرة/١٩٦)، فأوجب التتابع فى الثاني، والتفريق فى الثالث، وليس الأول أولى بأحدهما من الآخر فلا يجب فيه تتابع ولاتفريق.

وقد يكون الكتاب مقيدا للسنة المطلقة، والسنة مقيدة للكتاب المطلق كالتخصيص».

صورة المطلق والمقيد:

للمطلق مع المقيد أحوال ذكر منها العلماء صورا مشهورة أهمها:

١ ـ أن يتحد السبب والحكم:

ومثاله الصيام فى كفارة اليمين، فقد جاء مطلقا فى قوله تعالى ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ

مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)﴾ (المائدة/٨٩). وقد جاء مقيدا بالتتابع فى قراءة ابن مسعود (ت ٢٢هـ) فقد كان يقرأ (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) وهى قراءة شاذة. ،حكمه فى هذه الحالة حمل المطلق على المقيد عملا بالدليلين،لأن المطلق جزء من المقيد، فالعمل به عمل بهما معا. وهذا على مذهب من أخذ بالقراءة غير المتواترة.

أما من يرى أن القراءة المتواترة ليست حجة، فإنه لا يكون أمامه سوى دليل واحد وهو ما جاء فى القراءة المتواترة، وبناء عليه فلا يلزم التتابع فى كفارة اليمين.

٢ - أن يتحد السبب ويختلف الحكم:

فقد أمر المسلمون بغسل أيديهم فى الوضوء ومسحها فى التيمم فالسبب هنا متحد وهو أداء الصلاة والاستعداد لها بالوضوء أوبالتيمم. ولكن الحكم مختلف إذ قيدت آية الوضوء بغسل اليدين إلى المرفقين، وأطلقت آية التيمم فلم تحدد جزءاً من اليد يتم تطهيره عند التيمم.

ولذلك اختلف الفقهاء فى هذه المسألة. فذهب الجمهور إلى عدم حمل المطلق على المقيد لاختلاف الحكم. ومن ثم فليس شرطا عند الجمهور أن يتيمم المتيمم إلى المرفقين. وذهب بعض الشافعية إلى حمل المطلق على المقيد للجمع بين الدليلين.

٣ - أن يختلف كل من السبب والحكم:

نحو «اليد» فى حكم غسلها فى الوضوء، فقد جاءت مقيدة،قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا

برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون (٦) ﴾ (المائدة/٦)، فقد نصت الآية على أن غسل اليد مقيد بحيث يكون إلى المرفقين.

وجاءت «مطلقة فى حكم قطع يد السارق والسارقة، قال تعالى ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم (٣٨) ﴾ (المائدة/٣٨)، فقدجاء النص «مطلقا» دون قيد بجزء معين.

ونظرا لأن كلا من السبب والحكم مختلف وليست هناك جهة جامعة بينهما فقد اتفق الفقهاء على عدم حمل المطلق على المقيد فى هذه الصورة، وكذا كل ما ماثلها.

٤ ـ أن يتحد الحكم ويختلف السبب:

مثل تحرير الرقبة، فهو حكم واحد ورد فى سببين: ورد فى تكفير القتل الخطأ ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطئا ومن قتل مؤمنا خطئا فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما (٩٢) ﴾ (النساء/٩٢).

وورد فى تكفير الظهار ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير (٣) ﴾ (المجادلة/٣).

فالحكم فى الحالتين واحد هو الكفارة بتحرير الرقبة، والسبب مختلف ففى الأولى القتل الخطأ، وفى الثانية: الظهارولذلك اختلف الفقهاء:

١ ـ فذهب المالكية والشافعية إلى أنه اقتضى القياس حمل المطلق على المقيد حمل عليه كما فى المثال المتقدم، فيقاس المطلق على المقيد فى تقييده بالإيمان بجامع أن كلا كفارة.

وإلا فلا يحمل عليه، أى لا يقيد بقيده لعدم وجود ما يقتضيه، مثال ذلك: أن يكون التقييد مختلفا، كالكفارة بالصوم. قيد الصوم بالتتابع فى كفارة القتل.

قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢) ﴾ (النساء/٩٢). وكذا فى كفارة الظهار، قال تعالى ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) ﴾ (المجادلة/٤).

وجاء تقييده بالتفريق فى صوم المتمتع بالحج، قال تعالى ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) ﴾ (البقرة/١٩٦). فالمطلق فى هذا لايحمل على المقيد، لأن القيد مختلف فحمل المطلق على المقيد ترجيح بلامرجح.

٢ ـ وذهب الحنفية إلى عدم الحمل مطلقا، بل يبقى المطلق على إطلاقه ويعمل بكل منهما فى موضعه، لأن الأصل اختلاف الأحكام باختلاف الأسباب.

التقييد بالوصف:

قد يرد اللفظ مقيداً بوصف ويكون المسكوت عنه بخلافه كقوله تعالى فى الصيد ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥) ﴾ (المائدة/ ٩٥). فإن القتل إتلاف والإتلاف عمده وخطؤه سواء، فيستدل به على أن التعمد ليس بشرط.

وهنا قد يقول قائل:

فما فائدة التقييد فى هذا القسم إذا كان المسكوت عنه مثله، وهلا حذفت الصفة واقتصر على قوله (ومن قتله منكم)؟

قال الزركشى إن لتخصيص الشيء بالذكر فوائد منها: اختصاصا فى جنسه بشيء لا يشركه فيه غيره من جملة الجنس، كما فى هذه الآية ـ أعنى قوله تعالى (ومن قتله منكم متعمدا) إلى قوله (فينتقم الله منه) إن المتعمد إنما خص بالذكر لما عطف عليه فى آخر الآية من الانتقام الذى لايقع إلا فى العمد دون الخطأ.

ومنها ما يخص بالذكر تعظيما له على سائر ما هو من جنسه، كقوله تعالى ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا

يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً واعْلَمُوا أَنَّ اللَّه مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) ﴾ (التوبة/٣٦). فخص النهى عن الظلم فيهن، وإن كان الظلم منهيا عنه فى جميع الأوقات تفضيلا لهذه الأشهر وتعظيما للوزر فيها. وقوله تعالى ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ (١٩٧) ﴾ (البقرة/١٩٧).

ومنها أن يكون ذلك الوصف هو الغالب عليه، كقوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) ﴾ (النساء/٢٣)، فإن الغالب من حال الربيبة أنها تكون فى حجر أمها، ومثل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) ﴾ (النور/٥٨). خص هذه الأوقات الثلاثة بالاستئذان، لأن الغالب تبذل البدن فيهن، إن كان فى غير هذه الأوقات ما يوجب الاستئذان فيجب، وكذلك قوله جل جلاله ﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ

اللَّه فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّه فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) ﴾ (البقرة/٢٢٩)، فالافتداء يجوز مع الأمر، وقوله ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١) ﴾ (النساء/١٠١). وقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ﴾ (البقرة/٢٨٢). وقوله ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) ﴾ (البقرة/٢٨٣). فجرى التقييد بالسفر، لأن الكاتب إنما يعدم غالبا فيه، ولا يدل على منع الرهن إلا فى السفر.

متى يكون المطلق على إطلاقه:

الأصل فى لغة العرب أن المطلق يبقى على إطلاقه إذا لم ترد عليه قيود. فإن وجد قيد على المطلق عمل المفتى أو المفسر بالمقيد.

فقوله تعالى ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥) ﴾ (المائدة/٥)، أطلق الإحباط على الارتداد وعلقه بنفس الردة، ولم يشترط فيه الوفاة على الردة، وقال فى الآية ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) ﴾ (البقرة/٢١٧)، فهنا قيد الردة بالموت عليها والوفاة على الكفر، فوجب رد الآية المطلقة إليها وألا يقضى بإحباط الأعمال إلا بشرط الموافاة عليه، وهو مذهب الشافى).

ومن هذا الإطلاق تحريم الدم وتقييده فى موضع آخر بالمسفوح، وقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣) ﴾ (النساء/٤٣). وقال فى موضع آخر ﴿ فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ (٦) ﴾ (المائدة/٦).

وقوله ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا

نُؤْته مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ (الشورى/ ٢٠)، فإنه لو قيل: نحن نرى من يطلب الدنيا طلباً حثيثا ولا يحصل له منه شيء قلنا: قال الله تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) ﴾ (الإسراء/١٨)، فعلق ما يريد بالمشيئة والإرادة.

ومثله قوله تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾ (البقرة/١٨٦)، وقوله ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾ (غافر/ ٦٠). فإنه معلق.

المبحث العاشر

موهم التناقض

سعى أعداء الإسلام - وما يزالون يسعون - إلى اقتناص كل ما يرون فيه انتقاصا من الإسلام، وطعنا فيه. وكان تحدى القرآن الكريم لكفار قريش أن يأتوا بمثله أكبر دليل على أن هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولذلك كان وما يزال وسيظل معجزا بكل حرف من حروفه وبكل آية من آياته. ولكن القارىء المتعجل، أو ضعيف الفهم، أو قليل البصر باللغة، أو المتربص فاسد العقيدة، كل أولئك تصادفهم أحيانا آيات من القرآن الكريم تبدو ظواهرها متناقضة، ومن هنابدأ علماء القرآن فى وضع قواعد علم مستقل من علوم القرآن أسموه (موهم التناقض) جمعوا فيه الآيات التى يبدو أن بعضها يناقض بعضا.

أسباب التناقض المزعوم:

ومن الطبيعى أن نسأل أنفسنا، ما السر فى وجود اختلاف فى ظواهر الآيات؟ والواقع أن العلماء بحثوا هذا الاختلاف الذى أدى إلى توهم وجود تناقض ووقفوا عند عدة أسباب تقف وراء هذه الظاهرة منها:

١ - اختلاف الموضع كقوله تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠)﴾ (الشورى/ ٤٠)، مع قوله تعالى ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩)﴾ (الفرقان/ ٦٩)، فإنه لا تعارض بين الاثنين، لأن التضعيف هنا ليس هو التضعيف الوارد فى الحسنات، بل إنه راجع لتضاعيف مركباتهم، فكل سيئة صدرت منهم لها عذاب يخصها، لا أن السيئة

الواحدة يضاعف الجزاء عليها، مصداق ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) ﴾ (هود/١٨، ١٩).

فالذين كذبوا على الله، وصدوا عن سبيله، وبغوه عوجا، وكفروا قد ارتكبوا ذنوبا يعذبون على كل واحد منها.

وقوله سبحانه وتعالى ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) ﴾ (الأعراف/٦)، مع قوله جل جلاله ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) ﴾ (الرحمن/٣٩)، حيث تحمل الآية الأولى على السؤال عن التوحيد، وتصديق الرسل، والثانية على ما يستلزم الإقرار بالنبوات من التشريعات وفروعها.

وكقوله تعالى أيضا ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ﴾ (الأنعام/٢٣)، مع قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢) ﴾ (النساء/٤٢). يقول ابن عباس فى ذلك أن الكفار لما رأوا العذاب يوم القيامة وأن الله يغفر لأهل الإسلام، ويغفر الذنوب، ولا يغفر شركا، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره، جحده المشركون، رجاء أن يغفر لهم، فقالوا: (والله ربنا ما كنا مشركين) فختم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم، وأرجلهم بما كانوا يعملون، عند ذلك يود الذين كفروا لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا.

٢ ـ الاختلاف باعتبارين، كقوله تعالى ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) ﴾ (المعارج/٤)، مع قوله جل شأنه ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ

السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ﴾ (السجدة/ ٥).

فهذا الاختلاف باعتبار حال الكافر والمؤمن، فالخمسون ألف سنة بالنسبة للكافر، وألف سنة بالنسبة للمؤمن بدليل قوله تعالى فى شأن الكفار ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) ﴾ (الفرقان/٢٦). وقوله جل جلاله ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾ (المدثر/٩، ١٠).

أيضا قول الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ (الرعد/٢٨). مع قوله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ﴾ (الأنفال/٢).

فقد تفهم ظنا أن الوجل خلاف الطمأنينة، ولكن الحقيقة، أن الطمأنينة إنما تكون بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل يكون عند خوف الزيغ، والبعد عن الهداية، فتوجل القلوب.

ولقد جمع الله تعالى بينهما فى آية ثالثة حيث قال ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) ﴾ (الزمر/٢٣). فإن هؤلاء قد هدأت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم إلى مقعدهم بعد أن وثقوا به، وأخلصوا له، فانتفى عنهم الشك، وحل محله اليقين.

وكقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن

لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ (ق/٣٨). وقوله سبحانه وتعالى ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ (فصلت/٩، ١٢). وذلك يبلغ ثمانية أيام، والجواب أن المراد بقوله (قل أإنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) إلى قوله (وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام) مع اليومين، ولم يرد بذكر «الأربعة» غير ما تقدم ذكره، وهذا كما يقول الفصيح «سرت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام»، «وسرت إلى الكوفة فى ثلاثة عشر يوما» ولا يريد سوى العشرة، بل يريد مع العشرة ثلاثة، ثم قال تعالى (فقضاهن سبع سماوات فى يومين)، وأراد سوى الأربعة، وذلك لا مخالفة فيه؛ لأن المجموع يكون ستة.

ومنه قوله تعالى فى السجدة ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (السجدة/ ٢٠). بلفظ «الذي» على وصف العذاب، وفى سبأ يقول جل جلاله ﴿ فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (سبأ/٤٢)، بلفظ «التى» على وصف النار، وفيه أربعة أوجه: أحدها أنه وصف العذاب فى السجدة لوقوع «النار» موقع الضمير الذى لا يوصف، وإنما وقعت موقع الضمير لتقدم إضمارها، مع قوله تعالى (وأما الذين

فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها..)، فحق الكلام: و«قيل لهم ذوقوا عذابها»، فلما وضعها موضع المضمر الذى لا يقبل الوصف عدل إلى وصف العذاب، وأما فى «سبأ» فوصفها لعدم المانع من وصفها. الثانى أن الذى فى «السجدة» وصف النار أيضا، وذكر حملا على معنى الجحيم الحريق. والثالث أن الذى فى «السجدة» فى حق من يقر بالنار ويجحد العذاب، وفى «سبأ» فى حق من يجحد أصل النار. والرابع أنه إنما وصف العذاب فى السجدة لأنه لما تقدم ذكر النار مضمرا ومظهرا عدل إلى وصف العذاب، ليكون تلوينا للخطاب، فيكون أنشط للسامع بمنزلة العدول من الغيبة إلى الخطاب.

ومنه قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ﴾ (الأنعام/٦١)، وقوله سبحانه وتعالى ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾ (النحل/٣٢)، وبين قوله ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾ (السجدة/١١)، وبين قوله ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) ﴾ (الزمر/٤٢)، وجمع البغوى بينها، لأن توفى الملائكة بالقبض والنزع، وتوفى ملك الموت بالدعاء والأمر، يدعو الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أعوانه بقبضها، وتوفى الله سبحانه وتعالى خلق الموت فيه.

٣ - وقوع المخبر به على أحوال مختلفة وتطويرات شتي، كقوله تعالى فى خلق آدم ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ﴾ (آل عمران/٥٩)، ومرة ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) ﴾

(الحجر/٢٦)، ومرة، ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) ﴾(الصافات/١١)، ومرة ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) ﴾ (الرحمن/١٤)، وهذه الألفاظ مختلفة ومعانيها فى أحوال مختلفة، لأن الصلصال غير الحمأ، والحمأ غير التراب، إلا أن مرجعها كلها إلى جوهر وهو التراب، ومن التراب تدرجت هذه الأحوال.

ومنه قوله تعالى ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) ﴾ (الشعراء/٣٢)، وفى موضع ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) ﴾ (النمل/١٠)، والجان الصغير من الحيات، والثعبان الكبير منها، وذلك لأنه خلقها الثعبان العظيم، واهتزازها وحركاتها وخفتها كاهتزاز الجان فى خفته.

٤ ـ اختلاف الآيتين المتعارضتين فى جهتى الفعل، كقوله تعالى ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ﴾ (الأنفال/١٧). أضيف القتل إليهم على جهة الكسب والمباشرة، ونفاه عنهم باعتبار التأثير، ولهذا قال الجمهور: إن الأفعال مخلوقة لله تعالى مكتسبة للآدميين، فنفى الفعل بإحدى الجهتين لا يعارضه إثباته بالجهة الأخري.

وكذلك قوله تعالى (.. وما رميت إذ رميت ولكن الله رمي..)، أى ما رميت خلقا إذ رميت كسبا، وقيل: إن الرمى يشتمل على القبض والإرسال، وهما بكسب الرامى، وعلى التبليغ والإصابة وهما بفعل الله سبحانه وتعالى، قال ابن جرير الطبرى: وهى الدليل على أن الله خالق لأفعال العباد، فإن الله تعال أضافه إلى نبيه

ثم نفاه عنه، وذلك فعل واحد لأنه من الله تعالى التوصيل إليهم، ومن نبيه بالقذف والإرسال،وإذاثبت هذا لزم مثله فى سائر أفعال العباد المكتسبة، فمن الله تعالى الإنشاء والإيجاد، ومن الخلق الاكتساب بالقوى.

٥ ـ اختلاف الآيتين من جهة الحقيقة والمجاز، كقوله تعالى ﴿يوم ترونها تذهل كُلُّ مُرْضِعَةٍ عمَّا أَرْضَعَتْ وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وتَرى النَّاس سُكَارَىٰ وما هم بِسُكَارَىٰ ولَكِنَّ عَذَابَ اللَّه شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ (الحج/٢)، ﴿يَتَجَرَّعُهُ ولا يَكَادُ يُسِيغُهُ ويأتيه الْمَوْتُ مِن كُلِّ مكَانٍ ومَا هُوَ بِمَيِّتٍ ومِن ورَائِه عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ (إبراهيم/١٧)، وهو فرع لقول المناطقة: الاختلاف بالإضافة، أى وترى الناس سكارى بالإضافة إلى أهوال القيامة مجازاً، وما هم بسكارى بالإضافة إلى الخمر حقيقة.

ومثله فى الاعتبارين قوله تعالى ﴿ومِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّه وبِالْيَوْمِ الآخِر ومَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ (البقرة/٨)، وقوله ﴿ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الأنفال/٢١).

آراء العلماء السابقين فى موهم التناقض:

لقد أثيرت قضية موهم التناقض والاختلاف منذ عهد الإسلام الأول فقد روى ابن أبى هريرة يحكى عن أبى العباس بن سريج قال:

«قال: سأل رجل بعض العلماء عن قوله تعالى (لا أقسم بهذا البلد)، فأخبر أى الأمرين أحب إليك؟ أجيب؛ ثم أقطعك، أو أقطعك ثم أجيبك؟ فقال: بل اقطعنى ثم أجبني، فقال: اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله ﷺ بحضرة رجال،وبين ظهرانى قوم، وكانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزاً، وعليه مطعنا، فلو كان هذا

عندهم مناقضة لتعلقوا به، وأسرعوا بالرد عليه، ولكن القوم علموا وجهلت، فلم ينكروا منه ما أنكرت، ثم قال له: إن العرب قد تدخل «لا» فى أثناء كلامها وتلغى معناها، وأنشده به أبياتا. والقاعدة فى هذا وأشباهه أن الألفاظ إذا اختلفت وكان مرجعها إلى أمر واحد لم يوجب ذلك اختلافاً.

وقد وفق الحسن البصرى بين قوله تعالى ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ (البقرة/٥١)، وقوله ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ (الأعراف/١٤٢)، بأن قال: ليس المراد فى آية الأعراف على ظاهره، من أن الوعد كان ثلاثين ليلة، ثم بعد ذلك وعده بعشر، لكنه وعده أربعين ليلة جميعاً.

وقيل: تجرى أى الأعراف على ظاهرة من أن الوعد كان ثلاثين، ثم أتم بالعشر، فاستقرت الأربعون ثم أخبر فى آية البقرة بما استقر.

رأى الإمام الغزالى:

قال الإمام الزركشى فى البرهان:

«سئل الغزالى عن معنى قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء/٨٢)، فأجاب بما صورته: الاختلاف لفظ مشترك بين معان، وليس المراد نفي اختلاف الناس فيه، بل نفى الاختلاف عن ذات القرآن، يقال: هذا كلام مختلف، أى لا يشبه أوله آخره فى الفصاحة، إذ هو مختلف، أى بعضه يدعو إلى الدين، وبعضه يدعو إلى الدنيا. أو هو مختلف النظم،

فبعضه على وزن الشعر، وبعضه متزحف أي دخلته تغييرات تشبه دخول الزحافات على الأوزان، وبعضه على أسلوب مخصوص في الجزالة، وبعضه على أسلوب يخالفه، وكلام الله تعالى منزه عن هذه الاختلافات، فإنه على منهاج واحد في النظم مناسب أوله آخره، وعلى مرتبة واحدة في غاية الفصاحة، فليس يشتمل على الغث والسمين، ومسوق لمعنى واحد، وهو دعوة الخلق إلى الله تعالي، وصرفهم عن الدنيا إلى الدين، وكلام الآدميين يتطرق إليه هذه الاختلافات، إذ كلام الشعراء والمترسلين إذا قيس عليه وجد فيه اختلاف في منهاج النظم، ثم اختلاف في درجات الفصاحة، بل في أصل الفصاحة حتى يشتمل على الغث والسمين، فلا تتساوى رسالتان ولاقصيدتان، بل تشتمل قصيدة على أبيات فصيحة، وأبيات سخيفة، وكذلك تشتمل القصائد والأشعار على أغراض مختلفة، لأن الشعراء الفصحاء (في كل واد يهيمون) فتارة يمدحون الدنيا، وتارة يذمونها، وتارة يمدحون الجبن فيسمونه حزما، وتارة يذمونه ويسمونه ضعفا، وتارة يمدحون الشجاعة ويسمونها صراحة، وتارة يذمونها ويسمونها تهورا، ولا ينفك كلام آدمي عن هذه الاختلافات، لأن منشأ هذه الاختلافات اختلاف الأغراض، واختلاف الأحوال، والإنسان تختلف أحواله، فتساعده الفصحاحة عند انبساط الطبع وفرحه ويتعذر عليه عند الانقباض. ولذلك تختلف أغراضه فيميل إلى الشيء مرة ويميل عنه أخري، فيوجب اختلاف الأحوال والأغراض اختلافا في كلامه بالضرورة، فلا تصادف اللسان يتكلم في ثلاث وعشرين سنة، وهي مدة نزول القرآن، فيتكلم على غرض واحد، وعلى منهج واحد، ولقد كان رسول الله ﷺ بشراً تختلف أحواله،فلو كان كلامه أو كلام غيره من البشر لوجد فيه اختلاف كثير، فأما اختلاف الناس فهو تباين في آراء الناس لا في نفس القرآن.

طريقة التعامل مع ما يوهم التناقض:

إذا تعارضت الآيات وتعذر فيها الترتيب فإن العلماء ذهبوا إلى أن الواجب على أهل الفقه والتفسير أن يرجحوا إحدى الآيات المتعارضة على ما يخالفها بعدة طرق:

الأول: تقديم المكى على المدنى وإن كان يجوز أن تكون المكية نزلت عليه ﷺ بعد عودته إلى مكة والمدينة قبلها، فيقدم الحكم بالآى المدنية على المكية فى التخصيص وسر هذا التقديم أن غالب الآيات المكية كان نزولها قبل الهجرة.

الثاني: أن يكون أحد الحكمين على غالب أحوال أهل مكة، والآخر على غالب أحوال أهل المدينة، فيقدم بالخبر الذى فيه أحوال أهل المدينة، كقوله تعالى (ومن دخله كان آمنا)، مع قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى (١٧٨)﴾ (البقرة/١٧٨)، فإذا أمكن بناء كل واحدة من الآيتين على البدل جعل التخصيص فى قوله تعالى (ومن دخله كان آمنا) كأنه قال: إلا وجب عليه القصاص، ومثل قوله (لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم) ونهيه ﷺ عن قتل صيد مكة، قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤)﴾ (المائدة/٤)، فجعل النهى فيمن اصطاده فى الحرم، وخص من اصطاده فى الحل وأدخله حيا فيه.

الثالث: أن يكون أحد الظاهرين مستقلا بحكمه، والآخر مقتضيا لفظا يزاد عليه، فيقدم المستقل بنفسه عند المعارضة والترتيب، كقوله تعالى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ

مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) ﴾ (البقرة/١٩٦)، مع قوله (فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى)، وقد أجمعت الأمة على أن الهدى لايجب بنفس الحصر، ولى فيه صريح الإحلال بما يكون سببا له، فيقدم المنع من الإحلال عند المرض بقوله (وأتموا الحج والعمرة لله) على ما عارضه من الآية.

الرابع: أن يكون كل واحد من العمومين محمولاً على ما قصد به فى الظاهر عند الاجتهاد، فيقدم ذلك على تخصيص كل واحد منهما من المقصود من الآخر، كقوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) ﴾ (النساء/٢٣)، فتحمل الآية الجمع على العموم، والقصد فيها بيان ما يحل وما يحرم، وتحمل الآية الإباحة على زوال.

الخامس: أن يكون تخصيص أحد الاستعمالين على لفظ تعلق بمعناه والآخر باسمه، كقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ

كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ (١٠٦)﴾ (المائدة/١٠٦)، مع قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦)﴾ (الحجرات/٦)، فيمكن أن يقال في الآية بالتبين عند شهادة الفاسق، إذا كان ذلك من كافر على مسلم، أو مسلم فاسق على كافر، وأن يقبل الكافر على الكافر وإن كان فاسقا، أو يحمل ظاهر قوله (أو آخران من غيركم) على القبيلة دون الملة، ويحمل الأمر بالتثبت على عموم النسيان في الملة، لأنه رجوع إلى تعيين اللفظ وتخصيص الغير بالقبيلة، لأنه رجوع إلى الاسم على عموم الغير.

السادس: ترجيح ما يعلم بالخطاب ضرورة على ما يعلم منه ظاهرا، كتقديم قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥)﴾ (البقرة/٢٧٥)، على قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩)﴾ (الجمعة/٩)، فإن قوله (وأحل) يدل على حل البيع ضرورة. ودلالة على فساد البيع إما ألا تكون ظاهرة أصلا أو تكون ظاهرة منحطة عن النص.

المبحث الحادى عشر

المنطوق والمفهوم

علم المنطوق والمفهوم من علوم القرآن التى تتعلق بالفتوى واستنباط الأحكام الشرعية ولذلك يحتاج إلى القاضى والمفتى والداعية وهو من العلوم الدقيقة التى يندر أن يطرقها الكاتبون فى علوم القرآن.

والمنطوق فى إصطلاح علماء القرآن والأصوليين هو «المعنى المستفاد من اللفظ من حيث النطق به».

والمفهوم هو «المعنى المستفاد من حيث السكوت اللازم للفظ».

وبتعبير آخر: تنحصر دلالة اللفظ إذا وضع فى نوعين: من الدلالة يرتبط باللفظ ذاته حال النطق به وهذا هو المنطوق، ونوع آخر يفهم فهما من سياق الكلام دون لفظ دال عليه، وهذا هو المفهوم.

أقسام المنطوق:

وينقسم المنطوق إلى نوعين: نوع صريح وهو الدلالة الناشئة عما وضع اللفظ له. ونوع غير صريح وهو المعنى الذى يلزم من اللفظ دون تعبير صريح عنه. وهذا النوع من الدلالة يسمى عند الأصوليين دلالة الالترام وتنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: دلالة الاقتضاء:

مثل قوله تعالى ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ (يوسف/٨٢)، فالمعنى: اسأل أهل القرية وأصحاب العير لأن القرية والعير

لا يتأتى سؤالهما عقلا، فمفهوم اللفظ هنا يقتضى إضمار شيء آخر لفهم وهذا الشيء زائد عن اللفظ.

الثاني: دلالة الإشارة:

ومعناها استنباط دلالة من لفظ لم يوضع اللفظ فى أصله ليدل عليها مباشرة.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ﴾ (الأحقاف/١٥)، مع قوله جل جلاله ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ (لقمان/١٤)، فيستفاد من ذلك أن أقل مدة الحمل هى ستة أشهر، وهى دلالة إشارة ليم يقصد الوصول إليها من اللفظ ذاته.

ومنه قوله سبحانه وتعالى ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴾ (البقرة/١٨٧)، فإنه يدل على صحة صوم من أصبح جنبا. إذ إباحة الجماع إلى طلوع الفجر لا يتسع الوقت للغسل تستلزم كونه يصبح جنبا. ومن هذا يتبين دلالة الاية على صحة صوم من أصبح جنبا دلالة «إشارة» حيث لم يقصد ذلك قصدا أولياً.

ومنه ما رواه الإمام البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال خرج رسول الله ﷺ فى أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال يا معشر النساء تصدقن فإنى أريتكن أكثر أهل النار فقلن وبم يا رسول الله قال تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما

رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن قلن وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله قال أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل قلن بلى قال فذلك نقصان عقلها أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم (وفى رواية عبدالرحمن ابن أبى حاتم: تمكث إحداهن شطر عمرها لاتصلي) قلن بلى قال فذلك من نقصان دينها.

فهذا الحديث من حيث ظاهر عبارته سيق للدلالة على نقصان دين النساء عن الرجال. وفيه إشارة إلى أن أكثر مدة الحيض خمسة عشر يوماً، كما ذهب الشافعية واستنبطوا من العبارة التى ظاهرها (التنصيف) أن نصف الشهر تقضيه المرأة بلا صلاة ومعنى هذه الإشارة أن أيام الحيض لايمكن أن تزيد عن نصف الشهر مع أن هذا ليس الهدف الأصلى من الحديث.

وهذا معارض بما روى أبو أمامة الباهلى أن النبى ﷺ قال (أقل الحيض ثلاثة أيام ولياليها وأكثره عشرة أيام، وهذا دال بعبارته على أن أكثر مدة الحيض عشرة أيام فترجح دلالة العبارة على دلالة الإشارة لأنها مقصودة من السياق.

الثالث: دلالة التنبيه والإيماء:

ومعناها ألا يتوقف فهم اللفظ على شيء مقدر بل يقترن اللفظ بحكم مثل قوله ﷺ فيما رواه الإمام الترمذى عن بسرة بن صفوان أنه ﷺ قال من مس ذكره فلا يصل حتى يتوضأ.

تقسيم المنطوق:

وهناك من العلماء من يقسم المنطوق إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ النص: وهو ما يفيد بنفسه معنى صريحا لا يحتمل غيره كقوله تعالى ﴿فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ (١٩٦)﴾ (البقرة/١٩٦)، فإن وصف العشرة بكاملة قطع احتمال العشرة لما دونها مجازا. وقد نقل عن قوم من المتكلمين أنهم قالوا يندر النص جدا فى الكتاب والسنة. وقد رد عليهم إمام الحرمين (ت ٤٧٨هـ) فقال:

«لأن الغرض من النص الاستقلال بإفادة المعنى على القطع مع انحسام جهات التأويل والاحتمال، وهذا وإن عز حصوله بوضع الصيغ رداً إلى اللغة. فما أكثره مع القرائن الحالية ـ والمقالية».

٢ ـ الظاهر: وهو ما يسبق إلى الفهم منه عند الإطلاق معنى مع احتمال غيره احتمالا مرجوحاً، فهو يشترك مع النص فى أن دلالته فى محل النطق، ويختلف عنه فى أن النص يفيد معنى لا يحتمل غيره. والظاهر يفيد معنى عند الإطلاق مع احتمال غيره احتمالا مرجوحا، مثال ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥)﴾ (النحل/١١٥)، فإن لفظ «الباغى» يطلق على كل من :

* الباغى.
* الظالم.

ولكن إطلاقه على «الظلم» أغلب، وأظهر، إذن فهو إطلاق راجح، وإطلاقه على الباغى يعتبر إطلاقا مرجوحاً.

ونحو قوله تعالى ﴿وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ (البقرة/٢٢٢)، فإن انقطع

الحيض يقال له طهر والغسل يقال له طهر، ولكن دلالة الطهر على الغسل دلالة راجحة ودلالته على انقطاع الحيض. دلالة مرجوحة.

٣ ـ المؤول: هو ماحمل لفظه على المعنى المرجوح لدليل يمنع من إرادة المعنى الراجح كقوله جل جلاله ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢٤) ﴾ (الإسراء/٢٤)، فالمعنى الراجح وهو أن يكون للإنسان أجنحة حقيقية مستحيل عقلا. فمنطوق اللفظ هنا مؤول بمعنى أن المعنى المرجوح وهو الخضوع واحترام الوالدين هو المعنى المرادمن النص.

هذا فيما يتعلق بالمنطوق.

أما المفهوم: فهو مايدل على معنى لا من حيث النطق وهو ينقسم إلى قسمين:"

١ ـ *مفهوم الموافقة*: ومعناه أن يوافق المسكوت عنه المنطوق فى الحكم، والأصوليون يسمونه أحياناً لحن الخطاب أو فحوى الخطاب على تفرقة يسيرة بينهما أحياناً.

قال صاحب شرح الكوكب المنير:

«وشرطه، أى شرط مفهوم الموافقة فهم المعنى من اللفظ فى محل النطق وأنه ـ أى المفهوم ـ أولى من المنطوق أو مساو له. وبعضهم يسمى الأولوى بفحوى الخطاب والمساوى بلحن الخطاب.

فمثال الأولوي: ما يفهم من اللفظ بطريق القطع، كدلالة تحريم التأفيف على تحريم الضرب، لأنه أشد.

ومثال المساوى: تحريم إحراق مال اليتيم الدال عليه قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِين

يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً (١٠) ﴾ (النساء/١٠). فالإحراق مساو للأكل بواسطة الإتلاف فى الصورتين.

وقيل: إن الفحوى ما نبه عليه اللفظ، واللحن ما يكون محالا على غير المراد فى الأصل والوضع. فتحريم الضرب من قوله تعالى: ﴿ فلا تقل لهما أف (٢٣) ﴾ (الإسراء/٢٣)، من باب التنبيه بالأدنى - وهو التأفيف - على الأعلى، وهو الضرب.

وتأدية ما دون القنطار فى قوله تعالى: ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون (٧٥) ﴾ (آل عمران/٧٥)، من باب التنبيه بالأعلى - وهو تأدية القنطار - على الأدنى، وهو تأدية ما دونه. وهو - أى مفهوم الموافقة - حجة ودلالته لفظية على الصحيح.

وقد نص عليه الإمام أحمد واختاره أيضا الحنفية والمالكية وبعض الشافعية».

٢ - *مفهوم المخالفة*: هو ما يخالف حكمه المنطوق وله أربعة أشكال:

١ - مفهوم الصفة.

٢ - مفهوم الشرط.

٣ - مفهوم الغاية.

٤ - مفهم الحصر.

(أ) مفهوم الصفة: والمراد بها الصفة المعنوية، مثل أن تكون الصفة المعنوية:

١ - نعتا مثل قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين (٦) ﴾ (الحجرات/٦)، فمفهوم بـ

«فاسق» أن غير الفاسق لا يجب التبين والتثبت من خبره. فإن كان معروفاً بالعدالة والاستقامة فقد يكتفى بخبره ولايحتاج معه إلى تثبت.

٢ ـ أو حالاً مثل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥)﴾ (المائدة/٩٥)، فقوله «متعمدا»، حال، فمفهومه يدل على انتفاء الحكم على من قتل صيدا خطأ وهو محرم.

٣ ـ أو عددا، مثل قوله سبحانه وتعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤)﴾ (النور/٤)، فقوله «ثمانين» جلدة يدل على أن هذا العدد هو اللازم لحد القذف، ومعنى ذلك أن مفهوم العدد أنه، لايصح نقصان هذا العدد، ولا الزيادة عليه.

(ب) مفهوم الشرط: مثل قوله تعالى ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦)﴾ (الطلاق/٦). حيث يفهم من هذه الآية، ومن الشرط الذى فيها أن الأنفاق على غير الحوامل ليس واجباً على الزوج.

(جـ) مفهوم الغاية، مثل قوله سبحانه وتعالى ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ

وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) ﴾ (البقرة/ ٢٣٠)، فقوله «حتى تنكح» زوجاً غيره، غاية.

فمفهوم ذلك أن الذى يطلق زوجته للمرة الثالثة، لايحل له مراجعتها حتى تتزوج رجلاً آخر ويدخل بها، فإذا طلقها ذلك الرجل فيجوز للزوج الأول بعد ذلك أن يعقد عليها ويتزوجها.

(د) مفهوم الحصر: مثل قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾ (الفاتحة/ ٥)، فهذا يفيد قصر العبادة والاستعانة بالله تعالى وحده دون غيره،إذن فمهومه نفى العبادة والاستعانة بغير الله تعالى مهما كان ـ وهذا هو مفهوم الحصر.

حكم العمل بمفهوم المخالفة:

اختلف العلماء اختلافا كبيراً فى العمل بمفهوم المخالفة. وإن كانوا قد اتفقوا ـ إلى حد كبير ـ على العمل بمفهوم الموافق لوضوحه. وقد تناول الإمام ابن حزم الظاهرى فى الجزء السابع من كتابه القيم (الإحكام فى أصول الأحكام) هذه الخلافات وأوسعها مناقشة وبحثا وتفنيداً وسوف نوجز هنا ما نرى فيه ضرورة لهذا المبحث.

فقد نقلوا اتفاق المالكية والشافعية والحنابلة على العمل بمفهوم المخالفة ولم يعمل به الأحناف والظاهرية وغيرهم.

وقد استدل الجمهور الذى رأى العمل لمفهوم المخالفة بأدلة منها:

١ ـ ما رواه ابن جرير الطبرى فى تفسيره لقوله تعالى ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾ (التوبة/ ٨٠).

عن رسول الله ﷺ أنه حين نزلت هذه الآية، قال: «لأزيدن في الاستغفار لهم على سبعين مرة» رجاء منه أن يغفر الله لهم، فنزلت سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم.

وعن الشعبي، قال: دعا عبدالله بن عبدالله بن أبى بن سلول النبى ﷺ إلى جنازة أبيه،فقال له النبى ﷺ: «من أنت؟» قال: جباب بن عبدالله بن أبي. فقال له النبى ﷺ: «بل أنت عبدالله بن عبد الله بي أبى ابن سلول، إن الحباب هو الشيطان». فقال النبى عليه الصلاة والسلام: «إنه قد قيل لى استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، فأنا أستغفر لهم سبعين وسبعين وسبعين» وألبسه النبى ﷺ قميصه وهو عرق.

فهذا إعمال لمفهوم المخالفة كما فهمه رسول الله بادى الرأى أى كأنه ﷺ لو استغفر فوق السبعين فسيغفر لهم.

٢ - روى ابن جرير الطبرى أيضا فى تفسير قوله جل جلاله ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦) ﴾ (النساء/١٧٦).

قال أبو جعفر: فإن قال قائل: فما وجه قوله جل ثناؤه: *إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك* ولقد علمت اتفاق جميع أهل القبلة ما خلا ابن عباس وابن الزبير على أن الميت لو ترك ابنة وأختا أن لابنته النصف، وما بقى

فلأخته إذا كانت أخته لأبيه وأمه أو لأبيه؟وأين ذلك من قوله: إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وقد ورثوها النصف مع الولد؟ قيل إن الأمر فى ذلك بخلاف ما ذهبت إليه، إنما جعل الله جل ثناؤه بقوله إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك إذا لم يكن للميت ولد ذكر ولا أنثى وكان موروثا كلالة، فالنصف من تركته فريضة لها مسماة فأما إذا كان للميت ولد أنثى فهى مع عصبة يصير لها ما كان يصير للعصبة غيرها لو لم تكن وذلك غير محدود بحد ولا مفروض لها فرض سهام أهل الميراث بميراثهم عن ميتهم. ولم يقل الله فى كتابه: فإن كان له ولد فلا شيء لأخته معه، فيكون لما روى ابن عباس وابن الزبير فى ذلك وجه يوجه إليه،وإنما بين جل ثناؤه مبلغ حقها إذا ورث الميت كلالة وترك بيان مالها من حق إذا لم يورث كلالة فى كتابه وبينه بوحيه على لسان رسوله ﷺ فجلعها عصب مع إناث ولد الميت، وذلك معنى غير معنى وراثتها الميت إذا كان موروثاً كلالة.

فابن عباس منع توريث الأخت مع البنت لأنه فهم من توريث الأخت النصف - مع عدم الولد - امتناع ذلك الميراث مع البنت لأن البنت فى اللغة من الولد. بدليل قوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴿١١﴾﴾(النساء/١١).

٢ - أنه لو كان حكم الفاسق، وغير الفاسق فى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾ (الحجرات/٦)، واحداً فى وجوب التثبت لما كان لتخصيص الفاسق بالذكر فائدة، وهذا من الأدلة العقلية حيث لا يجيز العقل استواء الفاسق وغيره فى هذا الحكم.

شروط العمل بمفهوم المخالفة:

ولكن العلماء اشترطوا شروطا للعمل بمفهوم المخالفة لأن ترك الاستدلال به على إطلاقه يوقع المفتى والقاضى بل والمسلم العادى فى كثير من سوء الفهم.

فمن تلك الشروط:

١ ـ ألايكون المذكور خرج مخرج الغالب، فلا مفهوم للحجور فى قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٣) ﴾ (النساء/٢٣)، لأن الغالب كون الربائب فى حجور الأزواج.

٢ ـ ألا يكون المذكور لبيان الواقع، فلا مفهوم لقوله تعالى ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) ﴾ (المؤمنون/١١٧)، لأن الواقع أن أى إله لا برهان عليه، وقوله (لا برهان له) صفة لازمة جيء بها للتوكيد، والتهكم بمن يزعم وجود إله مع الله وليس معناها أن فى الآلهة المزعومة ما يجوز أن يقوم عليه برهان.

ومثل قوله جل جلاله ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) ﴾ (النور/٣٣)، فلا مفهوم له يدل على إباحة إكراه السيد لأمته على البغاء إن لم ترد التحصن، وإنما قال ((إن أردن تحصنا) لأن الإكراه لايتأتى إلا مع إرادة التحصن.

٣ ـ ألا يكون خرج مخرج تفخيم، كالحديث الذى رواه البخارى عن زينب بنت أبى سلمة قالت لما جاء نعى أبى سفيان من الشام دعت أم حبيبة رضى الله عنها بصفرة فى اليوم الثالث فمسحت عارضيها وذراعيها وقالت إنى كنت عن هذا لغنية لولا أنى سمعت النبى ﷺ يقول لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج فإنها تحد عليه أربعة أشهر وعشرا. فقيد الإيمان بالله واليوم الآخر للتفخيم فى الأمر، وأن هذا لايليق بمن كان مؤمنا.

٤ ـ ألا يكون اللفظ قد خرج جوابا لسؤال، بمعنى أنه إذا خرج اللفظ جوابا لسؤال لم يعمل بمفهومه، مثل أن يسأل النبى ﷺ: هل فى الغنم السائمة زكاة؟ فلا يلزم من جواب السؤال عن إحدى الصفتين أن يكون الحكم على الضد فى الأخرى، لظهور فائدة فى الذكر غير الحكم بالضد.

٥ ـ ألا يكون المنطوق قد ذُكر لزيادة امتنان على المسكوت عنه، مثل قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) ﴾ (النحل/١٤)، فلا يدل هذا النص على منع القديد من لحم مايؤكل مما يخرج من البحر كغيره.

٦ ـ ألا يكون المنطوق خرج لبيان حكم حادثة اقتضت بيان الحكم فى المذكور، كما روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن وعلة قال سألت ابن عباس قلت إنا نغزو هذا المغرب وأكثر أسقيتهم (أى الأوانى التى يشربون فيها) جلود الميتة قال فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول دباغها طهورها. كما روى الإمام البخارى عن عبد الله ابن أنس أن أنسا حدثه أن أبابكر رضى الله عنه كتب له هذا الكتاب لما وجهه إلى

البحرين بسم الله الرحمن الرحيم هذه فريضة الصدقة التى فرض رسول الله ﷺ على المسلمين والتى أمر الله بها رسوله فمن سئلها من المسلمين على وجهها فليعطها ومن سئل فوقها فلا يعط فى أربع وعشرين من الإبل فما دونها من الغنم من كل خمس شاه إذا بلغت خمسا وعشرين إلى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض أنثى فإذا بلغت ستا وثلاثين إلى خمس وأربعين ففيها بنت لبون أنثى فإذا بلغت ستا وأربعين إلى ستين ففيها حقة طروقة الجمل فإذا بلغت واحدة وستين إلى خمس وسبعين ففيها جذعة فإذا بلغت يعنى ستا وسبعين إلى تسعين ففيها بنتا لبون فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى عشرين ومائة ففيها حقتان طروقتا الجمل فإذا زادت على عشرين ومائة ففى كل أربعين بنت لبون وفى كل خمسين حقة ومن لم يكن معه إلا أربع من الإبل فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها فإذا بلغت خمسا من الإبل ففيها شاة وفى صدقة الغنم فى سائمتها إذا كانت أربعين إلى عشرين ومائة شاه فإذا زادت على عشرين ومائة إلى مائتين شاتان فإذا زادت على مائتين إلى ثلاث مائة ففيها ثلاث شياه فإذا زادت على ثلاثمائة ففى كل مائة شاه فإذا كانت سائمة الرجل ناقصة من أربعين شاه واحدة فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها وفى الرقة ربع العشر فإن لم تكن إلا تسعين ومائة فليس فيها شيء إلا أن يشاء ربها. ففى بعض روايات هذا الحديث - على ما رواه ابن النقار - قيل بحضرة النبى ﷺ: «لزيد غنم سائمة»، فقال «فى السائمة الزكاة». إذ القصد الحكم على تلك الحادثة لا النفى عما عداها.

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ (آل عمران/ ١٣٠)، فإنه ورد على ما كانوا يتعاطونه من الربا الأجل، بمعنى أن الدائن يقول للمدين إذا حل موعد السداد: إما

أن ترد القرض، وإما أن تزيد فى الفائدة وأصبر عليك. فيتضاعف بذلك مضاعفة كثيرة.

٧ ـ ألا يكون المنطوق ذكر لتقدير جهل المخاطب به دون جهله بالمسكوت عنه، كأن يكون المخاطب يعلم حكم المعلوفة ويجهل حكم السائبة فيذكر له.

٨ ـ ألا يكون المنطوق ذكر لرفع خوف ونحوه عن المخاطب، كقولك لمن يخاف من ترك الصلاة الموسعة «تركها فى أول الوقت جائز»، ليس مفهومه عدم الجواز فى باقى الوقت، وهكذا إلى أن يتضايق.

٩ ـ ألا يكون المنطوق علق حكمه على صفة غير مقصودة، فإن الصفة إذا كانت غير مقصودةفلا مفهوم، كقوله تعالى ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)﴾ (البقرة/٢٣٦)، أراد نفى الحرج عمن طلق ولم يمس وإيجاب المتعة تبعا لذلك.

١٠ ـ ألا يعود العمل به على الأصل ـ الذى هو المنطوق فيه ـ بالإبطال، كالحديث الذى رواه النسائى عن حكيم بن حزام قال سألت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله يأتينى الرجل فيسألنى البيع ليس عندى أبيعه منه ثم أبتاعه له من السوق قال لا تبع ما ليس عندك، ففى مثل هذه الحالة لايقال: مفهومه صحة بيع الغائب إذا كان عنده.

تنبيه:

ويحسن هنا التنبيه إلى أن غالبية أخطاء من يزعمون أنهم مجتهدون فى عصرنا

هذا مرجعها إلى عدم التعمق فى هذا العلم من علوم القرآن بمعنى عدم قدرتهم على التمييز بين الأنواع المختلفة لكل من المنطوق والمفهوم،وتسرعهم فى أعمال مفهوم المخالفة.

المبحث الثانى عشر

الناسخ والمنسوخ

يطلق النسخ فى اللغة على معانى تدور بين النقل والإبطال والإزالة، يقولون نسخ زيد الكتاب إذا نقله إلى كتاب آخر، ونسخ النحل إذا نقله من خلية إلى أخري. ويقولون نسخ الشيب الشباب إذا أزاله وحل محله، ونسخت الشمس الظل إذا أذهبته وحلت محله، وقال صاحب تفسير المنار:

«إن أصل الناسخ النقل سواء كان نقل الشيء بذاته، كما، يقال «نسخت الشمس الظل»، أى نقلته من مكان إلى مكان، أو نقل صورته كما يقال «نسخت الكتاب» إذا نقلت عنه صورة مثل الأولي، وورد «نسخت الريح الأثر» أى ازالته. وأصل النسيان الترك أو هو غايته اللازمة له، ومنه قوله تعالى ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)﴾ (طه/١٢٦)، أى تركتها بترك العمل بها فجزاؤك أن تترك فى العذاب».

ويقصد بالنسخ فى الإصطلاح: رفع الحكم الشرعى بدليل شرعى متراخ عنه. ومن هذا التعريف. يتبين أنه لابد فى تحقيق النسخ من أمور أربعة:

١ - أن يكون المنسوخ حكماً شرعياً.

٢ - أن يكون دليل رفع الحكم دليلاً شرعياً.

٣ - أن يكون هذا الدليل متراخيا عن دليل الحكم الأول غير متصل به.

٤ - أن يكون بين هذين الدليلين تعارض حقيقى.

ومن أمثلة ذلك:

١ ـ نسخ الحكم بوجوب تقديم صدقة قبل مناجاة رسول الله ﷺ الذى جاء بقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ (المجادلة/١٢)، نسخ هذا الحكم بقوله تعالى ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ﴾ (المجادلة/١٣).

٢ ـ كذلك نسخ الحكم بوجوب الوصية للوالدين والأقربين الذى جاء بقوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) ﴾ (البقرة/ ١٨٠)، نسخ بآيات المواريث التى بينت نصيب الأب والأم والأخوة والأخوات والأقرباء بحسب قرابتهم.

وهذا العلم من علوم القرآن المهمة التى تتعلق بها الفتوى ولذلك قال الإمام الفيروز أبادى فى «بصائر ذوى التمييز»:

«اعلم أن معرفة الناسخ والمنسوخ باب عظيم من علوم القرآن ومن أراد أن يخوض فى بحر التفسير فرض عليه الشروع فى طلب معرفته، والاطلاع على أسراره، ليسلم من الأغلاط، والخطأ الفاحش، والتأويلات المكروهة. وأما وجوب معرفة الناسخ والمنسوخ فقال ابن عباس: من لم يعرف الناسخ والمنسوخ خاط الحلال بالحرام، وقال رسول الله ﷺ فيما أخرجه الترمذى بسنده عن صهيب) (ما آمن بالقرآن من استحل محارمه) ولما رأى على) عبد الله بن دأب فى مسجد الكوفة

وهو يجيب عن المسائل، فقال له: هل تعرف الناسخ من المنسوخ. قال: لا، قال: فما كنيتك؟ قال: أبو يحى. قال أنت أبو اعرفونى بالجهل، ثم أخذ بأذنه، وأقامه من مجلسه، قال: لايحل لك رواية الحديث فى هذا المسجد، ولا الجلوس فى مثل هذا المجلس حتى تعلم الناسخ من المنسوخ.

جواز وقوع النسخ وعدم جوازه:

للعلماء فى جواز وقوع النسخ أو عدم جوازه ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول: أنه جائز عقلا وواقع سمعا، وعليه إجماع المسلمين من قبل أن يظهر أبو مسلم الأصفهانى ومن شايعه - وعليه إجماع النصاري، ولكن من قبل هذا العصر الذى انتهى فيه - وهو كذلك رأى «العيسوية» وهم طائفة من طوائف اليهود. ولكنهم منعوا أن تكون شريعتهم منسوخة بشريعتنا.

المذهب الثانى: أن النسخ ممتنع عقلا وسمعا، وإليه جنح النصارى جميعا فى هذا العصر وبهذه الفرية يقول «الشمعونية» وهم طائفة ثانية من اليهود.

المذهب الثالث: أن النسخ جائز عقلا ممتنع سمعا، وبه تقول «العنانية» وهى الطائفة الثالثة من طوائف اليهود. ويعزى هذا الرأى إلى أبى مسلم الأصفهانى من المسلمين ولكن على اضطراب فى النقل عنه، والصحيح أنه لاينكر مسمى النسخ،وإنما ينكر اسم النسخ فقط، فلذا سماه تخصيصاً. وعلى ذلك فخلافه من الجمهور خلاف لفظي.

أدلة جواز النسخ عقلاً:

يستند الجمهور فى جواز النسخ عقلا إلى أن أحكام الله كانت تابعة لمصلحة

العبد ـ كما يقول المعتزلة ـ فلا يمتنع أن يعلم الله استلزام الأمر بالفعل فى وقت معين للمصلحة، واستلزام النهى عنه للمصلحة فى وقت آخر، لأن المصالح تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان.

وإذا عرف جواز اختلاف المصلحة باختلاف الأزمان والأحوال فلا يمتنع أن يأمر الله تعالى مكلفاً بالفعل فى زمان لعلمه لمصلحة فيه، وينهاه عنه فى زمن آخر لعلمه بمصلحة أخرى جديدة فى تركه، كما يفعل الطبيب بالمريض حيث يأمره باستعمال الدواء فى وقت وينهاه عنه فى وقت آخر. وكما يفعل الوالد بولده فى التأديب، والمعلم بتلميذه للتهذيب.

وإذا اعتقدنا أن الأحكام لاتتبع المصالح ـ كما يقول أهل السنة ـ لأنه لا يجب على الله تعالى لعباده شيء بل هو سبحانه وتعالى الفاعل المختار،وله بناء على اختياره ومشيئته أن يأمر عباده بمايشاء وينهاهم عما يشاء، وأن يبقى من أحكامه على ما يشاء، وأن ينسخ منها ما شاء.

إذا تقرر هذا، فالنسخ تصرف فى التشريع من الفاعل المختار، الذى يجب عليه رعاية مصالح عباده فى تشريعه، وإن كان تشريعه لايخلو من حكمة، وكلما كان كذلك لامحظور فيه عقلا، أى لا مانع من وقوعه عقلا.

* ثم إن النسخ لو لم يكن جائزا عقلا لما ثبتت رسالة سيدنا محمد ﷺ إلى الناس كافة، لكن رسالته العامة للناس ثابتة بالأدلة القاطعة ومنها:

أ ـ دليل الملازمة: فلو لم يجز النسخ لكانت الشرائع السابقة باقية، وذلك يستلزم عدم ثبوت رسالته ﷺ.

ب ـ دليل الاستثنائية: أن رسالته ﷺ قد أقامت الأدلة العقلية القطعية على ثبوتها وعمومها، وكل ما كان كذلك فقد ثبت. وإذا كانت رسالته ثابتة والشرائع السابقة ليست باقية، فالنسخ جائز.

وليس لأحد أن يقول: إن ثبوت رسالته ﷺ دليلٌ على نسخ الشرائع السابقة. بل قد يجوز أن يكون ذلك بسبب انتهاء أمد الشرائع السابقة. لأننا نقول أولا: انتهاء أمد الشرائع السابقة هو نسخها ـ وكفى بذلك دليلا على جواز النسخ ـ ثانياً: أن اليهود والنصارى لا يقولون بانتهاء أمد شرائعهم وليس عندهم نص صريح يدل على ذلك. لذلك وجب إثبات نسخ شرائعهم بالدلائل العقلية، والنقلية، وعلى ذلك فالنسخ جائز وواقع.

أدلة جواز النسخ ووقوعه سمعاً:

الأدلة السمعية على جواز النسخ ووقوعه نوعان:

أحدهما: تقوم بالحجة على منكرى النسخ من اليهود والنصاري، من غير توقف على إثبات نبوة الرسول لهم.

والآخر: تقوم به الحجة عمن آمن بنبوته ﷺ كأبى مسلم الأصفهانى من المسلمين، وكالعيسوية من اليهود، فإنهم يعترفون برسالته ﷺ، ولكن يقولون إنها إلى العرب خاصة، وهؤلاء يمكن الرد عليهم بأنهم متى أسلموا برسالته وجب أن يصدقوه فى كل ما جاء به، ومن ذلك عموم دعوته.

أما النوع الأول من الأدلة: وهو ما تقوم به الحجة على منكرى النسخ من اليهود والنصارى من غير توقف على إثبات نبوة الرسول لهم، فمن ذلك:

١ ـ جاء فى التوارة أن الله تعالى قال لنوح عند خروجه من السفينة: إنى جعلت

كل دابة حية مأكلا لك ولذريتك، وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب، ما خلا الدم فلا تأكلوه.. وتذكر التوارة بعد ذلك أن الله حرم كثيرا من الدواب على أصحاب الشرائع من بعد نوح ومنهم موسى نفسه.

٢ ـ جاء فى التوارة: أن آدم كان مأمورا بتزويج الأخت للأخ من بطنين مختلفتين تنزيلاً لاختلاف البطون منزلة اختلاف الأنساب. وقد حرم الله ذلك باتفاق منا ومن اليهود النصاري.

٣ ـ أن عمل الدنيا كان مباحا يوم السبت ـ ومنه الاصطياد ـ ثم حرم الله الاصطياد على اليهود باعترافهم.

٤ ـ أنهم نقلوا عن عيسى فى إنجيل متى أنه قال: «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» فهذا يدل على أن رسالة عيسى رسالة محلية خاصة بالإسرائيليين، ثم نقلوا عن عيسى نفسه فى إنجيل مرقس أنه قال: «اذهبوا إلى العالم أجمع، واذكروا الإنجيل للخليقة كلها «فإذا أحسنا النية بالإنجيلين كان لا مناص لنا من القول بنسخ النص الأول بالثانى، وإلا فإن النصين يتناقضان ويتساقطان، ويسقط بسقوطهما الإنجيلان، بل تسقط الأناجيل كلها لأنها متماثلة.

وأما النوع الثانى من الأدلة: وهو ما تقوم به الحجة على من خالف من المسلمين كأبى مسلم ـ على ما ينقل عنه ـ فكثيرة منها:

١ ـ قوله تعالى ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (البقرة/١٠٦)، فإنه يفهم منها، أن كل آية يذهب بها الله تعالى على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من إزالة لفظها أو حكمها أو كليهما

معا - إلى بدل أو إلى غير بدل - فإنه سبحانه وتعالى يأتى عباده بنوع آخر هو خير لهم من الآية الذاهبة أو مثلها.

٢ - قوله تعالى ﴿ يَمْحُو اللَّهُ ما يشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾ (الرعد/٣٩)، ومعناه أن الله يغير ما يشاء من شرائعه وخلقه، على وفق علمه وإرادته وحكمته، وعلمه سبحانه وتعالى لايتغير ولايتبدل إنما التغير فى المعلوم لا فى العالم - والنسخ تبديل فى المعلوم لا فى العالم - لأنه بيان انتهاء الحكم الشرعى كما قررنا.

٣ - قوله تعالى ﴿ وإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) ﴾ (النحل/١٠١)، والتبديل يتألف من رفع لأصل وإثبات لبدل، وذلك هو النسخ. والآيات الثلاثة جاءت فى مقام الرد على طعن الطاعنين على الإسلام ونبى الإسلام بوقوع النسخ فى القرآن وفى الشريعة المطهرة. وكفى ذلك حجة على جواز النسخ ووقوعه.

٤ - قوله تعالى ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) ﴾ (النساء/١٦٠)، ووجه الدلالة فى الآية أنها تفيد تحريم ما أحل من قبل، وما ذلك إلا نسخ، وكلمة (أحلت لهم) يفهم منها أن الحكم الأول كان حكما شرعيا لا براءة أصلية.

٥ - أن سلف الأمة من الصحابة والتابعين قد أجمعوا على أن شريعة رسولنا ﷺ ناسخة لجميع الشرائع السابقة، وأجمعوا على نسخ وجوب التوجه لبيت المقدس باستقبال الكعبة، وعلى نسخ الوصية للوالدين والأقربين بآية المواريث، وعلى نسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان، إلى غير ذلك وهو كثير.

وقد ناقش الشيخ الدكتور محمد سعاد جلال رحمه الله أدلة منكرى النسخ فقال:

«تعترف الفرق المسيحية كلها بجواز النسخ، والمسلمون أجمع يقولون بجواز النسخ وصحته، عقلا وسمعا، وطائفة جوزت إمكانه عقلا ومنعت وقوعه سمعا، وطائفة ثالثة سوغت إمكانه عقلا واعترفت بوقوعه سمعا، على مثل ما يقوله عامة المسلمين. ويقول كتاب الأصول: وهذه الطائفة وتسمى العيسوية تؤمن بصحة نبوة سيدنا محمد ﷺ، لكن ترى أنه مبعوث إلى العرب خاصة.

ويضاف إلى جماعة القائلين بمنع النسخ إن أمكن اسم أبى مسلم الأصفهانى من بين المسلمين، فإنه لا يجوز النسخ فى شريعة واحدة، ويمنع وقوع النسخ فى القرآن.

وقد عنينا بالنص على استبعاد اسم أبى مسلم من نطاق الخلافات فى هذا الموضوع، لأن علماء المسلمين لا يعتدون بخلافه بينهم، ويصرح الإمام «البروذي» بقوله: النسخ فى أحكام الشرع جائز صحيح عند المسلمين أجمع ويعلق على هذه العبارة شارحه بما يفيد أن نص الإمام على أن نسبة القول بإجازة النسخ وصحته إلى المسلمين أجمع، مع وجود من أنكر النسخ منهم، كأبى مسلم المذكور، معناه عدم الاعتداد بمثل هذا المخالف، ويصرح بأنه لايعتبر مسلما حقيقياً، فمن ثم لن ينخدش به الإجماع، وإن كان ممن انتحل الإسلام.

نعم نحن نرى أن هذا القول تغليظ شديد على من ينكر النسخ، إذا لم يعرف أساس فكرته بالضبط، ولكن دلالته لاتخفى على استقرار فكرة النسخ فى الشريعة عند المسلمين.

والشبهة الأساسية التى يتعلق بها اليهود فى منع القول بإمكان النسخ هى أن النسخ من قبيل البداء، والبداء على الله محال، فما هو البداء؟

البداء فى أصل الله: الظهور بعد الخفاء، يقال بدا سور المدينة بعد أن كان خافيا، ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) ﴾ (الزمر/٤٧)، أى ظهر لهم من عاقبة أمرهم فى الآخرة ماكان خافيا عليهم فى الدنيا.

قالوا: إن الأمر بالشيء يدل على حسن المأمور به، والنهى عن الشيء يدل على قبح المنهى عنه. فإذا أمرنا الله بشيء كان ذلك الشيء المأمور به حسنا وصالحا، فإذا عاد ونهانا عنه بذاته بعد ذلك، كان ذلك النهى دليلا على أن ذلك الفعل الذى كان قد أمرنا به فى الماضى لم يكن حسنا ولاصالحا وإنما كان قبيحا، وفاسدا، وأن قبحه وفساده كان خافيا على الله فى أول الأمر حين أمر بفعله، ثم بدا له بعد ظهور قبحه وفساده فعمد إلى النهى عنه: فهذا هو البداء، وهو يستلزم إدخال النقص على علم الله ووصفه بالجهل بعواقب الأمور، فما أدى إليه من النسخ يكون باطلا وممنوعا.

وقد كان الجواب عن هذه الشبهة حاضرا ميسورا عند علماء المسلمين: ذلك أن لخصوصية الزمان أثرا فى حسن الأشياء وقبحها بالنسبة للمكلفين: فقد يكون الشيء حسنا بالنسبة للمكلف فى زمان وصالحا له، فيأمره الله به، ثم يكون نفس الشيء فى زمان آخر بالنسبة للمكلف شرا وفسادا فينهى الله عنه،وقد يكون من أوضح الأمثلة على ذلك فى تصرفات الناس اليوم: الرياضة البدنية، مثل: الكرة والمصارعة، وحمل الأثقال، فإن هذه الأنواع من الرياضة قد تكون حسنة وصالحة فى زمان الفتوة والشباب، فيأمر بها الآمر، ثم يكون مزاولة بعضها عند تقدم السن وضعف القلب، هلاكا محققا فينهى عنها، وليس بين أمره ونهيه سبيل إنكار العقول، فكيف إذا صدر مثل ذلك من الحكيم الخبير؟

فقد ظهر لكم أن الشبهة التى تعلق بها اليهود فى إنكارالنسخ،وقد يتعلق بها غيرهم ليست شيئا يصح التعلق به.

وأما أبو مسلم فالحق أن فلسفته وأدلته لم تنقل إلينا، وإنما نقل إلينا جانب من تطبيقات مذهبه فقط، وليس من المحتمل فى نظرنا أنه قد كان لهذا الرجل فى إنكار النسخ فلسفة مقبولة، ولا أدلة صحيحة، لأن استقرار رأى الأمة على وقوع النسخ فى القرون الثلاثة الأولي، ثم متابعة العلماء على هذا الرأى فى القرون من بعد ذلك، يجعل من الصعب إمكانية وجود أدلة أو فلسفة تصور واقع الشريعة على غير ما أدركه علماء الأمة قاطبة، ولاسيما بعد أن ظهر من مخالفة أبى مسلم لهم ما من شأنه أن ينبههم على احتمال الخطأ، ويثيرهم إلى طلب الحقيقة، ومع ذلك فإن خلاف أبى مسلم لم يجد من واقع الشريعة، فى أمر النسخ مكانا يحمل العلماء على تعديل رأيهم أو بعض رأيهم، أو حتى على محاولة التوفيق بينهم وبينه فى أمر يلتقون عنده، وإنه لبعيد جدا - من أجل ذلك - أن تفترض أنه كان لأبى مسلم فلسفة صحيحة، أو حجج مقبولة غابت عنا. وأقصى مانجد فى الباب، أنهم ذكروا حجة الجانب الذى يتجه إليه. وهى قوله تعالى فى وصف القرآن الكريم ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ (فصلت/٤٢).

قالوا عنه فى تقرير هذه الحجة: إن النسخ إبطال لحكم القرآن، والقرآن منزه عن الإبطال فلا نسخ له، والسنة كالقرآن فى وجوب التنزه عن الإبطال لعدم القول بالفصل بينهما، فلا نسخ فيها أيضا.

وليس الأمر كما قال صاحب هذا القول - فمعنى الآية أن هذا الكتاب العزيز منزه عن وقوع الخطأ فيه من جميع أقطاره، وعامة جوانبه وأحكامه، وأخباره وبلاغته فلا يتناوله الخطأ من وجه.

والنسخ ليس من قبيل الخطأ، ولا من قبيل الإبطال لأحكام القرآن وهي قائمة على تقريرها وعملها، وإنما هو من قبيل البيان لأحكامه، والإعلام بانتهاء مدة بعضها لتحل محلها أحكام غيرها - كما قلنا ذلك - في أثناء البحث مرارا، وكذلك شأن السنة فلم يسند إذن لأبي مسلم في الاستدلال على مذهبه شيء يمكن النظر إليه».

أدلة النسخ في القرآن الكريم:

من أظهر أدلة النسخ في القرآن الكريم:

- قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) ﴾ (البقرة/١٠٦)، المراد بالآية هنا الآية القرآنية، وإلى ذلك ذهب عامة المفسرين، وعلماء الأصول والمراد بالنسخ: الإزالة أو التبديل. والمراد لفظ «ننسها» في أقرب التفاسير أحد معنيين: إما ذهابها عن الذكر،وإما تركها على موضعها.

ويكون بيان الآية على المعنى الأول كما ذهب إليه الحسن والأصم وأكثر المتكلمين: ما ننسخ من آية وأنتم تقرءونه أو ننسها - أي نذهب بها عن أذهانكم مما كنتم تتداولون قراءته فيما بينكم - نأت بخير منها أو مثلها.

ويكون بيان الآية على المعنى الثاني حين نفسر النسخ بالتبديل، والإنساء بالترك، ما نبدل من آية على وجه من وجوه التبديل، أو نقرها في مكانها نأت، بخير منها أو مثلها.

والمراد بالخير على الوجهين في الآية - على ما نختار- هو ما كان أكثر مصلحة

للمكلف، سواء أكان أخف أو أثقل من الأحكام، لأن الله يصرف المكلف فى أنواع التكاليف، على حسب ما يرى له من المصلحة، لا بحسب هوى المكلف وداعية نفسه.

وبيان الآية على هذا الوجه المستقيم - كما ذهب إليه جمهور المفسرين والأصوليين - حجة تامة فى إثبات النسخ جوازا ووقوعا.

وقد ذهب الشيخ محمد عبدة مذهبا آخر فى تفسير هذه الآية حيث رأى أن لفظ «الآية» ينصرف إلى المعجزة. قال صاحب تفسير المنار نقلا عن الشيخ محمد عبده: «قال الأستاذ محمد عبده هذا تقرير ما جرى عليه المفسرون فى الآيات، وإذا وازنا بين سياق آية (ما ننسخ من آية) وآية (وإذا بدلنا آية مكان آية) نجد أن الأولى ختمت بقوله تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) والثانية بقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) ﴾ (النحل/١٠١)، ونحن نعلم شدة العناية فى أسلوب القرآن بمرعاة هذه المناسبات، فذكر العلم والتنزيل ودعوى الافتراء فى الآية الثانية يقتضى أن يراد فيها آيات الأحكام.

وأما ذكرها والتقرير بها فى الآية الأولى فلا يناسب موضوع الأحكام ونسخها، وإنما يناسب هذا ذكر العلم والحكمة فلو قال: (ألم تعلم أن الله عليم حكيم) لكان لنا أن نقول إنه أراد نسخ آيات الأحكام لما اقتضته الحكمة من انتهاء الزمن أو الحال التى كانت فيها تلك الأحكام موافقة للمصلحة، وقد تحير العلماء فى فهم الإنساء على الوجه الذى ذكروه حتى قال بعضهم: إن معنى (ننسها) نتركها على ماهى عليه من غير نسخ وأن ترى أن هذا وإن صح لغة لا يلتئم مع تفسيرها، إذ لا معنى

للإتيان بخير منها مع تركها على حالها غير منسوخة، والمعنى الصحيح الذى يلتئم مع السياق إلى آخره أن الآية هنا هى ما أيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم أى (ما ننسخ من آية) نقيمها دليلا على نبوة نبى من الأنبياء أى نزيلها ونترك تأييد نبى آخر بها، أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها فإننا بما بنا من القدرة الكاملة والتصرف فى الملك نأتى بخير منها فى قوة الإقناع وإثبات النبوة أو مثلها فى ذلك. ومن كان هذا شأنه فى قدرته وسعة ملكه فلا يتقيد بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه، والآية فى أصل اللغة هى: الدليل والحجة والعلامة على صحة الشى، وسميت جمل القران آيات لأنها بإعجازها حجج على صدق النبى ﷺ، ودلائل على أنه مؤيد فيه بالوحى من الله عز وجل، من قبيل تسمية الخاص بالعام.

ولقد كان من اليهود من يشكك فى رسالته ﷺ بزعمهم أن النبوة محتكرة لشعب إسرائيل، ولقد تقدمت الآيات فى تفنيد زعمهم هذا وقالوا ﴿ لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ (القصص/٤٨)، أى من الآيات،فرد الله تعالى عليهم فى مواضع منها قوله عز وجل بعد حكاية قولهم هذا ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴿٤٨﴾ ﴾ (القصص/٤٨) ومنها هذه الآيات، والخطاب فيها للمؤمنين الذين كان اليهود يريدون تشكيكهم كأنه يقول:

إن قدرة الله تعالى ليست محدودة ولامقيدة بنوع مخصوص من الآيات أو بآحاد منها لا تتناول غيرها، وليست الحجة محصورة فى الآيات السابقة لاتتعداها، بل إن الله قادر على أن يأتى بخير من الآيات التى أعطاها موسى وبمثلها، فإنه لا يعجز قدرته شىء، ولا يخرج عن ملكه شىء، كما أن رحمته ليست محصورة فى شعب

واحد فيخصه بالنبوة ويحصر فيه هداية الرسالة، كلا إن رحمته وسعت كل شيء، كما أن قدرته تتصرف بكل شيء من ملك السماوات والأرض الذى لا يشاركه فيه مشارك، ولا ينازعه فيه منازع، فيكون وليا ونصيرا لمن كفر بنعمه وانحرف عن سننه.

انظر كيف أسفرت البلاغة عن وجهها فى هذا المقام فظهر أن ذكر القدرة وسعة الملك إنما يناسب الآيات بمعنى الدلائل دون معنى الأحكام الشرعية والأقوال الدالة عليه من حيث هى دالة عليها لا من حيث هى دالة على النبوة. ويزيد هذا سفورا ووضوحا قوله عقبه ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ (١٠٨) ﴾ (البقرة/١٠٨)، فقد كان بنو إسرائيل لم يكتفوا بما أعطى موسى من الآيات وتجرءوا على طلب غيرها، وقالوا ﴿ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ﴾ (البقرة/٥٥)، وكذلك كان فرعون وقومه كلما رأوا آية طلبوا غيرها حتى رأوا تسع آيات بينات ولم يؤمنوا، وقوله تعالى (كما سئل موسى) يشمل كل ذلك.

قد أرشدنا الله تعالى بهذا إلى أن التفنن فى طلب الآيات، وعدم الإذعان لما يجيء به النبى منها والاكتفاء به بعد العجز عن معارضته هو دأب المطبوعين على الكفر الجامدين على المعاندة والمجاحدة، فإنه قال بعد إنكار هذا الطلب (ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل) ويوضح هذا قوله تعالى فى آية أخرى ﴿ وما منعنا أن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وما نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (٥٩) ﴾ (الإسراء/٥٩)، والمراد الآيات المقترحة، بدليل السياق، وهو اتفاق بين المفسرين، ولو كان الموضوع موضوع طلب استبدال أحكام

بأحكام تنسخها لما كان للتوعد بالكفر وجه وجيه. وقوله تعالى (فقد ضل سواء السبيل) معناه أنه أخطأ وسط الجادة ومال إلى أحد الجانبين، ومتى انحرف السائر في سيره عن الوسط يخرج عن المنج ويبعد عنه كلما أوغل في السير فيهلك دون الوصول إلى المقصد. والمراد بسواء السبيل: الحق والخير واللذان تكمل الفطرة بالاستقامة على السير في طريقهما، ومن مال عن الحق وقع في الباطل لا محالة ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) ﴾ (يونس/٣٢).

هذا هو التفسير الذى تتصل به الآيات، ويلتئم بعضها مع بعض على وجه يتدفق بالبلاغة، وهو الذى يتقبله العقل ويستحليه الذوق إذ لا يحتاج إلى شيء من التكلف في فهم نظمه ولا في توخيه مفرداته كالإنساء والقدرة والملك، وقد اضطر القائلون بأن المراد بالنسخ نسخ الأحكام - مع ما عرفت من التكلف - إلى القول بجواز نسيان الوحي، وطفقوا يلتمسون الدلائل على ذلك، حتى أوردوا قوله عز وجل ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ (٢٤) ﴾ (الكهف/٢٤)، وليس من هذا الموضوع ولا المخاطب به النبي ﷺ، وإنما جاء على طريق الحكاية، وأما قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ (٧) ﴾ (الأعلى٦/٧)، فهو يؤكد عدم النسيان لأن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار، كما في قوله تعالى ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾ (هود/١٠٨)، أي غير مقطوع. وقوله ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ... إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ (١٨٨) ﴾ (الأعراف/١٨٨)، والنكتة في الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى بطبيعتها في نفسها ولو شاء الله تعالى أن يغيره لفعل، وهذا الاعتقاد من مهمات الدين، فلا غرو أن تزاح

عنه الأوهام فى كل مقام يمن أن تعرض فيه، فليس امتناع نسيان الوحى طبيعة لازمة للنبى، وإنما هو تأييد ومنحة من الله تعالى، وليس خلود أهل الجنة واجب عقلى أو طبيعى، إنما هو بإرادة الله تعالى ومشيئته.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (أو ننسأها) أى نؤخرها، ولا يظهر هذا المعنى فى مقام نسخ الأحكام كما يظهر فى نسخ الآيات والمعجزات المقترحة على الأنبياء فإن الآية التى تقترح على نبى لأنها كانت لنبى قبله قد تنسخ بآية جديدة خير منها أو مثلها، وقد تؤخر بالآية الجديدة، ثم تعطى فى وقت آخر بعد الاقتراح، ولكن تأخير آيات الأحكام ليس معنى ظاهراً».

وقد رد العالم الأصولى الشيخ الدكتور محمد سعاد جلال رحمه الله على ما ذهب إليه الأستاذ الإمام محمد عبده واستند فى رده إلى ما ورد فى أسباب نزول هذه الآية فقال إن ما ذهب إليه الشيخ محمدعبده فى قوله بعيد عن المعنى المتبادر للفظ الآية حتى قال بعضهم: إن الآية حين تذكر فى القرآن يراد بها عرفا الآية القرآنية. وإن سبب النزول الذى نزلت عليه الآية قاض بعدم ترجيح معنى للآية غير مدلول الاية القرآنية.

ذلك أن السبب فى نزول الآية كما نص علماء التفسير هو طعن اليهود على النبى ﷺ فى أمر النسخ، قالوا: (ألا ترون إلى محمد يأمرهم ثم ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولا يرجع عنه؟) فنزلت الآية، إذن فقد كان موضوعها يمثل حالة واقعة.

والآية إذا وردت على سبب من أسباب النزول لايجوز اطراح سبب نزولها فى فهم معناها كما أنه لايجوز رفض سبب النزول بغير حجة ظاهرة، لأن الأصل فى

أسباب النزول وغيرها مما ينقله لنا أهل العلم الموثوق بهم، الصحة والقبول حتى يقوم دليل على رفضها، ولو جاز لنا أن رفض رواية من هذه الروايات التى ينقلها إلينا أهل العلم بالتشهى ومخالفة المزاج، لرفضنا كثيرا من النقول الدينية المعتبرة.

وأما الآية الثانية فهى أقطع نص يكون فى الدلالة على غرض، قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ﴾ (النحل/١٠١، ١٠٢).

وسبب نزل الآية ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان إذا نزلت آية فيها شدة، ثم نزلت آية فيها لين، تقول كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر بأصحابه: اليوم يأمر بأمر وغدا ينهى عنه،وأنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه، فأنزل الله قوله تعالى:

(وإذا بدلنا آية مكان آية).

ويلاحظ أن ذلك كان فى مكة، وأن وقائع النسخ قد بدأت فى مكة أيضا كما نبه على ذلك الإمام الشاطبى:

التبديل معناه: رفع الشىء مع وضع غيره محله، وتبديل الآية رفعها ووضع غيرها مكانها وهو النسخ، ويستحيل أن يكون معنى «الآية» فى هذا الموضع غير الآية القرآنية من قبل تسعة أوجه:

أولاً: سبب النزول كما قدمنا.

ثانياً: التبادر الهاجم على النفس الذى ينكره من نفسه كل عالم باللغة.

ثالثاً: دلالة قوله حكاية عنهم: «إنما أنت مفتر». فإن الظاهر من معنى الافتراء أنه لايكون متعلقا إلا بما هو من جنس الكلام، ولا يعقل أن يكون الافتراء متعلقا بالآيات إذا فسرت الآية بالمعجزة. ويساعدنا على ذلك الاستعمال المستمر فى القرآن،وفى كلام العرب، كقوله:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُون (٢١) ﴾ (الأنعام/٢١).

رابعاً: قوله تعالى ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ﴾ (النحل/١٠٢).

فإن المعروف عن روح القدس أو الروح المقدس وهو جبريل، أنه كان ينزل بالآيات القرآنية، بدلالة نص القرآن فى موضع آخر:

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) ﴾ (الشعراء/١٩٣/١٩٤/١٩٥).

خامساً: دلالة الآية اللاحقة لهذه الآية مباشرة وهى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ (النحل/١٠٣). فإن هذا السياق يدل على وحدة الموضوع، وأن طعن قريش على النبى إنما كان يتناول مادة القرآن من حيث مصدره ومن حيث أغراضه، فلا محل لدلالة «الآية» على غير الآية الكلامية فى هذا السياق.

سادساً: ومن ناحية أخرى فلا يساعدنا الواقع التاريخى على أن النبى ﷺ كان يأتى بالآيات بمعنى المعجزات، ثم يبدلها فيرفع معجزة ويحل محلها معجزة أخرى،بل كان سنة القرآن أن يعلق فى وجه السائلين باب الاستجابة لتنزيل الآيات الكونية، وقد ثبت هذا المعنى فى مختلف سور القرآن تقريباً من عشر مرات بأساليب مختلفة.

سابعاً: وأيضا فإن المعجزة إذا وقعت فلا يمكن رفعها ولا تبديلها، ومجيء آية أخرى، أو معجزة أخرى لا يكون تبديلا لها، بل يكون إضافة إليها، أما الآية الكلامية فالظاهر أن ترفع من موضعها ويحل غيرها محلها.

النسخ فى الأحكام:

اقتضت سنن الله فى خلقه أن يشملهم بحكمته ورحمته، ومن دواعى ذلك أن تكون الأحكام الشرعية فى حدود استعداد المكلفين وقدراتهم، حتى إذا ما قوى استعدادهم، أو تغيرت الظروف والأحوال، تغيرت الأحكام المبنية على هذه الظروف والأحوال.

ومن هنا فالنسخ لا يكون فى العقائد، ولا أمهات الأخلاق، وأصول العبادات والمعاملات، ومدلولات الأخبار، لأن هذه الأمور لا تتغير بتغير الظروف والأزمنة.

ومن هنا يتبين أن النسخ لا يكون إلا فى الأحكام الفرعية العملية التى لا تتعلق بالعقائد وأصول الأخلاق والمعاملات، وإنما ترجع إلى استعداد المكلفين، وقدراتهم، وتربيتهم كنسخ الحكم فى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥)﴾ (الأنفال/٦٥).

فإن هذه الآية منسوخة الحكم بقوله تعالى ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)﴾ (الأنفال/٦٦).

ومن ذلك نسخ وجوب التربص حولا على المتوفى عنها زوجها، بأربعة أشهر وعشرة أيام.

حالات النسخ:

النسخ الواقع فى القرآن الكريم له ثلاثة أحوال:

١ ـ نسخ التلاوة والحكم معا.

٢ ـ نسخ الحكم دون التلاوة.

٣ ـ نسخ التلاوة دون الحكم.

١ ـ أما نسخ الحكم والتلاوة جميعاً: فهو محل إجماع بين المسلمين، ويدل على وقوعه سمعاً ما رواه الإمام مسلم عن عائشة أنها قالت كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخن بخمس معلومات فتوفى رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن.

٢ ـ وأما نسخ الحكم دون التلاوة: فيدل على وقوعه آيات كثيرة، منها قوله تعالى ﴿ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) ﴾ (البقرة/١٨٤)، منسوخ بقوله تعالى ﴿ فمن شهد منكُمُ الشَّهرَ فَلْيَصُمْهُ (١٨٥) ﴾ (البقرة/ ١٨٥)، وقوله سبحانه وتعالى ﴿ والَّذين يُتوفون منكم ويذرون أزواجًا وصيَّةً لأزواجهم مَّتاعًا إلى الحول غير إخراج فإنْ خرجن فلا جُناح عليكُمْ في ما فعلن في أنفسهنَّ من مَّعْرُوف واللَّهُ عزيزٌ حكيمٌ (٢٤٠) ﴾ (البقرة/ ٢٤٠)، فإنه منسوخ بقوله تعالى ﴿ والَّذين يُتوفَّوْنَ منكُمْ ويذرُون أزْواجًا يتربصْن بأنفسهن أرْبعَةَ أشْهُرٍ وعشْرًا فإذا بلغْن أجَلهُنَّ فلا جُناح عليْكُمْ فيما فعلْنَ في أنفُسهنَّ بالْمعروف واللَّهُ بما تعْملُون خبيرٌ (٢٣٤) ﴾ (البقرة/٢٣٤). وكقوله جل جلاله ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ حرض

الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (الأنفال/ ٦٥)، نسخ بقوله ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (الأنفال/٦٦). وكقوله تعالى ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ (النساء/ ١٥)، نسخ بقوله تعالى ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ (النور/٢).

قال السيوطى فى التحبير:

«وهنا فوائد: الأولى: كل ما فى القرآن من الصفح عن الكفار والتولى والإعراض والكف عنهم فهو منسوخ بآية السيف، قال بعضهم وهى ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ (التوبة/ ٥)، نسخت مائة وأربعا وعشرين آية ثم نسخ آخرها أولها.

ونقل السيوطى فى التحبير رواية عن الحاكم فى مستدركه أنه قال:

«حدثنا حجاج عن أبى جريج أخبرنى بن أبى حميد عن حميدة بنت أبى يونس قالت: قرأت على أبى وهو ابن ثمانين سنة فى مصحف عائشة (إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما، وعلى الذين يصلون فى الصف الأول) قالت: قبل أن يغير عثمان المصاحف.

٣ ـ وأما نسخ التلاوة دون الحكم: فيدل على وقوعه ما رواه ابن ماجة عن ابن عباس قال قال عمر بن الخطاب لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل ما أجد الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة من فرائض الله ألا وإن الرجم حق إذا أحصن الرجل وقامت البينة أو كان حمل أو اعتراف وقد قرأته الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة رجم رسول الله ﷺ ورجمناه بعده. وكذلك ما رواه الإمام أحمد فى مسدنه عن زر قال: قال لى أبى بن كعب كأين تقرأ من سورة الأحزاب أو كأين تعدها قال قلت له ثلاثا وسبعين آية فقال قط لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عليم حكيم. وهذه الآية ليست من آيات القرآن الكريم المثبتة فى المصحف مع أن حكمها باق لم ينسخ.

وقال الحاكم أيضا: حدثنا عبدالله عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى واقد الليثى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أوحى إليه أتيناه فعلمنا مما أوحى إليه، قال: فجئت ذات يوم فقال: إن الله تعالى يقول (إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو أن لابن آدم واديا لأحب أن يكون إليه الثانى ولو كان له الثانى لأحب أن يكون له إليهما الثالث ولايملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب).

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده عن زر عن أبى بن كعب قال: قال لى رسول الله ﷺ إن الله تبارك وتعالى أمرنى أن أقرأ عليك قال فقرأ على (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما

جاءتهم البينة إن الدين عند الله الحنيفية غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانيـ
ومن يفعل خيرا فلن يكفره) قال شعبة ثم قرأ آيات بعدها ثم قرأ لو أن لابن آد
واديين من مال لسأل واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب قال ثم ختمها
بقى منها.

وقد روى كذلك الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده عن الحسن عن أبى بكرة ـ
النبى ﷺ أنه قال إن الله تبارك وتعالى سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم.

وقال أبو عبيدة: حدثنا حجاج عن سعيد عن الحكم بن عيينة عن عدى قال: قال
عمر: كنا نقرأ «لاترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم» ثم قال لزيد بن ثابت: أكذلك؟
قال: نعم.

وقال أيضا: حدثنا ابن أبى مريم عن نافع بن عمر الجمحى وحدثنى ابن أبى
مليكة عن المسور بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف: ألم تجد فيما أنزل
عينا: «أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة»، فإنا لا نجدها؟ فقال: أسقطت من القرآن
وقال: حدثنا ابن أبى مريم عن ابن لهيعة عن يزيد بن عمور المعافرى عن أبى سفيان
الكلاعى أن مسلمة بن مخلد الأنصارى قال لهم ذات يوم: أخبرونى بآيتين من
القرآن لم يكتبا فى المصحف فلم يخبروه وعندهم أبو الكنود سعد بن مالك، فقال
مسلمة: «إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألا
أبشروا أنتم المفلحون. والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله
عليهم أولئك لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون».

وقال الطبرانى: حدثنا أبو سهل عبيد الله بن الرحمن بن واقد حدثنا أبى حدثنا
العباس بن الفضل عن سليمان بن أرقم عن الزهرى عن سالم عن أبيه قال: قرأ

رجلان سورة أقرأهما رسول الله ﷺ فكانا يقرآن بهما فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له فقال: إنها مما نسخ وأنسى فالهوا عنها.

وقد روى البخاري عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ أتاه رعل وذكوا وعصية وبنو لحيان فزعموا أنهم قد أسلموا واستمدوه على قومهم فأمدهم النبى صلى الله عليه وسلم بسبعين من الأنصار قال أنس كنا نسميهم القراء يحطبون بالنهار ويصلون بالليل فانطلقوا بهم حتى بلغوا بئر معونة غدروا بهم وقتلوهم فقنت شهرا يدعوا على رعل وذكوان وبنى لحيان قال قتادة وحدثنا أنس أنهم قرءوا بهم قرآنا ا/ بلغوا عنا قومنا بأنا قد لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا ثم رفع ذلك بعد.

ترتيب المنسوخات:

ذكر الفيروز آباداى فى بصائر ذوى التمييز الأحكام التى نسخت حسب ترتيب نسخها فقال:

«وأما ترتيب المنسوخات فأولها الصلوات التى صارت من خمسين إلى خمس ثم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾(١٤٤) (البقرة/١٤٤)، ثم صوم يوم عاشوراء، ثم صوم ثلاثة أيام من كل شهر، نسخا بفرض صيام رمضان، ثم حكم الزكاة إلى ربع العشر بعد أن كان الفاضل عن قوت العيال صدقة، وزكاة، ثم الإعراض عن المشركين والصفح عنهم نسخ بآية السيف ﴿قاتلوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(٢٩)

(التوبة/٢٩)، ثم نسخ ميراث الولاء بتوريث ذوى الأرحام، ونسخ ميراث ذوى الأرحام بالوصية، ثم نسخ الوصية بآية المواريث وهى قوله ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ في أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) ﴾ (النساء/١١)، ثم نفى المشركين من الحرم والمسجد الحرام ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) ﴾ (التوبة/٢٨)، ثم نسخ عهد كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين رده عليهم على لسان على يوم عرفة فى أول سورة براءة ـ التوبة ﴿ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) ﴾ (التوبة/٢)، إلى قوله ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾ (التوبة/٥).

ما الذى يترتب على نسخ الحكم؟

إن منطوق الآيتين يستدل بهما القائلون بالنسخ وهما قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) ﴾ (البقرة/١٠٦)، وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا

أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾ (النحل/١٠١)، ظهر فيهما واضحا أن هناك تغييرا فى الحكم. ولكن العلماء اختلفوا فى طبيعة هذا التغيير ونتج عن اختلافهم مسألتان:

الأول: هل لابد وجود (بدل) للحكم المنسوخ؟ أو لا؟

الثانية: إذا وجد البدل فهل يشترط فيه أن يكون مساويا للمنسوخ أو أخف منه أو أثقل منه؟

نقل الآمدى فى (الإحكام فى أصول الأحكام) إجماع الجمهور على جواز نسخ الحكم لا إلى بدل، يعنى دون ضرورة لأن يكون هناك بديل له.

واستدل الجمهور على ذلك بأدلة عقلية منها: أنه ليس من المستحيل عقلا إلغاء حكم دون تقديم بديل له. واستدلوا بأدلة شرعية منها: إلغاء حكم تقديم الصدقة بين يدى مناجاة الرسول ﷺ، ونسخ ادخار لحوم الأضاحى، ونسخ وجوب الإمساك بعد الفطر فى الليل.

وذهب فريق آخر إلى منع ذلك فقالوا لا يصح أن يقع النسخ دون وجود بدل من الحكم المنسوخ، واستدل هذا الفريق بقوله تعالى (نأت بخير منها أو مثلها) فهو صريح فى ضرورة الإتيان ببدل خير من المنسوخ أو مساو له.

واتفق القائلون بوقوع النسخ مع البدل على أن هذا البدل يقع عادة أخف من الحكم المنسوخ كما هو الحال فى نسخ تحريم الأكل بعد النوم فى ليالى رمضان بتحليله، وقد يقع مساويا له كما فى نسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة.

قال الشيخ محمد سعاد جلال رحمه الله:

«واختلفوا فيما إذا كان حكما أثقل بالنسبة لطاقة المكلف، فذهب جمهور الفقهاء، والمتكلمين إلى جوازه، ومنه بعض أصحاب الشافعي، وأهل الظاهر استبدل المانعون بدليل العقل النقل، وأما العقل فأن التكليف بالأشق أبعد من مصلحة المكلفين، لأنهم إن فعلوا ماهو أشق تضرروا باستحقاق العقوبة جزاء المخالفة لأمر الشارع، فاستبعد من حكمه الحكيم أن ينأى عن المصلحة فى تكليف عباده على هذا الوجه. وأما النقل فبقوله تعالى ﴿ما نَنْسَخْ من آيَةٍ أَوْ نُنسها نأت بخير منها أَوْ مثْلها أَلمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ علىٰ كُل شيْءٍ قَديرٌ (١٠٦)﴾ (البقرة/١٠٦)، والمراد بالخير هنا من الآيات ما كان خيرا بالنسبة لأعمال العباد فإن آيات القرآن خيركلها، وبقوله تعالى ﴿يُريدُ اللَّهُ بكُمُ اليُسْرَ (١٨٥)﴾ (البقرة/ ١٨٥)، وقوله تعالى ﴿يُريدُ الله أن يُخَفّفَ عنكُمْ وَخُلِقَ الإنسانُ ضعيفًا (٢٨)﴾ (النساء/٢٨)، دلت الآيتان على إرادة اليسر والتخفيف عن العبد فى التكاليف الشرعية، ونقل التكليف عن الحكم الأخف إلى الحكم الأشق ينافى ذلك. واستدل المجوزون بدلالة العقل، والشرع على عرضهن: أما دلالة العقل فلأنه لا يجوز قياس اليسر، والمشقة فى الأحكام الملقاة على عاتق المكلف بطاقاته فى الممارسة، وإنما ينبغى أن يكون المقياس فى وصف هذه الأحكام تحقق مصلحة المكلف بها وبهذا المقياس قد تكون مصلحة المكلف فى تناول الحكم الأشق كما تكون فى تناول الحكم الأخف، فإن نقل المكلفين بادىء ذى بدء من الإباحة الأصلية فى تناول عامة ما يريدون من الرغبات قبل الشريعة إلى مشقات الحظر والتحريم بالشريعة يتضمن مشقة ظاهرة، لكنه بالنسبة لمصلحة المكلف يتعين أن يعتبر أخف من الإطلاق الذى كانت تجرى عليه أحوالهم من قبل، ألاترى إلى

الطبيب ينقل المريض لمصلحته من الدواء الحلو المستساغ أوالطعام الشهى المستطاب إلى الدواء المر،أو ترك التغذى، أوالتغذى بما لا يستساغ. وكل ذلك منظور فيه لمصلحة الشخص، فإنها المقياس المعتبر.

وأما دلالة الشرع:

فذلك أن واقع التشريع قد تضمن من وقائع النسخ ما ظهر به نقل المكلف من الأخف إلى الأثقل من الأحكام، مثل نسخ مهادنة الكفار، والصبر على أذاهم بالأمر بقتال الذين يقاتلونه، بقوله ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (البقرة/ ١٩٠)، ثم نسخ ذلك بقتالهم كافة بقوله ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (التوبة/٣٦)، ومثل نسخ التخيير بين الصيام والفدية فى ابتداء الإسلام على روى ابن عمر، ومعاذ، ثم نسخ هذا التخيير بإيجاب الصوم عزيمة بقوله ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (البقرة/ ١٨٥)، ونسخ وجوب صوم يوم عاشوراء بإيجاب صوم رمضان، فهذه الأمثلة ولها نظائر فى الشريعة، هى من قبيل نسخ الحكم الأخف والانتقال عنه إلى التكليف بالحكم الأشق. فأماتمسك المانعين بقوله تعالى ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (النساء/٢٨)، وقوله ·نأت بخير منها أو مثلها) فمردود. أما عن الآيتين الأوليين فإن المراد بهما ليس عاما فى كل الصور،بل هو مقصور على بعض الصور وليس فيهما ما يدل على الحصر.

وأما عن الآية الثالثة، فليس الخير المراد به سهولة العمل، وإنما المراد بها ما يكون فيه مصلحة وأكثر ثوابا للمكلف، فالحكم الأثقل يكون خيرا لما يترتب على فعله من كثرة الثواب. لقوله ﷺ «أفضل الأعمال أحمزها» أى أشقها وأكثرها ثواباً، وقوله لعائشة» ثوابك على قدر نصبك فالنصب المستزاد له من الأجر خير لفاعله من اليسر القليل أجره.

بيان السور التى وقع فيها النسخ:

اتفق العلماء على أن السور التى خلت من النسخ ثلاث وأربعون سورة وهى:

فاتحة الكتاب، يوسف، يس، الحجرات، الرحمن، الحديد، الصف، الجمعة، التحريم، الملك، الحاقة، نوح، المرسلات، الجن، النبأ، النازعات، الانفطار، التطفيف، الانشقاق، البروج، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الضحى، الانشراح، القلم، القدر، البينة، الزلزلة، العاديات، القارعة، التكاثر، الهمزة، الفيل، قريش، الماعون، الكوثر، النصر، المسد، الإخلاص، الفلق، الناس. والسور التى فيها الناسخ وليس فيها المنسوخ ست هى: الفتح، الحشر، المنافقون، التغابن، الطلاق، والأعلى.

والتى فيها المنسوخ وليس فيها ناسخ أربعون سورة هى:

الأنعام، الأعراف، يونس، هود، الرعد، الحجر، النحل، إسرائيل، الكهف، طه، المؤمنون، النمل، القصص، العنكبوت، الروم، لقمان، المضاجع، الملائكة، الصافات، محمد ﷺ، الزمر، المصابيح، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، محمد، ق، النجم، القمر، الممتحنة، ن، المعارج، القيامة، الإنسان، عبس، الطارق، الغاشية، التين، الكافرون.

والسور التى اجتمع فيها الناسخ والمنسوخ خمس وعشرون هى:

البقرة، آل عمران، النساء ، المائدة، الأنفال، التوبة، إبراهيم، مريم، الأنبياء، الحج، النور، الفرقان، الشعراء، الأحزاب، سبأ، المؤمنون، الشورى، الذاريات، الطور، الواقعة، المجادلة، المزمل، المدثر، التكوير، العصر.

وجملة الآيات التى وقع فيها النسخ وحصرها الفيروز آبادى فى البصائر مئتا آية وأربع آيات، هذه الجملة التى لابد من معرفتها من أمر الناسخ والمنسوخ.

المبحث الثالث عشر

المجمل والمبين

مما يلتبس بعلمي العام والخاص، والمطلق والمقيد، علم ثالث من علوم القرآن المهمة أطلق عليه العلماء اسم المجمل والمبين، وهو علم جليل القدر كسابقيه نظرا لما يترتب على معرفته من أهمية بالنسبة للمفتي والمفسر.

تعريف المجمل:

هو في اللغة: المبهم،من أجمل الأمر إذا أبهمه أو المجموع من أجملت الحساب أي جمعته.

في الاصطلاح: هو ما لا تتضح دلالته على المعنى المراد، ودلت بسبب تردده بين معان متساوية في الاحتمال فلا يعلم المراد منه على التعيين إلا بالبيان.

وقال ابن الحاجب: المجمل ما لم تتضح دلالته.

وحكم المجمل عند الأصوليين: التوقف عن العمل بأحد احتمالاته إلا بالبيان، أي بدليل خارج عن لفظه، لأن لفظه عادة يدل على المراد به. ويستحيل تكليف الإنسان بما لا دليل عليه.

مواضع المجمل:

قال الأصوليون:

ويكون الإجمال في حرف الواو في قوله تعالى ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ⑦ ﴾ (آل عمران/٧)، فإنه يحتمل

أن تكون عـاطفـة، يكون الراسـخـون في العلم يعلمـون تـأويله، ويحـتـمـل أن تكون مستأنفة، ويكون الوقف على (إلا الله).

ويكون الإجـمـال أيضـا فى اسم كـالقـراء المتردد بين الحـيض والهطر، وكـالعين المترددة بين الباصرة والجارية وعيرن الميزان والذهب وغير ذلك.

ويكون الإجمال أيضا فى مركب نحو ﴿ الَّذي بيَده عُقْدَةُ النِّكَاح وأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ للتَّقْوَىٰ ولا تنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بما تَعْمَلُون بصيـرٌ (٢٣٧) ﴾ (البقرة/٢٣٧)، فى قـوله تعـالى (أو يعـفـوا الذى بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتـقـوى ولا تنسـوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير) فإنه يحتمل أن يكون الولي،لأنه الذى يعتقد نكاح المرأة، لأنهـا لا تزوج نـفـسـهـا. ويحـتـمـل أن يكـون الزوج، لأنه الذى بيـده دوام العقد والعصمة.

والاحتمال الثانى هو الراجح من الروايتين عند الإمام أحمد) ومذهب أبى حنيـفة وأحد قولى الشافعى رضى الله عنهم.

ويكون الإجمال أيضا فى مرجع الضـمـيـر نحـو الضـمـيـر فـى «جداره» فى قـولـه النبى ﷺ فى الصحيحين عن أبى هريرة) أن رسول الله ﷺ قال لا يمنع جار جاره أن يغـرز خشـبـه فى جداره. فإنه يحتـمل عوده على الغـارز، أى لا يمنعه جاره أى يفعل ذلك فى جدار نفسه.

وعلى هذا فلا دلالة فـيـه على القـول أنه إذا طلب جاره منه أن يضع خشـبـه على جدار المطلوب منه وجب عليه التمكين. ووهذا رأى الشافعى.

ويحتمل أن يعود على الجار الآخر، فيكون فيه دلالة على ذلك. وهذا الذى عليه

الإمام أحمد) وهو الظاهر لقــول أبى هريرة) «مـا لى أراكم عنهـا مـعرضـين والله لأرمين بها بين أكتافكم» ولو كان الضمير عائدا إلى الغارز لما قال ذلك.

ويكون الإجمال أيضا فى *مرجع صفة نحو* قولك «زيد طبيب ماهر» فيحتمل عود«ماهر» إلى ذات زيد، ويحتمل أن يعود إلى وصفه المذكور، وهو «طبيب»، ولاشك أن المعنى متفاوت باعتبار الاحتمالين،لأنا إن أعدنا «ماهر» إلى «طبيب» فيكون ماهرا فى طبه، إن أعدنا «ماهر» إلى زيد فتكون مهارته فى غير الطب، وهذا النوع من المجمل باعتبار التركيب.

ويكون الإجمال أيضا فى *تعدد مجاز* عند تعذر الحقيقة نحو قوله ﷺ عن أبى هريرة رضى الله عنه «لعن الله يهود حرمت عليهم الشحوم فباعـوها وأكلوا أثمانها».

لأن قوله ذلك لو لم يعم جميع التصرفات لما صح اللعن فيقدر الجمع، لأنه الأقرب إلى الحقيقة.

ويكون الإجمال أيضا فى *عام خص بمجهول* نحو «اقتلوا المشركين إلا بعضهم» لأن العام إذا خص بمجهول صار الباقى محتملا، فكان مجملا، وكذا عام خص بمستثنى وصفة مجهولين.

مثال المستثنى المجهول قوله سبحانه وتعالى ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ ﴾ (المائدة/١)، فإنه قد استثنى من المعلوم وهو بهيمة الأنعام ما لم يعلم، وهو (مايتلى عليكم)، فصار الباقى محتملا، فكان مجملا.

ومثال ماخص بصفة مجهولة نحو (محصنين) فى قوله تعالى ﴿ والْمُحْصَنَاتُ من النِّسَاءِ إلاَّ ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وأُحِلَّ لَكُم مَّا وراء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فما اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ولا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) ﴾ (النساء/٢٤)، وموجب الإجمال أن الإحصان غيرمبين، فكان صفة مجهولة.

ولا إجمال فى إضافة تحريم إلى أشياء محددة معينة تعيينا دقيقاً نحو ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣) ﴾ (المائدة/٣). وهذا الصحيح الذى عليه أكثر العلماء.

أقسام المجمل:

ينقسم المجمل فى الأقوال إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون اللفظ مجملا بين حقائقه، وهو ما يسمى بالمشترك اللفظى.

مثال ذلك «القرء» فى قول الله تعالى ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ﴾ (البقرة/٢٢٨). فإنه يحتمل:

١ ـ *الحيض*.

٢ ـ *الطهر*.

لأنه موضوع لكل منهما عند علماء اللغة كما تقول المعاجم.

الثانى: أن يكون مجملا بين أفراد حقيقة واحدة وهو ما أريد به فرد معين.

مثل ذلك قوله جل جلاله ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (البقرة/٦٧)، فإن لفظ البقرة موضوع لحقيقة واحدة لها أفراد، والمراد بها فى الآية: فرد معين غير معلوم للمخاطبين.

الثالث: أن يكون بين مجازاته المتعددة، وذلك إذا لم يمكن حمله على الحقيقة وتساوت مجازاته فى الاحتمال. فإذا رجع واحد منها فإنه يحمل عليه ولا يكون مجملا، ويحصل الترجيح بأحد الأمور الآتية:

الأمر الأول: أن يكو ن أحد المجازات أقرب إلى الحقيقة من غيره، كما فى حديث «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»، وحديث «لا صيام لمن لم يبيت الصيام من الليل» فإن الحقيقة فى الحديثين، وهى الإخبار عن نفى ذات الصلاة، والصيام عند انتفاء الفاتحة، والتبييت، غير مرادة، لأن الذات قد تقع بدونهما، فتعين الحمل على المجاز وهو إضمار الصحة أو الكمال. أى نفى صحة الصلاة لا نفس الصلاة وكمال الصوم لانفس الصوم.

الأمر الثانى: أن يكون أظهر عرفا كما فى حديث:

«رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» فإن الحقيقة وهي: الخطأ،

والنسيان غير مرادة، لاستحالة ارتفاع الواقع، فتعين الحمل على المجاز وهو إضمار الحكم، أو الإثم، ولكن إضمار الإثم هو المتبادر عرفا فيكون أرجح.

الأمر الثالث: أن تكون أعظم مقصودا فى العرف كما فى قوله تعالى ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ... ③ ﴾ (المائدة/٣)، فإن الحقيقة وهو تحريم ذات الميتة غير مرادة، لأن الأحكام الشرعية تتعلق بالأفعال لا بالذوات. فيتعين الحمل على المجاز وهو الأكل أو البيع ولكن الأكل عرفا أهم من البيع فيكون هو الراجح.

أما المجمل فى الأفعال:

فقد يقع حين يكون العمل (أو الفعل) متضمناً احتمالين فأكثر، مثال: ذلك: قيام النبى ﷺ من الركعة الثانية دون أن يتشهد التشهد الأوسط. فهذا الفعل يتضمن احتمالين:

أولهما: أن يكون ذلك الفعل سهوا.

وثانيهما: أن يكون تشريعا يقصد منه جواز ترك التشهد.

فيكون هذا الفعل - بهذه الصورة - من المجمل. ويحتاج إلى ترجيح أحد الاحتمالين ليتحول من مجمل إلى مبين، ولما كان الرسول ﷺ قد سجد بعد ذلك سهوا (رواية مسلم) فقد دل ذلك على أنه كان ترك سهو ونسيان وليس ترك تشريع.

وبصفة عامة يمكن حصر أنواع الإجمال فى الأفعال فيما يأتى:

أولاً: أنه قد يدور حكم الفعل بين الاختصاص بفاعله، كما فى الخصائص

النبوية بين أن يكون عاما له وللأئمة، وكذا: الاختصاص بالزمان، والمكان، والحال التى فعل فيها ـ وبين عموم سائر الأمكنة، والأزمان، والأحوال.

ثانياً: أنه قد يدور حكم الفعل بين الوجوب، والندب، والإباحة.

ثالثاً: قد يدور بين أن يكون مقصودا به التعبد والتشريع، وبين أن يفعل على حد الإباحة العقلية.

رابعاً: وحتى لو كان مقصودا به التشريع، فقد يدور بين أن يكون بيانا لمجمل معين، أو لايكون.

خامساً: أنه قد يدور بين الارتباط بسبب معين، وبين عدم الارتباط به، كالخروج فى صلاة العيد إلى الصحراء، هل كان لعذرضيق المسجد، فلا يسن إلا عند الضيق أو لم يكن ذلك، فيسن مطلقا.

تعريف المبين:

المبين فى اللغة: اسم مفعول، من بين الشيء تبيينا، أى وضحه توضيحا.

وعند الأصوليين: هو ما اقتصرت دلالته على معناه.

اقسام المبين:

ينقسم المبين إلى قسمين:

القسم الأول: الواضح نفسه، وهو: ما يكون كافيا فى إفادة معناه بوضع اللغة.

مثال ذلك قول الله تعالى: ﴿ ...وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ﴾(البقرة/ ٢٨٢).

أو هو: ما يكون كافيا فى إفادة معناه بحكم الفعل، مثال ذلك قوله تعالى:

﴿ واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون ﴿٨٢﴾ ﴾ (يوسف/٨٢)، فإنه يفيد المراد به، وهو طلب سؤال أهل القرية بواسطة حكم العقل بإضمار الأهل.

ولكن ذلك من الواضح بنفسه لفهم المعنى من غير توقف. وإنما أطلق على هذا القسم لفظ «المبين» باعتبار أن المتكلم بينه ابتداء حيث لم يأت بلفظ مجمل.

القسم الثاني: الوضاح بغيره:

وهو: ما توقف فهم المراد منه على غيره، وهذا الغير هو المبين (بكسر الباء) أى الدليل الذى حصل به البيان:

أنواع المبين ـ بكسر الباء ـ ثلاثة:

النوع الأول: قول من الله تعالى مثل قوله ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴿٦٩﴾ ﴾ (البقرة/٦٩)، فإنه بيان إجمال «بقرة» فى قوله تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴿٦٧﴾ ﴾ (البقرة/٦٧).

النوع الثاني: قوله من الرسول ﷺ مثل حديث البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ فيما سقت السماء والعيون العشر وفيما سقى بالنضح نصف العشر. فإنه بيان لإجمال الحق فى قوله تعالى ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴿١٤١﴾ ﴾ (الإنعام/١٤١).

النوع الثالث: فعل منه ﷺ مثل: صلاته، وحجه فإنه بيان لقوله تعالى وأقيموا ﴿ الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (البقرة/٤٣)، وقوله جل جلاله ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (آل عمران/٩٧)، كما يدل على ذلك حديث البخارى: «صلوا كما رأيتمونى أصلى» وحديث مسلم: «خذوا عنى مناسككم» إنما كان الفعل مبينا لأنه أكثر دلالة على التفصيل، وبيان الكيفيات المطلوبة من القول.

فإذا جاز البيان بالقول، جاز بالفعل بالأولى. فإن جميع القول والفعل توافقا فى الدلالة وعلم السابق منهما فهو المبين والثانى تأكيد له. وإن لم يعلم فالمبين أحدهما من غير تعيين، وإن اختلفا فى الدلالة كحديث الترمذى:

«من أحرم بالحج والعمرة أجزأه طواف واحد وسعى واحد».

وحديث النسائى: «أنه ﷺ طاف لهما طوافين، وسعى سعيين».

فالمبين هو القول سواء تقدم أو تأخر، ويحمل الفعل على الندب، لأن القول يدل بنفسه بخلاف الفعل فإنه يدل بالواسطة.

مثال للمجمل والمبين:

فى قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ

حرج ولَكن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ولِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ (المائدة/٦)، هل هو مجمل، أم لا؟

اختلف الأصوليون فى ذلك:

١ ـ ذهب بعض أصحاب أبى حنيفة إلى أنه مجمل.

٢ ـ وذهب الجمهور إلى أنه غير مجمل.

وتقرى مذهب الأحناف، أن يقال:

«الباء»:

(١) يحتمل أن تكون صلة، أى زائدة، فعلى هذا لايكون الواجب مسح جميع الرأس، لأنه لا فرق بين أن يقول (مسحت رأسى) وبين أن يقول (مسجت برأسى).

(ب) ويحتمل أن تكون للإلصاق، فيحب بذلك ما يسمى مسحا، فإن ذلك إلصاقا للمسح بالرأس.

(جـ) ويحتمل أن تكون للتبعيض، فيكفى مسح البعض، ولى ثم دليل على أن واحدا من هذه الاحتمالات الثلاثة هو المراد بعينه، فتهين الإجمال لذلك.

وتقرير مذهب الجمهور، أن يقال:

إن الباء فى اللغة: للإلصاق، وهو أصل معانيها، والظاهر فيها، كما قال سيبويه، وقد دخلت على المسح، وقرنته بالرأس، والذى يسمى «رأساً» هو الجميع لا البعض، لأنه لا يوصف الناصية بأنها رأس.

فكانت الآية إيجابا لمسح جميع الرأس من جهة اللغة: عند المالكية والشافعية، والإمام أحمد، والباقلانى.

العرف حاكم على الوضع عند الإمام الشافعي:

غير أن عرف استعمال أهل اللغة، الطاريء على الوضع الأصلي، حاكم عليه، والعرف يقتضى إلصاق المسح بالرأس فقط: الكل، أو البعض.

لأن الإنسان إذا قال (امسح يدك بالمنديل): لا يفهم منه أحد من أهل اللغة، أنه أوجب عليه إلصاق يده بجميع المنديل، بل بالمنديل: إن شاء بكله، وإن شاء ببعضه ولهذا: يخرج عن العهدة بكل واحد منهما.

وكذلك إذا قال: (مسحت يدى بالمنديل)، فالسامعون يجوزون أنه مسح بكله، وببعضه، غير فاهمين لزوم وقوع المسح بالكل، أو البعض بل بالقدر المشترك بين الكل والبعض، وهو (مطلق مسح): نفيا للتجوز والاشتراك فى العرف.

هذا هو مذهب الإمام الشافعى)، وقد اختاره من المعتزلة القاضى عبدالجبار وأبو الحسين البصرى، فى (المعتمد).

أما عند الإمام مالك:

فإنه نظر إلى «مطلق المسح» من ناحية: الأغراض والأحوال، تقول (مسحت الجدار) فيقتضى بعضه، من أجل أن الجدار لا يمكن تعميمه بالمسح حسا، ولا غرض فى استيعابه قصدا.

وتقول: (مسحت رأس اليتيم لأجل الرأفة)، فيجزيء منه أقله، بحصول الغرض به.

وتقول (مسحت الدابة)، فلا يجزيء إلا جميعها، لأجل مقصد النظافة فيها.

فتعلق الوظيفة بالرأس، يقتضى عمومه بقصد التطهير فيه، ولأن مطلق اللفظ

يقتضيه. ألا ترى أن تقول (مسحت رأسي كله. فتؤكده، ولو كان يقتضي البعض لما تأكد بالكل، فإن التأكيد لرفع الاحتمال المتطرق إلى الظاهر في إطلاق اللفظ.

ولو نظرنا إلى الآية، لوجدنا:

أن المسح لفظ مشترك، وأما الرأس فهي معروفة للجميع، ومنها: الوجه فلما ذكره الله جل جلاله في الوضوء، وحدد الوجه للغسل، بقي باقي الوجه للمسح ولولم يذكر الغسل، لوجب مسح جميع الرأس ما عليه الشعر من الرأس، وما فيه العينان والأنف والفم.

وقد أشار الإمام مالك في وجوب مسح جميع الرأس إلى ما ذكر، فإنه سئل عن الذي ترك بعض رأسه في الوضوء، فقال: (أرأيت إن ترك غسل بعض وجهه، أكان يجزئه). ؟

و«الباء»، قيل: إنما دخلت لتفيد معنى بديعا، وهو أن الغسل لغة: يقتضي مغسولا به. والمسح لغة: لا يقتضي ممسوحا به.

فلو قال: (وامسحوا رؤوسكم) لأجزأ المسح باليد، إمراراً من غير شيء على الرأس، فدخلت (الباء) لتفيد ممسوحا به،وهو (الماء) فكأنه قال: (وامسحوا برؤسكم الماء) وذلك صحيح في اللغة.

فترجح مسح جميع الرأس، لثلاثة أسباب:

أحدهما: الاحتياط.

الثاني: التنظير بالوجه، من منطلق اللفظ، في ذكر الفعل وهو الغسل، أو المسح، وذكر المحل وهو الوجه أو الرأس.

الثالث: أن كل من وصف وضوء رسول الله ﷺ، ذكر أنه مسح رأسه كله.

فإن قيل: فقد ثبت أنه مسح ناصيته وعمامته، وهذا نص على البعض.

قيل: بل هو نص على الجميع، لأنه لو لم يلزم الجميع، لم يجمع بين العمامة والرأس، فمن مسح بيده على ما أدرك من رأسه، ومر بيده على الحائل بينه وبين باقيه أجراه مجرى الحائل من جبيرة أوخف، ونقل الغرض إليه كما نقله فى هذين الموضعين.

المبحث الرابع عشر

مبهمات القرآن

هذا فرع دقيق من فروع علوم القرآن يهتم الباحثون فيه بمعرفة دلالات ما ورد في القرآن الكريم مبهما أي غير محدد الدلالة سواء أكان ذلك المبهم شخصاً أم مكاناً أو غير ذلك.

وهناك ثلاثة كتب معروفة في هذا العلم هي:

* «التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام» للسهيلي.

* «التكميل والإتمام» لابن عساكر.

* «مفحمات الأقران في مبهمات القرآن» للسيوطي.

وهذا العلم من علوم القرآن التي تعتمد على النقل ولا مجال للعقل فيه. فهو يعتمد على ما روي عن الصحابة الذين عاصروا نزول الآيات ويعلمون بالسماع أو المشاهدة فيمن نزلت أو فيم نزلت وكانوا يهتموا بذلك.

فقد روى البخاري عن ابن عباس عندما كان يريد أن يسأل عن قول الله تعالى ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ (التحريم/٤).

فقال: «مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فلم أستطع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجا فخرجت معه ورجعت وكنا ببعض الطريق، عدل إلى الأراك لحاجة له، قال فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت له: يا أمير المؤمنين من

اللتان تظاهرتا على النبى ﷺ من أزواجه، فقال: حفصة وعائشة، قال: فقلت: والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك، قال: فلا تفعل، ما ظننت أن عندى من علم فاسألنى، فإن كان لى علم خبرتك به. قال: ثم قال عمر: والله إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمراً، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل قسم لهن ما قسم، قال: فبينا أنا فى أمر أتأمره إذ قالت امرأتي: لو صنعت كذا وكذا، قال: فقلت لها: مالك ولما هاهنا، فيما تكلفك في أمر أريده؟ فقالت لى عجبا لك يا ابن الخطاب، ما تريد أن تراجع أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان. فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة، فقال لها: يا بنية إنك لتراجعين رسول ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت: حفصة: والله إنا لنراجعه. فقلت: تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ﷺ. يا بنية لا يغرنك هذه التى أعجبها حسنها حب رسول الله ﷺ إياها - يريد عائشة - قال: ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتى منها فكلمتها، فقالت أم سلمة: عجبا لك يا ابن الخطاب، دخلت فى كل شيء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه. فأخذتنى والله أخذا كسرتنى عن بعض ما كنت أجد فخرجت من عندها وكان لى صاحب من الأنصار إذا غبت أتانى بالخبر، وإذا غاب كنت أنا آتيه بالخبر، ونحن نتخوف ملكا من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبى الأنصارى يدق الباب، فقال افتح افتح، فقلت: جاء الغسانى؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه. فقلت رغم أنف حفصة وعائشة. فأخذت ثوبى فأخرج حتى جئت، فإذا رسول الله فى مشربة له يرقى عليها بعجلة، وغلام لرسول الله ﷺ أسود على رأس الدرجة فقلت له: قل هذا عمر بن الخطاب. فأذن

لى. قال عمر فقصصت على رسول الله ﷺ هذاالحدث، فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله ﷺ وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وإن عند رجليه قرظا مصبورا، وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير فى جنبه فبكيت، فقال: مايبكيك؟ فقلت: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأن رسول الله، فقال: أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»؟.

قال الزركشى فى البرهان: لا يبحث عن مبهم أخبر الله باستئثاره بعمله،كقوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠) ﴾ (الأنفال/ ٦٠)، والعجب ممن تجرأ وقال إنهم قريظ أو من الجن.

والأساس كما أشرنا منذ قليل فى تعيين المبهم هو النقل عن الصحابة حيث لا مجال للرأى فيه، قال السيوطى: اعلم أن علم المبهمات مرجعه النقل المحض، لا مجال للرأى فيه.

على أن من الأهمية بمكان أن يتحرى الناقل صحة الرواية لأن كثيراً مما عين من هذه المبهمات هو من قبيل الرجم بالغيب، وبعضه مأخوذ من الإسرائيليات التى لا يعتمد عليها، وأكثره لم يصح فيه خبر، فإذا صحت الأخبار بتعيين مبهم فلا بأس بذلك، ولايخصص ذلك عموم النص القرآني، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما قال الجمهور.

أسباب الإبهام فى القرآن:

المقصود بالإبهام عند علماء القرآن أن يرد ذكر أمر من الأمور أخفاه الله تعالى لأسباب، أو إشارة إلى شخص أو مكان لم يتم تحديده وتعيينه وبيانه لأسباب أيضا. وقد حصر العلماء أسباب ورود بعض المبهمات فى القرآن: قالوا إن ما ورد مبهماً ورد كذلك لواحد من الأسباب التالية:

الأول: أن يكون أبهم فى موضع استغناء ببيانه فى آخر سياق الآية.

أمثلة:

١ ـ قول الله تعالى ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ (الفاتحة/٤).

بينه بقوله ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ (الإنفطار/١٧ ـ ١٩).

٢ ـ قوله تعالى ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ (الفاتحة/٧).

بينه بقوله تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (النساء/٦٩).

٣ ـ قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (البقرة/ ٣٠)، هنا المراد آدم عليه السلام وظهر لنا ذلك من خلال السياق فى الآية.

٤ ـ قوله تعالى ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادقين (١١٩) ﴾ (التوبة/١١٩). المراد بهم هنا المهاجرون، لقوله تعالى ﴿ للْفُقَرَاء الْمُهاجرين الَّذين أُخْرِجُوا من ديارهمْ وأَمْوالِهِمْ يبْتغُونَ فَضْلاً مّنَ اللَّهِ ورضْوانًا وينصُرُونَ اللَّهَ ورسُولَهُ أُولئك هُمُ الصَّادقُونَ (٨) ﴾ (الحشر/٨).

الثاني: أن يتعين لاشتهاره.

١ ـ قوله تعالى ﴿ ويا آدمُ اسْكُنْ أَنتَ وزَوْجُكَ الْجنَّةَ فَكُلا منْ حيْثُ شئْتُما ولا تقْربا هذه الشَّجرةَ فتكُونا منَ الظَّالمين (١٩) ﴾ (الأعراف/١٩)، ولم يقل حواء لأنه ليس له غيرها، ومثل قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذي حاجَّ إبْراهيمَ في ربّه أنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إذْ قال إبْراهيمُ ربّيَ الَّذي يُحْيي ويُميتُ قَالَ أنَا أُحْيي وأُميتُ قَالَ إبْراهيمُ فإنَّ اللَّه يأْتي بالشَّمْس منَ الْمشْرق فأْت بها منَ الْمغْرب فبُهت الَّذي كفر واللَّهُ لا يهْدي الْقوْم الظَّالمين (٢٥٨) ﴾ (البقرة/٢٥٨). والمراد نمروز لشهرته وذلك لأنه المرسل إليه.

٢ ـ ﴿ وقَالَ الَّذي اشْتراهُ من مّصْر ..... ولَكنَّ أَكْثَر النَّاس لا يعْلمُون (٢١) ﴾ (يوسف/٢١).

٣ ـ قول الله تعالى ﴿ واتْلُ علَيْهمْ نبأَ ابْنيْ آدم بالْحقّ إذْ قرّبا قُرْبانًا فتُقُبّل من أحدهما ولَمْ يُتقَبَّلْ من الآخر قال لأَقْتُلنَّك قال إنَّما يتقبَّلُ اللَّهُ من الْمُتَّقين (٢٧) ﴾ (المائدة/٢٧). المراد قابيل وهابيل.

٤ ـ قوله جل جلاله ﴿ ومنْهُم مَّن يسْتمعُ إلَيْكَ وجعلْنا علَىٰ قُلُوبهم أكنَّةً أن يفْقهُوهُ وفي آذانهمْ وقْرًا وإن يروْا كُلَّ آيةٍ لاَّ يُؤْمنُوا بها حتَّىٰ إذا جاءُوك يُجادلُونك يقُولُ الَّذين

كفروا إنْ هَذَا إلاَّ أَسَاطِيـرُ الأَوَّلِينَ (٢٥) ﴾ (الأنعام/٢٥)، قالوا: وحيثما جاء فى القرآن (أساطير الأولين) فقائلها النضر بن الحارث بن كلدة، وإنما كان يقولها لأنه دخل بلاد فارس، وتعلم الأخبار ثم جاء، وكان يقول: أنا أحدثكم أحسن مما يحدثكم محمد، وإنما يحدثكم أساطير الأولين، وفيه نزل قول الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) ﴾ (الأنعام/٩٣)، وقاتله النبى ﷺ صبراً يوم بدر.

٥ ـ قوله سبحانه وتعالى ﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) ﴾ (التوبة/١٠٨)، فالراجح كونه مسجد قباء بقوله تعال (من أول يوم) لأنه أسس قبل مسجد المدينة، وحدس هذا بأن اليوم قد يراد به المدة والوقت؟ وكلاهما أسس على هذا من أول يوم، أى من أول عام من الهجرة، وجاء فى الحديث تفسيره بمسجد المدينة، ويجمع بينهما بأن كليهما مراد الآية أخرجه الإمام أحمد عن سهل ابن سعد قال اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ فى المسجد الذى أسس على التقوى فقال أحدهما هو مسجد الرسول وقال الآخر هو مسجد قباء فأتيا النبى ﷺ فسألاه فقال هو مسجدى هذا. ورواه أيضا عن أحمد من طريق آخر هو حدثنى محمد بن حاتم حدثنا يحيي بن سعيد عن حميد الخراط قال سمعت أبا سلمة بن عبدالرحمن قال مربى عبدالرحمن بن أبى سعيد الخدرى قال قلت له كيف سمعت أباك يذكر فى

المسجد الذى أسس على التقوى قال قال أبى دخلت على رسول الله ﷺ فى بيت بعض نسائه فقلت يا رسول الله أى المسجدين الذى أسس على التقوى قال فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض ثم قال هو مسجدكم هذا لمسجد المدينة قال فقلت أشهد أنى سمعت أباك هكذا يذكره.

الثالث: قصد الستر عليه ليكون أبلغ فى استعطافه:

مثل ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) ﴾ (البقرة/٢٠٤)، نزلت فى الأخنس بن شريق وقد أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه.

ومنه قوله تعالى ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) ﴾ (البقرة/١٠٠)، قيل هو مالك بن الصيف أحد زعماء اليهود ،وذلك أنه لما ذكر النبى ﷺ اليهود بما أخذ الله عليهم من الميثاق وما عهد الله إليهم فى محمد ﷺ قال مالك بن الصيف، والله ما عهد إلينا فى محمد وما أخذ علينا ميثاقا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

والميثاق الذى أخذ عليهم والعهد الذى عهده الله إليهم فى محمد ﷺ هو المذكور فى قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾ (آل عمران/٨١).

ومثل قوله جل جلاله ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) ﴾ (البقرة/١٠٨). والمراد هو رافع بن

حريملة ووهب بن زيد قالا لرسول الله ﷺ يا محمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه وفجر لنا أنهارا نتبعك ونصدقك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، والنهى يعم المؤمنين والكافرين، فإنه ﷺ رسول الله إلى الجميع، كما قال الله تعالى ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) ﴾ النساء/١٥٣).

الرابع: ألا يكون فى تعيينه كبير فائدة.

أمثلة:

١ ـ قول الله تعالى ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ (البقرة/٢٥٩)، والمراد بها بيت المقدس، قال الطبرى إن اسمه عزيز أو إرميا وذكر ستة عشر قولا فى تحديد هذين الاسمين ثم فند هذه الروايات وقال:

«أولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكر عجب نبيه ﷺ ممن قال إذ رأى قرية خاوية على عروشها: (أنى يحيي هذه الله بعد موتها) مع علمه أنه ابتدأ خلقها من غير شيء، فلم يقنعه علمه بقدرته على ابتدائها، حتى قال: أنى يحييها الله بعد موتها! ولا بيان عندنا من الوجه الذى يصح من قبله البيان على

اسم قائل ذلك، وجائز أن يكون ذلك عزيزا، وجائز أن يكون إرميا، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه، إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك. وإنما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم، وإعادتهم بعد فنائهم، وأنه الذى بيده الحياة والموت من قريش، ومن كان يكذب بذلك من سائر العرب، وتثبيت الحجة بذلك على من كان بين ظهرانى مهاجر رسول الله ﷺ من يهود بنى اسرائيل بإطلاعه نبيه محمد ﷺ على ما يزيل شكهم فى نبوته، ويقطع عذرهم فى رسالته، إذ كانت هذه الأنباء التى أوحاها إلى نبيه محمد ﷺ فى كتابه من الأنباء التى لم يكن يعلمها محمد ﷺ وقومه منهم، بل كان أمياً وقومه أميون.

٢ ـ وكقوله سبحانه وتعالى ﴿وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣)﴾ (الأعراف/١٦٣)، والمراد أيله وقيل: طبرية، قال ابن كثير:

«هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت) الآية يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه (واسألهم) أى واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم لئلا يحل بهم ماحل بإخوانهم وسلفهم وهذه القرية هى أيلة وهى على شاطىء بحر القلزم قال محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر) قال

هى قرية يقال لها أيلة بين مدين والطور وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة والسدى وقال عبد الله بن كثير القارى سمعنا أنها أيلة وقيل هى مدين وهو رواية عن ابن عباس، وقال ابن زايد هى قرية يقال له معنا بين مدين وعينونا وقوله (إذ يعدون فى السبت) أى يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فهى لهم بالوصاة به إذ ذاك (إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا) قال الضحاك عن ابن عباس أى ظاهرة على الماء وقال العوفى عن ابن عباس ظاهرة من كل مكان. قال ابن جرير وقوله (ويوم لايسبتون لاتأتيهم كذلك نبلوهم) أى نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء فى اليوم المحرم عليهم صيده وإخفائه عنهم فى اليوم الحلال لهم صيده (كذك نبولهم) نختبرهم (بما كانوا يفسقون) يقول بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها، وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التى معناها فى الباطن تعاطى الحرام وقد قال الفقيه الإمام أبو عبدالله بن بطة رحمه الله: حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «لاترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل».

٢ ـ وكقوله تعالى ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ (يونس/٩٨). والمراد نينوى قال القرطبى:

«قوله تعالى: (فلولا كان قرية آمنت) قال الأخفش والكسائي: أى فهلا. وفى مصحف أبى وابن مسعود «فهلا» وأصل لولا فى الكلام التحضيض أو الدلالة على

منع أمر لوجود غيره. ومفهوم من معنى الآية نفى إيمان أهل القرى ثم استثنى قوم يونس فهو بحسب اللفظ استثناء منقطع، وهو بحسب المعنى متصل لأن تقديره ما آمن أهل قرية إلا قوم يونس. والنصب في «قوم» هو الوجه، وكذلك أدخله سيبويه ليس من الأول، أى لكن قوم يونس هذاقول الكسائى والأخفش والفراء. ويجوز. «إلا قوم يونس» بالرفع، ومن أحسن ماقيل فى الرفع ما قاله أبو إسحاق الزجاج قال: يكون المعنى غير قوم يونس، فلما جاء بإلا أعرب الاسم الذى بعدها بإعراب غير كما قال:

وكل أخ مفارقه أخوه   لعمر أبيك إلا الفرقدان

وروى فى قصة قوم يونس عن جماعة من المفسرين: أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام وترك ماهم عليه فأبوا فقيل: إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم فقيل له: أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث ففعل، وقالوا: هو رجل لا يكذب فارقبوه فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لاشك فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا ودعوا الله ولبسوا المسوح وفرقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم، وردوا المظالم فى تلك الحالة. وقال ابن مسعود: وكان الرجل يأتى الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه فيرده والعذاب منهم فيما روى عن ابن عباس على ثلثى ميل. وروى على ميل. وعن ابن عباس أنهم غشيتهم ظلة وفيها حمرة قلم تزل تدنو حتى وجدوا حرها بين أكتافهم. وقال ابن جبير: غشيهم العذاب كما يغشى الثوب القبر،فلما صحت توبتهم رفع الله عنهم العذاب. وقال الطبري: خص قوم يونس من بين سائر الأمم بأن تيب عليهم بعد معاينة العذاب وذكر ذلك عن جماعة من

المفسرين. وقال الزجاج: إنهم لم يقع بهم العذاب، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان.

قال القرطبى: قول الزجاج حسن: فإن المعاينة التى لا تنفع التوبة معها هى التلبس بالعذاب كقصة فرعون، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك، وقوم يونس تابوا قبل ذلك. ويعضد هذا قوله عليه السلام: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».والغرغرة الحشرجة، وذلك هو حال التلبس بالموت، وأما قبل ذلك فلا. والله أعلم. وقد روى معنى ماقلناه عن ابن مسعود، أن قوم يونس لما وعدهم العذاب إلى ثلاثة أيام خرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا وفرقوا بين الأمهات والأولاد وهذا يدل على أن توبتهم قبل رؤية علامة العذاب، وسيأتى مسندا مبيناً فى سورة «الصافات» إن شاء الله تعالي. ويكون معنى (كشفنا عنهم عذاب الخزي) أى العذاب الذى وعدهم به يونس أنه ينزل بهم، لا أنهم رأوه عيانا ولامخايلة وعلى هذا لا إشكال ولاتعارض ولاخصوص، والله أعلم. وبالجملة فكان أهل نينوى فى سابق العلم من السعداء. وروى عن على رضى الله عنه أنه قال: إن الحذر لايرد القدر. وإن الدعاء ليرد القدر. وذلك أن الله تعالى يقول: (إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا). قال على رضى الله عنه: وذلك يوم عاشوراء.

قوله تعالى: (ومتعناهم إلى حين) قيل: إلى أجلهم قاله السدى وقيل: إلى أن يصيروا إلى الجنة أو إلى النار، قاله ابن عباس.

٤ ـ وقوله تعالى ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) ﴾ (الكهف/٧٧).

الخامس: التنبيه على العموم لبيان أن هذه الآية ليست خاصة بخلاف ما لو عين المبهم:

١ ـ كقوله تعالى ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠) ﴾ (النساء/ ١٠٠). قال القرطبي:

«فيه خمس مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد) شرط وجوابه. (فى الأرض مراغما)اختلف فى تأويل المراغم فقال مجاهد: المراغم المتزحزح. وقال ابن عباس والضحاك والربيع وغيرهم: المراغم المتحول والمذهب. وقال ابن زيد: والمراغم المهاجر وقاله أبو عبيدة.قال النحاس: فهذه الأقوال متفقة المعاني: فالمراغم المذهب والمتحول فى حال هجرة، وهو اسم الموضع الذى يراغم فيه، وهو مشتق من الرغام. ورغم أنف فلان أى لصق بالتراب. وراغمت فلانا هجرته وعاديته، ولا أبالى إن رغم أنفه. وقيل: إنما سمى مهاجرا ومراغما لأن الرجل كان إذا أسلم عادى قومه وهجرهم، فسمى خروجه مراغما، وسمى مصيره إلى النبى ﷺ هجرة. وقال السدي: المراغم المبتغى للمعيشة. وقال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: المراغم الذهب فى الأرض. وهذا كله تفسير بالمعني، وكله قريب بعضه من بعض فأما الخاص باللفظة فإن المراغم موضع المراغمة كما ذكرنا، وهو أن يرغم كل واحد من المتنازعين أنف صاحبه بأن يغلبه على مراده فكأن كفار قريش أرغموا أنوف المحبوسين بمكة، فلو هاجر منهم مهاجر لأرغم أنوف قريش لحصوله فى منعة منهم، فتلك المنعة هى موضع المراغمة، ومنه قول النابغة:

كطود يالذ بأركانه عزيز المراغم والمهرب

الثانية - قوله تعالى (وسعة) أى فى الرزق قاله ابن عباس والربيع والضحاك وقال قتادة: المعنى سعة من الضلالة إلى الهدى ومن العيلة إلى الغني. وقال مالك: السعة سعة البلاد. وهذا أشبه بفصاحة العرب فإن بسعة الأرض وكثرة المعاقل تكون السعة فى الرزق، واتساع الصدر لهمومه وفكره وغير ذلك من وجوه الفرج. ونحو هذا المعنى قول الشاعر:

وكنت إذا خليل رام قطعى وجدت وراى منفسحاً عريضا

وقول آخر:

لكان لى مضطرب واسع فى الأرض ذات الطول والعرض

الثالثة - قال مالك: هذه الآية دالة على أنه ليس لأحد المقام بأرض يسب.فيها السلف ويعمل فيها بغير الحق. وقال: والمراغم الذهاب فى الأرض. والسعة سعة البلاد على ما تقدم. واستدل أيضا بعض العلماء بهذه الآية على أن الغازى إذا خرج إلى الغزو ثم مات قبل القتال له سهمه وإن لم يحضر الحرب رواه ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن أهل المدينة. وروى ذلك عن ابن المبارك أيضا.

الرابعة - قوله تعالي: (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله) الآية. قال عكرمه هذا دليل على شرف هذا العلم قديما، وأن الاعتناء به حسن والمعرفة به فضل ونحو منه قول ابن عباس: مكثت سنين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، ما يمنعنى إلا مهابته. والذى ذكره عكرمة هو ضمره بن العيص أو العيص بن ضمرة بن رنباع حكاه الطبرى عن سعيد بن جبير. ويقال فيه: ضميرة

أيضا. ويقال: حندع بن ضمرة من بنى ليث، وكان من المستضعفين بمكة وكان مريضا، فلما سمع ما أنزل الله فى الهجرة قال: أخروجونى فهيء له فراش ثم وضع عليه وخرج به فمات فى الطريق بالتنعيم، فأنزل الله فيه (ومن يخرج من بيته مهاجرا) الآية. وذكر أبو عمر أنه قد قيل فيه: خالد بن حزام بن خويلد ابن أخى خديجة، وأنه هاجر إلى أرض الحبشة فنهشته حية فى الطريق فمات قبل أن يبلغ أرض الحبشة فنزلت فيه الآية، والله أعلم. وحكى أبو الفرج الوزى أنه حبيب بن ضمرة. وقيل: ضكرة بن جندب الضمرى عن السدي. وحكى عن عكرمة أنه جندب بن ضمرة الجندعي. وحكى عن ابن جابر أنه ضمرة بن بغيض الذى من بنى ليث. وحكى المهدوى أنه ضمرة بن ضمرة بن نعمي. وقيل: ضمرة بن خزاعة، والله أعلم. وروى معمر عن قتادة قال: لما نزلت (إن الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) الآية، قال رجل من المسلمين وهو مريض: والله ما لى من عذر! إنى لدليل فى الطرق، وإنى لموسر، فاحملوني. فحملوه فأدركه الموت فى الطريق فقال أصحاب النبى ﷺ: لو بلغ إلينا لتم أجره وقد مات بالتنعيم. وجاء بنوه إلى النبى ﷺ وأخبروه بالقصة، فنزلت هذه الآية (ومن يخرج من بيته مهاجرا) الآية. وكان اسمه ضمرة بن جندب، ويقال: جندب بن ضمرة على ما تقدم. (وكان الله غفورا) لما كان منه من الشرك. (رحيما) حين قبل توبته.

الخامسة قال ابن العربي: قسم العلماء رضى الله عنهم الذهاب فى الأرض قسمين: هربا وطلبا فالأول ينقسم إلى ستة أقسام - الأول الهجرة وهى الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضا فى أيام النبى ﷺ، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والتى انقطعت بالفتح هى القصد إلى النبى ﷺ حيث كان

فإن بقى فى دار الحرب عصى ويختلف فى حاله . الثاني ـ الخروج من أرض البدعة قال ابن القاسم سمعت مالكا يقول لا يحل لأحد أن يقيم بأرض يسب فيها السلف. قال ابن العربي: وهذا صحيح فإن المنكر إذا لم تقدر أن تغيره فزل عنه. قال الله تعالي: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) ﴾ (الأنعام/٦٨)، الثالث ـ الخروج من أرض غالب عليها الحرام: فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم. الرابع ـ الفرار من الأذية فى البدن وذلك فضل من الله أرخص فيه، فإذا خشى على نفسه فقد أذن الله فى الخروج عنه والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المحذور. وأول من فعله إبراهيم عليه السلام فإنه لما خاف من قومه قال ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي (٢٦) (العنكبوت/٢٦)، وقال: (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) (الصافات/٩٩). وقال مخبرا عن موسي: (فخرج منه خائفا يترقب) (القصص/٢١)، الخامس ـ خوف المرض فى البلاد الوخمة والخروج منها إلى الأرض النزهة. وقد أذن ﷺ حين استوخموا المدينة أن يخرجوا إلى المسرح فيكونوا فيه حتى يصحوا. وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون فمنع الله سبحانه بالحديث الصحيح عن نبيه ﷺ، وقد تقدم بيانه فى «البقرة»، بيد أن علماءنا قالوا: هو مكروه . السادس ـ الفرار خوف الأذية فى المال فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، والأهل مثله وأوكد. وأما قسم الطلب فينقسم قسمين: طلب دين وطلب دنيا فأما طلب الدين فيتعدد بتعدد أنواعه إلى تسعة أقسام: الأول ـ سفر العبرة قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (٩) ﴾ (الروم/٩) وهو كثير. ويقال: إن ذا القرنين إنما طاف (الأرض) ليرى عجائبها.

وقيل: لينفذ الحق فيها. الثاني ـ سفر الحج. والأول وإن كان ندبا فهذا فرض. الثالث ـ سفر الجهاد وله أحكامه. الرابع ـ سفر المعاش فقد يتعذر على الرجل معاشه مع الإقامة فيخرج فى طلبه لايزيد عليه، من صيد أو احتطاب أو احتشاش فهو فرض عليه. الخامس ـ سفر التجارة والكسب الزائد على القوت.

وذلك جائز بفضل الله سبحانه وتعالى قال الله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ (١٩٨) ﴾ (البقرة/١٩٨) يعنى التجارة، وهى نعمة من الله من بها فى سفر الحج فكيف إذا انفردت. السادس ـ فى طلب العلم وهو مشهور. السابع ـ قصد البقاع قال ﷺ: «لاتشد الرحال إلى إلى ثلاثة مساجد». الثامن ـ الثغور للرباط بها وتكثير سوادها للذب عنها. التاسع ـ زيارة الإخوان فى الله تعالى قال رسول الله ﷺ: زار رجل أخاً له فى قرية فأرصد الله له ملكا على مدرجه فقال أين تريد فقال أريد أخاً لى فى هذه القرية قال هل لكم من نعمة تربها عليه قال لا غير أنى أحببته فى الله عز وجل قال فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه». رواه مسلم وغيره.

٣ ـ قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤) ﴾ (البقرة/٢٧٤)، قيل أنزلت فى على كرم الله وجهه لبيان كثرة تصدقه ولكن استعمال (من) و(الذين) وهم من صيغ العموم يدل على أنها تشمل كل من يفعل ذلك..

السادس: تعظيمه بالوصف المكمل دون الاسم:

أمثله:

قوله تعالى ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ

وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (النور/٢٢)، يقول ابن كثير فى تفسيرها:

«يقول تعالى (ولا يأتل) من الألية وهى الحلف، أى لا يحلف (أولو الفضل منكم) أى الطول والصدقة والإحسان (والسعة) أى الجدة (أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله) أى لاتحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين. وهذا فى غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام. ولهذا قال تعالي: (وليعفوا وليصفحوا أى عما تقدم منهم من الإساءة والأذي؟ وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفهسم،وهذه الآية نزلت فى الصديق رضى الله عنه حين حلف أن لاينفع مسطح بن أثاثه بنافعة بعدما قال فى عائشة ماقال، كما تقدم فى الحديث، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين فى ذلك،وأقيم الحد على من أقيم عليه - شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة، ويعطف الصديق على قريبه ونسيبه وهو مسطح بن أثاثه، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكين لا مال له إلا ماينفق عليه أبو بكر رضى الله عنه وكان من المهاجرين فى سبيل الله، وقد ولق ولقة تاب الله عليه منها وضرب الحد عليه، وكان الصديق رضى الله عنه معروفا بالمعروف، له الفضل والأيادى على الأقارب والأجانب. فلما نزلت هذه الأية إلى قوله (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) الآية، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك، فعند ذلك قال الصديق: بلى والله إنا نحب - يا ربنا - أن تغفر لنا ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا، فى مقابلة ما كان، قال والله لا أنفعه بنافعة أبدا، فلهذا كان الصديق هو الصديق رضى الله عنه وعن بنته.

وكذلك ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) ﴾ (الزمر/٣٣)، يعنى محمداً ﷺ (وصدق به) يعنى أبا بكر) ودخل فى الآية كل مصدق، ولذلك قال (أولئك هم المتقون) لأن الاسم الموصول (أولئك) من صيغ العموم.

السابع: تحقير بالوصف الناقص.

أمثلة:

١ ـ قوله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ (النساء/٥٦)، وقوله تعالى ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣) ﴾ (الكوثر/٣)، والمراد فيها العاص بن وائل.

٢ ـ قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) ﴾ (الحجرات/٦)، والمراد الوليد بن عقبة بن أبى معيط.

نماذج من المبهمات فى القرآن:

(أ) من مبهمات الأشخاص:

١ ـ قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ (البقرة/١٢٩)، المراد به سيدنا محمد ﷺ.

٢ ـ قوله جل جلاله ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ

بالعباد (٢٠٧) ﴾ (البقرة/٢٠٧)، هو صهيب الرومى، هاجر النبى ﷺ فاتبعه نفر من قريش يمنعونه من الهجرة، فاشترى نفسه منهم بما له فقدم المدينة فقال له النبى ﷺ (ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى) ونزلت الآية.

قول الله سبحانه وتعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) ﴾ (البقرة/٢٤٦)، قال ابن كثير:

«قال عبدالرازق عن معمر عن قتادة: هذا النبى هو يوشع بن نون قال ابن جرير: يعنى ابن أفرايم بن يوسف بن يعقوب، وهذا القول بعيد لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل، وكان ذلك فى زمن داود عليه السلام، كما هو مصرح به فى القصة، وقد كان بين داود وموسى ماينيف عن ألف سنة، والله أعلم وقال السدي: هو شمعون. وقال لمجاهد: هو شمويل عليه السلام. وكذا قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه: وهو شمويل بن بالى بن علقمة بن ترخام بن اليهد بن بهرض بن علقمة بن ماجب بن عموصا بن عزريا بن صفية بن علقمة بن أبى ياشف بن قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام. وقال وهب بن منبه وغيره: كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا أحداثاً، وعبد بعضهم الأصنام ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على منهج التوارة، إلى أن فعلوا فسلط الله عليهم أعداءهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقا كثيرا، وأخذوا منهم بلادا كثيرة، ولم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبوه، وذلك أنهم كان عندهم التوارة، والتابوت

الذى كان فى قديم الزمان، وكان ذلك موروثا لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام، فلم يزل به تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك فى بعض الحروب، وأخذوا التوارة من أيدهم، ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم ولم يبق من سبط لاوى الذى يكن فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل، فأخذوها فحبسوها فى بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاما يكن نبيا لهم، ولم تزل المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلاما، فسمع الله ووهبها غلاما، فسمته شمويل، أى سمع الله دعائي، ومنهم من يقول: شمعون، وهو بمعناه فشب ذلك الغلام، ونشأ فيهم، وأنبته الله نباتاً حسناً، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه وأمره بالدعوة إليه وتوحيده فدعا بنى إسرائيل، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكا يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك أيضاً قد باد فيهم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكا ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه (قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) أى وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد، قال الله تعالى: (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين) أى ما وفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم.

٤ ـ قول الله تعالى ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ (البقرة/٢٥٩)، قال القرطبى:

«قوله تعالى: (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها) «أو» للعطف حملا على المعنى والتقدير عند الكسائى والفراء أى هل رأيت كالذى حاج إبراهيم فى ربه، أو كالذى مر على قرية. وقال المبرد: المعنى ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه، ألم تر من هو؛ كالذى مر على قرية. فأضمر فى الكلام من هو. وقرأ أبو سفيان بن حسين «أو كالذى مر» بفتح الوار، وهى واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام الذى معناه التقرير. وسميت القرية قرية لاجتماع الناس بها من قولهم: قرية الماء أى جمعته وقد تقدم . قال سليان بن بريدة وناجية بن كعب وقتادة وابن عباس والربيع وعكرمة والضحاك: الذى مر على القرية هو عزيز. وقال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد بن عمير وعبد الله بن بكر بن مضر: هو إرمياء وكان نبيا. وقال ابن إسحاق: إرمياء هو الخضر، وحكاه النقاش عن وهب بن منبه. قال ابن عطية: وهذا تراه إلا أن يكون اسما وافق اسما لأن الخضر معاصر لموسي، وهذا الذى مر على القرية هو بعده بزمان من سبط هارون فيما رواه وهب بن منبه.

قلت: إن كان الخضر هو إرمياء فلا يبعد أن يكون هو لأن الخضر لم يزل حيا من وقت موسى حتى الآن على الصحيح فى ذلك، على ما يأتى بيانه فى سورة «الكهف». وإن كان مات قبل هذه القصة فقول ابن عطية صحيح، والله أعلم. وحكى النحاس ومكى عن مجاهد أنه رجل من بنى إسرائيل غير مسمي. قال النقاش: ويقال هو غلام لوط عليه السلام. وحكى السهيلى عن القتبى هو شعيا فى أحد قوليه. والذى أحياها بعد خرابها كوشك الفارسي. والقرية المذكورة هى بيت المقدس فى قول وهب بن منبه وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم. قال: وكان مقبلا من مصر وطعامه وشرابه المذكوران تبين (أخضر) وعنب وركوة من خمر. وقيل من عصرى. وقيل: قلة ماء هى شرابه. والذى أخلى بين المقدس حينئذ بختنصر وكان

واليا على العراق للهرسب ثم ليستاسب بن لهراسب والد اسبندياد. وحكى النقاش أن قوما قالوا: هى المؤتكفة. وقال ابن عباس فى رواية أبى صالح: إن بختنصر إسرائيل فسبى منهم إناسا كثيرة فجاء بهم وفيه عزيز بن شريخا وكان من بنى إسرائيل فجاء بهم إلى بابل، فخرج ذات يوم فى حاجة له إلى دير هرقل على شاطيء الدجلة، فنزل تحت ظل شجرة وهو على حمار له، فربط الحمار تحت الشجرة ثم طاف بالقرية فلم ير بها ساكنا وهى خاوية على عروشها فقال: أنى يحيى هذه الله بعد موتها. وقيل: إنها القرية التى خرج منها الألوف حذر الموت قاله ابن زيد. وعن ابن زيد أيضا أن القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا مر رجل عليهم وهم عظام (نخرة) تلوح فوقف ينظر فقال: أنى يحيى هذه الله بعد موتها! فأماته الله مائة عام. قال: ابن عطية: وهذا القول من ابن زيد مناقض لألفاظ الآية إذ الآية إنما تضمنت قرية قروية لا أنيس فيها، والإشارة بـ «هذه» إنما هى إلى القرية. وإحياؤها إنما هو بالعمارة ووجود البناء والسكان. وقال وهب بن منبه وقتادة والضحاك والربيع وعكرمة: القرية بيت المقدس لما خربها بختنصر البابلي. وفى الحديث الطويل حين أحدثت بنو إسرائيل الأحداث وقف إرمياء أو عزير على القرية وهى كالتل العظيم وسط بيت المقدس، لأن بختنصر أمر جنده حتى جعله كالجبل، ورأى إرمياء البيوت قد سقطت حيطانها على سقوفها فقال أنى يحى هذه الله بعده موتها.

والعريش: سقف البيت. وكل ما يتهيأ ليظل أو يسكن فهو عريش ومنه عريش الدابة ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (النحل/٦٨)، قال السدى: يقول هى ساقطة على سقفها، أى سقطت السقف ثم سقطت الحيطان عليها واختاره

الطبرى. وقال غير السدى: معناه خاوية من الناس والبيوت قائمة وخاوى معناها خالية وأصل الخواء الخلو يقال: خوت الدار وخويت تخوى خواء (ممدود) وخويا: أقوت، وكذلك إذا سقطت ومنه قوله تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا (٥٢) ﴾ (النمل/٥٢)، أى خالية ويقال ساقطة كما قال: ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا (٤٥) ﴾ (الحج/٤٥)، أى ساقطة على سقفها. والخلوء الجوع لخلو البطن من الغذاء. وخوت المرأة وخويت أيضا خوى أى خلا جوفها عند الولادة. وخويت لها تخوية إذا عملت لها خوية تأكلها وهى طعام. والخوى البطن السهل من الأرض على فعيل. وخوى البعير إذا جافى بطنه عن الأرض فى بروكه، وكذلك الرجل فى سجوده.

٤ ـ قوله تعالى ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) ﴾ (البقرة/١٨٧)، نزلت فى عمر بن الخطاب وفى صرمة بن قيس.

قال ابن كثير: «هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين ورفع لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم (وهو صائم) إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك فمن نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام الشراب والجماع إلى الليلة القابلة ووجدوا من ذلك مشقة كبيرة».

وعن البراء بن عازب) قال: عن أصحاب النبى ﷺ إذا كان الرجل صائما

فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائما، فلما حضر الإفطار أتى امرأته، فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا ، ولكن انطلق اطلب لك،وكان يومه يعمل فغلبته عينه وجاءته امرأته، فلما رأته قالت: خيبة لك، فلما انتصف النهار غشى عليه، فذكر ذلك النبي ﷺ فنزلت هذه الآية، ففرحوا بها فرحا شديدا.

وروى البخارى عن البراء رضى الله عنه قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم).

قال الحافظ ابن حجر فى فتح الباري: وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق عبدالله بن كعب بن مالك عن أبيه قال كان الناس فى رمضان إذا صام الرجل فأمسى فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد فرجع عمر بن الخطاب من عند النبى صلى الله عليه وسلم وقد سمر عنده فأراد امرأته فقالت إنى قد نمت قال ما نمت ووقع عليها وصنع كعب بن مالك مثل ذلك فنزلت.

٦ ـ قوله تعالى ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) ﴾ (البقرة/١٩٦)، نزلت هذه الآية فى كعب بن عجرة.

روى الترمذى عن مجاهد قال كعب بن عجرة والذى نفسى بيده لقد نزلت هذه

الآية وإياى عنى بها (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) قال كنا مع النبى ﷺ بالحديبية ونحن محرمون وقد حصرنا المشركون وكان لى وفرة فجعلت الهوام تساقط على وجهى فمر بى النبى ﷺ فقال كأن هوام رأسك تؤذيك قال قلت نعم قال فاحلق ونزلت هذه الآية قال مجاهد الصيام ثلاثة أيام والطعام لستة مساكين والنسك شاة فصاعدا.

٧ ـ قوله تعالى ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) ﴾ (البقرة/٢٣٢).

روى الترمذى عن الحسن عن معقل بن يسار أنه زوج أخته رجلا من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة فهويها وهويته خطبها مع الخطاب فقال أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها والله لا ترجع إليك أبدا آخر ما عليك الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله تبارك وتعالى (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) إلى قوله (وأنتم تعلمون) فلما سمعها معقل قال سمعا لربى وطاعة ثم دعاه فقال أزوجك وأكرمك.. قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح. وفى هذا الحديث دلالة على أنه لايجوز النكاح بغير ولى لأن أخت معقل بن يسار كانت ثيبا فلو كان الأمر إليها دون وليها لزوجت نفسها ولم تحتج إلى وليها معقل بن يسار وإنما خاطب الله فى هذه الآية الأولياء فقال (لا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) ففى هذه الآية دلالة على أن الأمر إلى الأولياء فى التزويج مع رضاهن.

٨ ـ وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَٰئِكَ لا خَلاقَ

لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ (آل عمران/٧٧)، نزلت هذه الآية فى الأشعث بن قيس فقد روى الإمام البخارى فى صحيحه عن الأعمش عن شقيق عن عبدالله رضى الله عنهم قال: قال رسول لله ﷺ من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع به مال امريء مسلم لقى الله وهو عليه غضبان قال فقال الأشعث فى والله كان ذلك كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحدنى فقدمته إلى النبى ﷺ فقال لى رسول الله ﷺ ألك بينه قلت لا قال فقال لليهودى أحلف قال قلت يا رسول الله إذا يحلف ويذهب بمالى فأنزل الله تعالى (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) إلى آخر الآية.

وروى الإمام الترمدى فى سننه عن الأعمش عن شقيق بن سلمة عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مال امريء مسلم لقى الله وهو عليه غضبان فقال الأشعت بن قيس فى والله لقدكان ذلك كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحدنى فقدمته إلى النبى ﷺ فقال لى رسول الله ﷺ ألك بينة قلت لا فقال لليهودى أحلف فقلت يا رسول الله إذا يحلف فيذهب بمالى فأنزل الله تعالى (إن الذى يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا) إلى آخر الآية قال أبو عيسى: حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح.

٩ ـ قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (آل عمران/١٩٣)، قال السيوطى فى مبهمات القرآن «ذكره ابن أبى حاتم وغيره».

١٠ ـ قوله تعالى ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء/٥٦)، نزلت فى

الزبير ورجل من الأنصار اختصما إلى رسول الله ﷺ فغضب الأنصارى من حكم الرسول ﷺ، وقد روى الإمام البخارى فى صحيحه عن عبدالله بن الزبير رضى الله عنهما أنه حدثة أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير عند النبى ﷺ فى شراج الحرة التى يسقون بها النخل فقال الأنصارى سرح الماء يمر فأبى عليه فاختصما عند النبى ﷺ فقال رسول الله ﷺ للزبير أسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك فغضب الأنصارى فقال إن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر فقال الزبير والله إنى لأحسب هذه الآية نزلت فى ذلك .فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم).

١١ ـ قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)﴾ (النساء/٩٤).

روى الإمام البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما (ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمنا) قال ابن عباس كان رجل فى غنيمة له فلحقه المسلمون فقال السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته فأنزل الله فى ذلك إلى قوله (تبتغون عرض الحياة الدنيا) تلك الغنيمة قال قرأ ابن عباس السلام.

(ب) ومن مبهمات الجموع:

قوله تعالى ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨)﴾ (آل عمران/١٨٨)، نزلت فى رجال من المنافقين كما روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى أن رجالا من المنافقين فى عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج النبى ﷺ إلى الغزو

تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم النبى ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب).

ـ قوله تعالى ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (آل عمران/١٢٢)، روى الإمامان البخارى ومسلم فى صحيحيهما أن الطائفتين هما بنو حارثة وبنو مسلمة، روى الإمام البخاري: قال عمرو سمعت جابر بن عبدالله رضى الله عنهما يقول فينا نزلت (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما) قال نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة وما نحب وقال سفيان مرة (ما يسرنى أنها تنزل لقول الله (والله وليهما).

قوله جل جلاله ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ (ال عمران/١٥٤)، هم المنافقون فقد روى الإمام الترمذى فى سننه عن ابى طلحة قال رفعت رأس يوم أحد فجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد الا يميد تحت حجفته من النعاس فذلك قوله عز وجل (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح حدثنا عبد بن حميد حدثنا روح بن عبادة عن حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير مثله قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

ـ قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧) ﴾ (النساء/٧٧)، سمى منهم عبدالرحمن بن عوف فقد أخرج النسائى فى سننه عن ابن عباس أن عبدالرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبى ﷺ بمكة فقالوا يا رسول الله إنا كنا فى عز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة فقال إنى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا فلما حولنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال فكفوا فأنزل الله عز وجل (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة).

ـ قوله تعالى ﴿ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) ﴾ (النساء/٩٨)، روى الإمام البخارى فى صحيحه عن ابن أبى مليكه أن ابن عباس تلا (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان) قال كنت أنا وأمى ممن عذر الله ويذكر عن ابن عباس (حصرت) ضاقت (تلوو) ألسنتكم بالشهادة وقال غيره المراغم المهاجر رغمت هاجرت قومى (موقوتا) موقتا وقته عليهم.

قوله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) ﴾ (المائدة/٣٣)، قال الطبرى فى تفسيره لهذه الآية:

«حدثنا الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب: أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية فكتب إليه أنس يخبره أن هذه

الآية نزلت فى أولئك النفر العرنيين، وهم من بجيلة. قال أنس: فارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعى، وساقوا الإبل وآخافوا السبيل وأصابوا الفرج الحرام. قال أنس: فسأل رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام عن القضاء فيمن حارب فقال «من سرق وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقته ورجله بإخافته. ومن قتل فاقتله. ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الإسلامية فاصلبه».

ـ قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) ﴾ (الأنفال/١)، من السائلين سعد بن أبى وقاص، فقد أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن مصعب بن سعد عن أبيه قال نزلت فىَّ أربع آيات أصبت سيفافأتى به النبى ﷺ فقال يا رسول الله نفلنيه فقال ضعه ثم قال فقال له النبى ﷺ ضعه من حيث أخذته ثم قام فقال نفلنيه يا رسول الله فقال ضعه فقال يا رسول الله نفلنيه أؤجعل كمن لا غناء له فقال له النبى ﷺ ضعه من حيث أخذته قال فنزلت هذه الآية (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول).

ـ قوله تعالى ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾ (التوبة/١١٨)، هم هلال بن أمية وكعب بن مالك ومرارة بن الربيع، جاء فى صحيح البخارى عن عبدالرحن بن عبدالله بن كعب بن مالك أن عبدالله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمى قال سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن غزوة تبوك قال كعب لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى

غزوة غزاها إلا فى غزوة تبوك غير أنى كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوه على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعدوا كثيرا فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذى يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان قال كعب فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى الله وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا فأقول فى نفسى أنا قادر عليه فلم يزل يتمادى بى حتى اشتد بالناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا فقلت أتجهز بعده ليوم أو يومين ثم ألحقهم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا ثم فغدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا فلم يزل بى حتى أسرعوا وتقارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتنى فعلت فلم يقدرلى ذلك فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطف فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصا عليه النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الناس ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى

القوم بتبوك ما فعل كعب فقال رجل من بني سلمة يا رسول الله حبسه بزاده ونظره في عطفه فقال معاذ بن جبل بئس ماقلت والله يا رسول الله علمنا عليه إلا خيرا فسكت رسول الله ﷺ كعب بن مالك فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرني همي وطفقت أتذكر الكذب وأقول بعد أن أخرج من سخطه غدا واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب فأجمعت صدقه وأصبح رسول الله ﷺ قادما وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانى رجلا فقبل منهم رسول الله ﷺ على نيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال تعالى فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك فقلت بلى إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله لا والله ما كان لي من عذر والله ماكنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال رسول الله ﷺ أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمت وثار رجال من بني سلمة فأتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ولقد عجزت أن لاتكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ثم قلت لهم هل لقي هذا معي أحد قالوا نعم رجلان قال لا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت من هما قالوا

مرارة بن الربيع العمرى وهلال بن أمية الواقفى فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لى ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى التى أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباى فسكنا وقعدا فى بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أسب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ثم أصلى قريبا منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى وإذا التفت نحوه أعرض عنى حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام فقلت يا أبى قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فقال الله ورسوله أعلم ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار قال فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطىّ من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءنى دفع إلى كتابا من ملك غسان فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان لامضيعة فالحق بنا نواسك فقلت لما قرأتها وهذا أيضا من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته بها حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول الله ﷺ يأتينى فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قال لا بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلى صاحبى مثل ذلك فقلت لامرأتى الحقى بأهلك فتكونى عندهم

حتى يقضى الله فى هذا الأمر قال كعب فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربك قالت إنه والله ما به حركة إلى شىء والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا قال لى بعض أهلى لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه قلت والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدرينى مايقول رسول الله ﷺ إذا أستأذنته فيها وأنا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا فلا صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله قد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أو فى جبل سلع بأعلى صوته ياكعب بن مالك أبشر قال فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرج وأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبى مبشرون وركض إلى رجل فرسا وسعى ساع من أسل فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوته إياهما ببشراه والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقانى الناس فوجا فوجا يهنونى بالتوبة يقولون لتهنك توبة الله عليك قال كعب حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنانى والله

ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله قال لا بل من عند الله وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسول الله قال رسول الله ﷺ أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قلت فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر فقلت يا رسول الله إنما نجانى الله بالصدق وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما حييت فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا كذبا وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت وأنزل الله على رسوله ﷺ (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار) إلى قوله (وكونوا مع الصادقين) فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد فقال تبارك وتعالى (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم) إلى قوله (فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) قال كعب وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه فبذلك قال الله (وعلى الثلاثة الذين ذكر الله ما خلفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

- قوله جل جلاله ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) ﴾ (الفتح/٢٤).

قال الطبري في نفسير هذه الآية:

«يقول تعالى ذكره لرسوله ﷺ: والذين بايعوا الرضوان وهو الذي كف أيديهم عنكم يعني أن الله كف أيدي المشركين الذين كانوا خرجوا علي عسكر رسول الله ﷺ بالحديبية يلتمسون غرتهم ليصيبوا منهم فبعث رسول الله ﷺ فأتي بهم أرس فخلي عنهم رسول الله ﷺ، ومن عليهم ولم يقتلهم فقال الله للمؤمنين: وهو الذي كف أيدى هؤلاء المشركين عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وبنحو الذي قلنا في ذلك جاءت الآثار ذكر الرواية بذلك:

عن عكرمة مولي ابن عباس، أن قريشا كانوا بعثوا أربعين رجلا منهم أو خمسين، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحدا فأخذوا أخذا فأتي بهم رسول الله ﷺ. وخلي سبيلهم وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله ﷺ بالحارة والنبل. قال ابن حميد، قال سلمة، قال ابن إسحاق: ففي ذلك قال: وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم.. الآية.

عن أنس بن مالك أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الفجر ليقتلوهم فأخذهم رسول الله ﷺ فأعتقهم، فأنزل الله وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيدكم عنهم.. إلي آخر الآية».

- قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) ﴾ (الحجرات/٤)، روى الإمام الترمذى فى سننه عن البراء بن عازب قوله (إن الذين

يناودنك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) قال فقام رجل فقال يا رسول الله إن حمدي زين وإن ذمى شين فقال النبى ﷺ ذاك الله.

وروي الإمام أحمد في مسنده عن الأقرع بن حابس أنه نادي رسول الله ﷺ من وراء الحجرات فقال يا رسول الله فلم يجبه رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ألا إن حمدي زين وإن ذمي شين قال رسول الله ﷺ كماحدث أبو سلمة ذاك الله عز وجل.

ـ قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾ (الممتحنة/ ١٠)، قال الطبرى فى تفسير هذه الآية:

«حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: كانت المرأة من المشركين إذا غضبت علي زوجها، وكان بينه وبينها كلام قالت: والله لأهاجرن إلي محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فقال الله عز وجل: إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن إن كان الغضب أتي بها فردوها، وإن كان الإسلام أتى بها فلا تردوها.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن محمد بن إسحاق، قال: وقال الزهري: لما نزلت هذه الآية يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات.. إلي قوله: ولاتمسكوا بعصم الكوافر كان ممن طلق عمر بن الخطاب رضى الله عنه امرأته قريبة ابنه أبي أمية بن المغيرة، فتزوجها بعده معاوية بن أبي سفيان، وهما على شركهما بمكة وأم كلثوم ابنة

جرول الخزاعية أم عبدالله بن عمر فتزوجها أبو جهم بن حذافة بن غانم رجل من قومه، وهما على شركهما وطلحة بنى عبيد الله بن عثمان بن عمرو التيمى كانت عنده أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، ففرق بينهما الإسلام حين نهى القرآن عن التمسك بعصم الكوافر، وكان طلحة قد هاجر وهى بمكة على دين قومها، ثم تزوجها فى الإسلام بعد طلحة خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبدشمس. وكان ممن فر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نساء الكفار ممن لم يكن بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فحبسها وزوجها رجلا من المسلمين أميمة بنت بشر الأنصارية، ثم إحدى نساء بنى أمية بن زيد من أوس الله، كانت عند ثابت بن الدحداحة، ففرت منه، وهو يومئذ كافر إلى رسول الله ﷺ فزوجها رسول الله ﷺ سهل بن حنيف أحد بنى عمرو بن عوف، فولدت عبدالله بن سهل.،

حدثنى ابن عبدالأعلى، قال: ثنا ابن ثور عن معمر، عن الزهرى، قال الله: ولا تمسكوا بعصم الكوافر قال: الزهرى: فطلق عمر امرأتين كانتا له».

ـ قوله تعالى ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ﴾ (الجمعة/٣)، روى الإمام البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنهم قال كنا جلوسا عند النبى صلى اللهم عليه وسلم فأنزلت عليه سورة الجمعة (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قال قلت من هم يا رسول الله فلم يراجعه حتى سأل ثلاثا وفينا سلمان الفارسى وضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء.

(جـ) ومن مبهمات الأماكن:

١ ـ قوله تعالى ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ (البقرة/٢٥٩)، المراد بها بيت المقدس.

٢ ـ قوله جل جلاله ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) ﴾ (الأعراف/١٦٣)، هى إيلة كما أخرجه الحاكم فى المستدرك وصححه ووافقه الذهبى وكذا رواه البيهقى فى السنن الكبرى.

٣ ـ قوله سبحانه تعالى ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) ﴾ (التوبة /١٠٨)، هو مسجد المدينة كما روى الإمام الترمذى فى سننه عن أبى سعيد الخدرى أنه قال تمارى رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم فقال رجل هو مسجد قباء وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ هو مسجدى.

٤ ـ قوله تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ (يونس/٩٨)، هى نينوى بشاطىء دجلة من من بلاد الموصل، كما مر فى تفسير هذه الآية للقرطبى.

٥ ـ قوله جل جلاله ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) ﴾ (مريم/١٦)، قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية:

أى اعتزلتهم وتنحت عنهم وذهبت إلى شرق المسجد المقدس. وقال لسدى لحيض أصابها وقيل لغير ذلك.

قال أبو كدينة عن قابوس بن أبى يظبيان عن أبيه عن ابن عباس قال: إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه، وما صرفهم عنه إلا قول ربك: (فانتبذت من أهلها مكانا شرقياً) قال: خرجت مريم مكانا شرقيا فصلواقبل مطلع الشمس، رواه ابن أبى حاتم وابن جرير. وقال ابن جرير أيضا: حدثنا إسحاق بن شاهين، حدثنا خالد بن عبدالله عن باود عن عامر عن ابن عباس قال: إنى لأعلم خلق الله لأى شىء اتخذت النصارى المشرق قبلة لقول الله تعالى: (فانتبذت من أهلها مكانا شرقيا) واتخذوا ميلاد عيسى قبلة. وقال قتادة (مكانا شرقيا) شاسعاً منتحيا، قال محمد بن إسحاق: ذهبت بقلتها لتستقى الماء. وقال نوف البكالى: اتخذت لها منزلا تتعبد فيه فالله أعلم».

٧- قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾ (مريم/٥٦، ٥٧)، هو السماء الرابعة كما روى الإمام مسلم فى صحيحه فى حديث الإسراء والمعراج إذ قال فيه:

« ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قال وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب ودعا لى بخير قال الله عز وجل (ورفعناه مكانا عليا) ».

٨ - قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحقاف/٢١)، قال القرطبى فى تفسيره:

«والأحقاف: ديار عاد. وهى الرمال العظام فى قول الخليل وغيره. قهروا أهل الأرض بفضل قوتهم. والأحقاف جمع حقف، وهو ما استطال من الرمل العظيم وأعوج ولم يبلغ أن يكون جبلا، والجمع أحقاف . (،وحقوف). واحقوقف الرمل والهلال أى أعوج. وقيل: الحقف جمع حقاف. والأحقاف جمع الجمع. ويقال: حقف أحقف. قال الأعشى:

بات إلى أرطاة حقف أحقفا   أى رمل مستطيل مشرف.

والفعل منه احقوقف.

قال العجاج:

طى الليالى زلفا فزلفـــا   سماوة الهلال حتى احقوقفا

أى انحنى واستدار.

وقال امرؤ القيس:

كحقف النقا يمشى الوليدان فوقه   بما احتسبا من لين مس وتسهال

وفيما أريد بالأحقاف هاهنا مختلف فيه. فقال ابن زيد: هى رمال مشرقة مستطيلة كهيئة الجبال، ولم تبلغ أن تكون جبالاً وشاهده ما ذكرناه وقال قتادة" هى جبال مشرفة بالشحر، والشحر قريب من عدن يقال: شحر عمان وشحر عمان، وهو ساحل البحر بنى عمان وعدن. وعنه أيضا: ذكر لنا أن عادا كانواأحياء باليمن، أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشحر. وقال مجاهد: هى أرض من حسمى تسمى بالأحقاف. وحسمى (بكسر الحاء) اسم أرض بالبادية فيها جبال شواهق ملس الجوانب لايكاد القتام يفارقها. قال النابغة:

فأصبح عاقلاً بجبال حسمى دقاق الترب محتزم القتام

قاله الجوهرى: وقال ابن عباس والضحاك: الأحقاف جبل بالشام. ،عن ابن عباس أيضا: واد بين عمان ومهرة. وقال مقاتل: كانت منازل عاد باليمن فى حضرموت بواد يقال له مهرة وإليه تنسب الإبل المهرية فيقال: إبل مهرية ومهارى. وكانوا أهل عمد سيارة فى الربيع فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم وكانوا من قبيلة إرم. وقال الكلبى: أحقاف الجب لما نضب عن الماء زمان الغرق، كان ينضب الماء من الأرض ويبقى أثره. وروى الطفيل عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: خير واديين فى الناس واد بمكة وواد نزل به آدم بأرض الهند. وشر واديين فى الناس واد بالأحقاف وواد بحضرموت يدعى برهوت تلقى فيه أرواح الكفار. وخير بئر فى الناس بئر زمزم. وشر بئر فى الناس بئر برهوت، وهو فى ذلك الوادى الذى بحضرموت».

تطور التأليف فى علوم القرآن

ظهرت الحاجة إلى دراسة علوم القرآن الكريم مع تطور الفقه الإسلامى لارتباط الفتوى لمعرفة الأحكام المتعلقة بالآيات الكريمة (التى هى الدليل الأول من أدلة الحكم الشرعى) من حيث سبب النزول، والنسخ، والإحكام والتشابه. وغير ذلك، مما يعترى الآيات القرآنية. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد أدى ظهور علم الكلام والجدال حول آيات الصفات إلى تطور البحث فى الإعجاز القرآني، وما يتصل به من علوم البلاغة كالحقيقة والمجاز وما إلى ذلك. ويمكننا أن نتوقف - فى تطور علوم القرآن - عند ثلاث مراحل أساسية:

ويبدو أن البحث فى علوم القرآن قد بدأ مبكراً، فقد روى أن هارون الرشيد سأل الإمام الشافعى) فقال:

«كيف علمك ياشافعى بكتاب الله عز وجل؟ فقال الشافعى: عن أى كتاب من كتب الله تسألنى يا أمير المؤمنين؟ فإن الله تعالى أنزل كتبا كثيرة، قال الرشيد: قد أحسنت، لكن إنما سألت عن كتاب الله المنزل على ابن عمى محمد ﷺ فقال الشافعي: إن علوم القرآن كثيرة، فهل تسألنى عن محكمه ومتشابهه، أو عن تقديمه وتأخيره،أو عن ناسخه ومنسوخه، وصار يرد عليه من علوم القرآن».

<u>الأولى: مرحلة البحث النوعى فى علوم القرآن:</u> وهى تمتد عبر القرون الستة الأولى من عمر الإسلام وفى هذه المرحلة ظهرت مؤلفات تبحث فى ناحية أو أكثر من علوم القرآن، وحمل كل مؤلف منها اسم الناحية التى تفرد بدراستها: ومن كتب هذه المرحلة:

١ ـ كتب التفسير الموجودة والمفقودة المنسوبة لبعض التابعين، وتابعى التابعين، كمقاتل بن سليمان، ومجاهد بن جبر، ووكيع ابن الجراح، وسفيان بن عيينة، وشعبةج بن الحاج.. وغيرهم. وتتضمن هذه الكتب إشارات لأنواع من علوم القرآن كالناسخ والمنسوخ، والمكى والمدني، وردت ضمنيا فى ثنايا التفسير. وختمت هذه الكتب بأول تفسير جامع للقرآن الكريم وصل إلينا كاملا وهو تفسير محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ) المسمى (جامع البيان فى تفسير القرآن) الذى يعد هو البداية الحقيقية للتدوين المتكامل فى التفسير وعلوم القرآن، وقد احتوى كتابه (جامع البيان) إشارات لابأس بها إلى بعض علوم القرآن عندما يدعو إلى ذلك تفسيره، لإحدى الآيات ذات الصلة بذلك العلم فمثلا عندما يفسر قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ۝٧ ﴾ (آل عمران/٧). يذكر الآراء والروايات المنقولة فى تفسير كل من المحكم والمتشابه، كما تحدث عن المجمل والمبين والعام والخاص حديثا خاطفا عند تفسير لقوله تعالى ﴿ وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝١١٩ ﴾ (النساء/١١٩)، وتحدث عن الناسخ والمنسوخ عند تفسيره قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦ ﴾ (البقرة ١٠٦).

وكذلك تحدث عن الأحرف السبعة وجمع القرآن وترتيب سوره.

وقد كان لكتب التفسير الفضل فى التمهيد لعلوم القرآن من خلال تلك المقدمات التى وضعها المفسرون لكتبهم فى التفسير وأشاروا فيها لما يتصل بالقرآن، وتفسيره من علوم كما هو الحال فى مقدمة تفسير الطبرى (جامع البيان) وصنع صيغة الزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) فى مقدمة تفسيره (الكشاف) ثم القرطبى (ت ٦٧٠ هـ) فى مقدمة تفسيره (الجامع لأحكام القرآن الكريم) ثم ابن جزى الكلبى (ت ٧٤١ هـ) فى مقدمة تفسيره.

٢ ـ كتب متخصصة فى علم أو أكثر من علوم القرآن: وقد ظهر خلال القرن الثالث الهجرى علماء كتبوا مؤلفاتهم فى نوع معين من علوم القرآن مثل:

أ ـ القاسم بن سلم (ت ٢٢٤ هـ) وله كتاب فى غريب القرآن، وكتاب فى فضائل القرآن، وثالث فى الناسخ والمنسوخ.

ب ـ أبو داود السجستانى (ت ٢٧٥ هـ) وله كتاب فى الناسخ والمنسوخ، وكتاب (المصاحف) حققه الدكتور صلاح الدين الجيزاوى، فى كليه أصول الدين ـ جامعة الأزهر.

ت ـ على بن المدينى (شيخ البخارى) (ت ٢٣٤ هـ) وله كتاب فى أسباب النزول.

ث ـ كتاب (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ).

جـ ـ محمد بن أيوب الضريز (ت ٢٩٤ هـ) وله كتاب فى المكى والمدنى اسمه (فضائل القرآن).

كما ظهرت فى القرن الرابع الهجرى: كتب أخرى أكملت حلقات البحث العلمى فى علوم القرآن منها:

١ - (كتاب الحاوى فى علوم القرآن) لمحمد خلف المرزبان (ت ٣٠٩هـ)

٢ - كتاب (عجائب علوم القرآن) لأبى بكرالأنبارى (ت ٣٢٨ هـ)، ويشتمل على الأحرف السبعة وكتابة المصحف وعدد الآيات والسور.

٣ - كتاب (غريب القرآن) لأبى بكر السجستانى (ت ٣٣٠هـ).

٤ - كتاب (الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم) لأبى جعفر النحاس (ت ٣٣٩هـ).

٥ - كتب (فى إعجاز القرآن) الخطابى (ت ٣٨٨هـ). والرمانى (ت ٣٨٤هـ).

فلما كان القرن الخامس الهجرى بدأ نوع من التوسع يطرأ على ما تم تأليفه من كتب فى علوم القرآن بصورة أكثر دقة وتعمقاً عما كان فى القرون السبقة، فبدلاً من أن يكون الكتاب قائماً على دراسة علم واحد من علم القرآن، أصبحنا نجد كتبا تضم عدة علوم من علوم القرآن.

ومن الكتب التى اشتهرت من مؤلفات القرن الخامس:

أ - كتاب (البرهان فى علوم) للحوفى (بفتح الحاء) وهو على بن ابراهيم بن سعيد الحوفى (ت ٤٣٠هـ) وقد سبب اسم هذا الكتاب لبسا لدى كثيرين ممن ألفوا فى علوم القرآن فى عصرنا هذا، وهو ما يزال مخطوطاً حيث توجد منه ستة أجزاء متفرقة مخطوطة تحمل رقم (٥٩ تفسير) بدار الكتب المصرية ليس من بينهاالجزء الأول وتتمة اسم الكتاب هكذا (البرهان فى علوم القرآن من الغريب والإعراب والأحكام والقراءات والتفسير والناسخ والمنسوخ وعدد الآية والتنزيل والوقف والتمام والاشتقاق والتصريف)، وقد اطلعت على أجزاء كثيرة منه لدى زميلنا الدكتور محمد محمد عثمان الأستاذ فى كلية الآداب بسوهاج والذى

كانت رسالته للدكتوراه عن (منهج الحوفى فى التفسير) فرأيت أن كتاب الحوفى هو فى حقيقته كتاب فى التفسير أساساً ويسير على منهج القدماء فى التفسير التحليلى الموافق لترتيب المصحف، ولكنه يتضمن إلى جانب ذلك أنواعاً لا بأس بها من علوم القرآن الكريم هى التى وردت فى عنوان الكتاب ولكنها منبثة فى ثنايا التفسير.

ب ـ وللحوفى نفسه كتاب فى (إعراب القرآن).

ت ـ كما كتب أبو عمرو الدانى (ت ٤٤٤هـ) كتابا فى القراءات.

ث ـ كما كتب الباقلانى (ت ٤٠٣هـ) كتابا متميزا امتدحه الكثيرون (فى إعجاز القرآن).

المرحلة الثانية: مرحلة بدء تدوين هذا العلم مكتملاً:

ويعد كتاب (فنون الأفنان فى علوم القرآن) لابن الجوزى (ت ٥٧٩هـ) هو البداية الحقيقية للتأليف فى علوان القرآن بالمعنى الفنى الاصطلاحى المعروف، أى بوصف علوم القرآن علماً، والحقيقة أن ابن الجوزى من أكابر علماء الأمة الذين أولوا عناية فائقة لعلوم القرآن، ففى كتابة الذى أشرنا إليه (فنون الأفنان فى عجائب علوم القرآن) تناول فضائل القرآن والأحرف السبعة، ولغات القرآن.

والمكى والمدنى والوقف والابتداء والمتشابه.. إلخ ثم ألف كتابا آخر أسماه (المجتبى من المجتبى)، احتوى مقدمته حديثا طيبا عن «فضل الخطاب فى القرآن الكريم» وهو الجديد فى هذه المقدمة التى احتوت إلى جانب هذا الجزء على كثير مما أورده فى كتابه الشهير (فنون الأفنان).

وقد حقق هذا الكتاب أكثر من مرة وطبع أكثر من مرة لما له من قيمة من جهة، ولجرأة بعض الباحثين وهجومهم على تحقيق ما هو محقق من جهة أخرى.

المرحلة الثالثة: مرحلة استقرار معالم هذا العلم:

وقد استقر علم (علوم القران) وأخذ معالمه المتميزة على يدى الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشى (ت ٧٩٤هـ) صاحب كتاب (البرهان فى علوم القرآن)، ويعد هذا الكتاب هو الأساس الحقيقى لعلوم القرآن بمفهومها العلمى الدقيق فقد ذكر فيه سبعة وأربعين علماً من علوم القرآن أى أنه زاد عن ضعف أو أضعاف ما تناوله سابقوه ممن كتبوا فى علوم القرآن.

ثم جاء السيوطى (ت٩١١هـ) فأشاد بكتاب الزركشى واعتمد عليه فى تأليف كتابه الشهير (الإتقان فى علوم القرآن) اعتماداً كاملاً حتى أنه نقل عنه كثيراً من الفقرات مرة وهو يعزوها إلى الزركشى ومرة دون عزو، كما أخذ عنه بعض تقسيماته وتعريفاته.

ومن عهد السيوطى إلى عصرنا الحاضر لم تعرف المكتبة العربية كتباً ذات قيمة حقيقية تضيف رصيدا جديداً إلى علوم القرآن.

حتى بدأت مع أواسط القرن العشرين نهضة علمية جديدة فى الأزهر أوائل الثلاثينيات حين أنشأت الكليات الأزهرية بأسمائها الحالية، فقدم المشايخ الأوائل رواد التعليم فى كلية أصول الدين كتباً جيدة فى علوم القرآن ومنهم الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقانى صاحب (مناهل العرفان فى علوم القرآن) والشيخ محمود أبو دقيقة والشيخ محمد على سلامة. كما تميزت مؤلفات رائدة خارج الأزهر مثل كتاب (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) للأديب مصطفى صادق الرافعى، وغيره.

الوضع الحالي:

ثم صدرت بعد ذلك مؤلفات عديدة لكثير من أساتذة الجامعة الأزهرية والجامعات الأخرى، غلب على معظمها الطابع المدرسى فى التأليف، فكان معظمها لا يكاد يتعدى سبعة أو ثمانية علوم من علوم القرآن وتشابه جميعها فى اعتمادها على المصادر التى تحدثنا عنها كالإتقان للسيوطى والبرهان للزركشى.

ومن العرض السابق يتضح لنا:

١ - أن هناك حاجة ماسة لاصطناع منهج جديد فى دراسة علوم القرآن يعتمد كثيراً على كل أومعظم تراثنا فى هذه العلوم وليس على مشاهير المؤلفات فقط.

٢ - أن هناك حاجة ماسة لمراجعة قوائم المحفوظات فى علوم القرآن وإبراز ما حقق منها وما لم يحقق حتى تتاح للباحثين.

٣ - أن تدريس علوم القرآن فى الجامعات ينبغى أن يسبقه تدريس سائر العلوم الشرعية لما يترتب على معرفته من أحكام.

ترتيب السور والآيات

علم معرفة ترتيب السور والآيات من علوم القرآن التى يغفل عنها كثير من الناس. مع أن له فوائد عظيمة ذكر منها العلماء:

١ - حسن الوقف على رؤوس الآى عند فريق من العلماء يرى أن الوقف على الفواصل سنة، بناء على ظاهر الحديث الذى استدلوا به فيما يرويه أبوعلم عن أم سلمة أنها ذكرت (أو كلمة غيرها) قراءة رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين) يقطع قراءته آية اية. (كتاب الحروف والقراءات/ حديث رقم ٣٤٧٨)، حتى قالوا إن الوقف عليها والابتداء بما بعدها مرغوب فيه شرعاً، وإن لم يكن مستقلاً بنفسه، لتعلقه بما قبله تعلقاً لفظياً، بأن كان وصفا له مثلا كقوله تعالى ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ (الكهف/٥)، عقب قوله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) (الكهف/٤). قالوا فالابتداء فى هذه الحالة جائز عقب رؤوس الآيات اتباعاً لهدى رسول الله ﷺ وسنته فى الوقف على رؤوس الايات.

٢ - العلم بأن كل ثلاث آيات قصار (معجزة للنبى ﷺ وكذلك الاية الطويلة التى تعدل بطولها تلك الثلاث القصار. ووجه ذلك أن الله تعالى أعلن التحدى بالسورةالواحدة فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (البقرة/٢٣). والسورة تصدق بأقصر سورة كما تصدق بأطول سورة، وأقصر سورة فى القرآن هى سورة الكوثر، وهى ثلاث آيات قصار، فثبت أن كل ثلاث ايات قصار معجزة.

٣ - ومنها أنه جاء فى نصوص كثيرة تقدير الثواب بعدد الآيات، فلابد من معرفتهاحتى يستطيع العبد أن يعرف عدد الآيات، ويتقرب إلى الله بما ينال من هذا الثواب، وذلك كقوله ﷺ الذى رواه الامام مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات عظام سمان قلنا نعم قال فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم فى صلاته خير له من ثلاث خلفات عظام سمان (صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين/ حديث رقم ١٣٣٥) (الخلفة: هى الحامل من النوق)، ومارواه الإمام الترمذى عبدالله بن عمرو عن النبى ﷺ قال يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها (كتاب فضائل القرآن/٢٨٣٨).

٤ - ومنها أن معرفة االآيات يحتاج إليهافى بعض الأحكام الفقهية، يقول السيوطى: يترتب على معرفة الآى وعدّها وفواصلها أحكام فقهية منها اعتبارها فيمن جهل الفاتحة فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات، ومنها اعتبارها فى الخطبة فإنه يجب فيها قراءة آية كاملة.

معنى الاية:

تطلق الآية فى اللغة على عدة معان منها:

١ - المعجزة: ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الرعد/٣٨). أى بمعجزة.

٢ - العلامة: ومنه قوله تعالى ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ

فيه سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) ﴾ (البقرة/٢٤٨). أى علامة ملكه.

٣ ـ العبرة: ومنه قوله تعالى (إن فى ذلك لاية لكم إن كنتم مؤمنين) أى لعبرة لمن يعتبر.

٤ ـ الأمر العجيب: ومنه قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) ﴾ (المؤمنون/ ٥٠). أى كل واحد صار أمراً عجيبا بالآخر.

وجميع هذه الدلالات ينتظمها سياق آى القرآن فكل آية منه معجزة لأنه معجز متحدى به، وكل آية منه علامة من علامات النبوة لما فيها من إبداع لا يستطيع بليغ مهما بلغت قدراته أن يأتى بمثلها على نحو ما فصله الأستاذ الرافعى رحمه الله فى كتابه القيم (إعجاز القرآن).

واشتقاق الآية إما من آى فإنها هئ التى تبين أيا من أى. أو من التأيى الذى هو التثبيت والإقامة على الشىء، أو من المأوى أى من قولهم أوى إليه

ووزن آية قيل هو فعلة وحق مثلها أن يكون لامه معتلا دون عينه نحو حياة، لكن صحح لوقوع الياء قبله نحو راية، وقيل فعلة إلا أنها قلبت كراهة التضعيف كطائى فى طىء وقيل هو فاعلة وأصلها ايية فخففت فصارت آية، وذلك ضعيف لقولهم فى تصغيرها ايية، ولو كانت فاعلة لقيل اوية، والأول قول سيبويه والأخير للكسائى.

الآية القرآنية فى الاصطلاح:

قال العلماء: القرآن الكريم مركب من جمل والآية قرآن مركب من جمل أيضاً

(ولو تقديراً) ذو مبدأ ومقطع مندرج فى سورة أو طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها ليس بينها شبه بما سواها. وليس معنى هذا أن الآية لاتعلق لها بمعنى سابقتها ،ولا حقتها، بل المراد أنها مستقلة فى العد ولاتكون جزءاً مما قبلها أوبعدها.

قال أبو عمرو الدانى وابن المنير فى البحر: لانعلم كلمة هى وحدها آية إلا قوله عالى (مدهامتان)، وقال غيرهما: بل فيع غيرها مثل (والنجم) (والضحى) (والعصر) وفواتح السور عند من عدّها آية.

طريقة معرفة الآية:

لايمكن التوصل الطريق إلى معرفة آيات القرآن الكريم إلا بتوقيف من الشارع أى بطريق النقل عن السلف، والدليل على ذلك أن العلماء عدوا (المص) اية، ولم يعدوا نظيرها وهو (المر) آية، وعدوا (يس) آية، ولم يعدوا نظيرها وهو (طس) آية، وعدوا (حمعسق) آيتين، ولم يعدوا نظيرها وهو (كهيعص) آيتين، بل آية واحدة.

ومذهب الكوفيين أنهم عدوا لكل فاتحة من فواتح السور التى فيها شىء من حروف الهجاء آية، سوى (حمعسق)، فإنهم عدوها آيتين، وسوى (طس)، ولم يعدوا من الآيات ما فيه راء وهو (الر) و(المر) وما كان مفرداً وهو (ق) و(ص) و(ن) أى لم يعدوا شيئا منها آية.

وغير الكوفيين لايعتبرن شيئا من الفواتح آية، وعلى أية حال فالخلاف فى هذه المسألة لايثمر شيئاً، ومن الأدلة التى استدل بها من قالوا أن معرفة الآيات تكون بالنقل:

١ ـ ما أخرجه البخارى بسنده عن أبى سعيد بن المعلى قال كنت أصلى فى المسجد

فدعانى رسول الله ﷺ فلم أجبه فقلت يا رسول الله إنى كنت أصلى فقال ألم يقل الله (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) ثم قال لى لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد ثم أخذ بيدى فلما أراد أن يخرج قلت له ألم تقل لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن قال الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته (صحيح البخارى كتاب تفسير القرآن/٤١١٤). ورواه أيضا أبو داود والنسائى.

٢ ـ ما أخرجه الترمذى والحاكم أبى هريرة قال قال رسول الله صلى اللهم عليه وسلم لكل شىء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هى سيدة أى القرآن هى آية الكرسى قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفة إلا من حديث حكيم بن جبير وقد تكلم شعبة فى حكيم بن جبير وضعفة (الترمذى كتاب فضائل القرآن/٢٨٠٣).

٣ـ ما أخرجه الشيخان البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى مسعود البدرى) قال: قال رسول الله ﷺ والآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما فى ليلة كفتاه (البخارى كتاب المغازى رقم ٣٧٠٧، مسلم كتاب صلاة المسافرين ١٣٤٠).

٤ ـ ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عبدالله بن مسعود قال أقرأنى رسول الله ﷺ سورة من الثلاثين من آل حم يعنى الأحقاف قال وكانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين آية سميت الثلاثين قال فرحت إلى المسجد فإذا رجل يقرؤها على غير ما أقرأنى فقلت من أقرأك فقال رسول الله ﷺ قال فقلت لآخر أقرأها فقرأهاعلى غير قراءتى وقراءة صاحبى فانطلقت بهماإلى النبى ﷺ فقلت يا رسول الله إن هذين يخالفانى فى القراءة قال فغضب وتمعر وجهه وقال إنما أهلك

من كان قبلكم الإختلاف قال: قال زر وعنده رجل قال فقال الرجل إن رسول الله ﷺ يأمركم أن يقرأ كل رجل منكم كما أقرىء فإنما أهلك من كان قبلكم الإختلاف قال عبد الله فلا أدرى أشيئا أسره إليه رسول الله ﷺ أوعلم مافى نفس رسول الله ﷺ قال والرجل هوعلى بن أبى طالب صلوات الله عليه (مسند الإمام أحمد - كتاب مسند المكثرين من الصحابة/٣٧٨٤).

٥ - وقال ابن العربى: ذكر النبى ﷺ: أن الفاتحة سبع آيات، وسورة الملك ثلاثون آية.

وبعض العلماء يذهب إلى أن معرفة الآيات هو سماعى توفيقى ومنها ما هو قياسى، ومرجع ذلك إلى الفاصلة: وهى الكلمة التى تكون آخر الآية، وتشبه نهاية جملة السجع فى النثر، وقافية البيت فى الشعر، يقولون: فما ثبت أن النبى ﷺ وقف عليه دائما تحققنا أنه فاصلة، وما وصلة دائما تحققنا أنه ليس فاصلة، وماوقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة، أولتعريف الوقف التام أو للاستراحة، واحتمل الوصل أن يكون غير فاصلة، أو فاصلة وصلها لتقدم تعريفها.

عدد آيات القرآن:

أجمع العلماء على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف، ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك، فمنهم من قال مائتا آية وأربع آيات، ومنهم من قال مائتا وأربع عشرة، ومنهم من قال مائتا آية وتسع عشرة، ومنهم من قال مائتاآية وخمس وعشرون، ومنهم من قال مائتا آية وست وثلاثون.

وسبب اختلاف السلف فى عدد الآى أن النبى ﷺ كان يقف على رؤوس الآى للتوقيف، فإذا علم محلها وصل للتمام فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة، ثم أن بعض القراء يعد البسملة آية من كل سورة وبعضهم لايعدها.

وذكر بعض العلماء أن السبب فى الاختلاف فى العدد هو تعدد الروايات المنقولة عن الرسول ﷺ وذلك كاختلافهم فى نقل القراءات على وجهها ولعل السبب فى ذلك تكرر حدوث الوقائع فتكرر بذلك الروايات.

وممن عنى بإحصاء اى القرآن الكريم من الصحابة: ابن عمر وابن عباس وأنس وعائشة وغيرهم، ونقلة عنهم التابعون، فمن أهل المدينة عروة بن الزبير وعمر بن عبدالعزيز، ومن أهل مكة عطاء بن أبى رباح وطاووس، ومن أهل الكوفة أبو عبدالرحمن السلمى وزر بن حبيش وسعيد بن جبير والشعبى والنخعى، ومن أهل البصرة والحسن البصوى وابن سرين. ومن أهل الشام كعب الأحبار، وغيرهم.

معنى السورة:

معناها لغة:

السورة تهمز فيقال (السورة)، ولاتهمز، فمن همزها جعلها من أسأرت أى أفضلت، من السور وهو ما تبقى من الشراب فى الإناء، كأنها قطعة من القرآن، ومن لم يهمزها جعلها من المعنى وسهلها، ومنهم من شبهها بسور البناء أى القطعة منه أى منزلة بعد منزلة، وقيل من سور المدينة لإحاطتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور، ومنه السوار لإحاطته بالساعد، وعلى هذا فالواو أصلية. ويحتمل أن تكون من السورة بمعنى المرتبة لأن الآيات مرتبة فى كل سورة ترتيباً مناسباً،

وقيل لتركيب بعضها على بعض من التسور بمعنى التصاعد والتركيب، ومنه قوله تعالى ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ﴾ (ص/٢١). أى نزلوا عليه من علو، وقيل لعلو شأنها وشأن قارئها، والسورة المنزلة الرفيعة، قال النابغة الذبيانى يمدح النعمان:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

معناها اصطلاحاً:

والسورة فى الاصطلاح: «قرآن يشتمل على آي ذى فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات»، وقيل إن السورة هى الطائفة من القرآن الكريم المسماة باسم خاص بتوقيف من النبى ﷺ، وقد ثبت أن أسماء السور توفيقية كما اتضح من السطور السابقة، وفى صحيح البخارى عن عبدالرحمن ابن يزيد قال رمى عبدالله من بطن الوادى فقلت يا أبا عبدالرحمن إن ناسا يرمونها من فوقها فقال والذى لاإله غيره هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة ﷺ. (صحيح البخارى كتاب الحج/١٦٢٩).

الحكمة من تقسيم القرآن الكريم إلى سورة:

من الحكم التى ذكرها العلماء لتقسيم القرآن الكريم إلى سور:

١ ـ تقسيم القرآن الكريم إلى سور ييسر حفظه، سورة بعد سورة، وتقسيمه إلى سور طويلة وقصيرة على الترتيب المعروف ييسر على الأطفال تعلمه حيث أن هذا الترتيب يتدرج بهم من السور القصار إلى ما فوقها.

٢ ـ تقسيم القرآن إلى سور تثبيت لموضوعات السور ودلالة على عناصر كل منها وما تناولته من أحكام فسورة يوسف مثلا تتحدث عن قصة سيدنا يوسف عليه السلام

وسورة إبراهيم تتحدث عن قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام وسورة المطففين تتناول تطفيف الكيل والميزان.

٣ - تقسيم القرآن إلى سور طوال وقصار يشير إلى أن الطول ليس شرطاً فى التحدى والإعجاز، فكل سورة معجزة بنفسها وإن بلغت فى القصر ثلاث آيات.

٤ - أن الحافظ إذا أتقن السورة حفظاً اعتقد أنه أخذ من كتاب الله سبحانه وتعالى طائفة مستقلة بنفسها، فيعظم عندهما حفظه، ومن حديث أنس: «كان الرجل إذا حفظ البقرة أو آل عمران جد فينا» (أى صار له قدر وهيبة) ومن ثم كانت القراءة فى الصلاة بسورة كاملة أفضل من القراءة بعدة آيات ولو طالت.

٥- أن المطيل فى التلاوة تنشرح نفسه عند ختم كل سورة كما تنشرح نفس المسافر عند قطع كل مرحلة من مراحل سفره.

٦- أن الشىء إذا كان جنسا، واندرجت تحته أنواع، واشتملت الأنواع على أصناف كان أحسن وأفخم لشأنه، ولاسيما إذا تلاحقت الأجزاء، وتجاوبت بحسن الألتئام، وتعانقت الأمثال والكم والأحكام والقصص فى جمال وانتظام.

تقسيم سور القرآن بحسب الطول والقصر:

الناظر فى المصحف يرى أنه مرتب على أن الفاتحة فى أوله ثم البقرة ثم آل عمران وهكذا إلى آخر (جمع طولى) ثم يليها المئون (جمع مائة)، ثم المثانى ثم المفصل إلى آخر سورة الناس.

فالطول أو الطوال (جمع طويلة): هى سبع سور تبدأ من البقرة وتنتهى ببراءة، كانوا ليعدون الأنفال مع براءة سورة واحدة حيث نزلتا فى القتال، ولم يفصل بينهما

بالبسملة، والحق أن الأنفال من المثين، ووضعها بين الطول إنما هو بتوقيف من النبى ﷺ، وحكى عن سعيد بن جبير أنه عد السبع الطول من البقرة حتى يونس، وسميت طولا أو طوالا لطولها.

والمثون: ما ولى السبع الطوال، سميت بذلك لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربه.

والمثانى: ماولى المثين - وقد تسمى سور القرآن كلها مثانى لأن الأنبياء والقصص تثنى فيه أى تذكر مرة بعد مرة، ومنه قوله تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) ﴾ (الزمر/٢٣)، ويقال إن المثانى فى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) ﴾ (الحجر/٨٧). هى آيات سورة الفاتحة، لأنها تثنى فى كل ركعة.

والمفصل: ما وليى المثانى من قصار السور، سمى مفصلا لكثرة الفصول التى بين السور بالبسملة، وقيل لقلة المنسوخ فيه، وآخره سورة الناس.

واختلف فى تحديد أوله:

١ - فمن العلماء من قال أوله الجاثية.

٢ - ومنهم من قال أوله القتال - وقال الماوردى إنه قول الأكثرين.

٣ - ومنهم من قال أوله الحجرات.

٤ ـ والصحيح أنه أوله سورة (ق)، قال الماوردى فى تفسيره: حكاه عيسى بن عمر عن كثير من الصحابة. وهو الذى يؤيده الحديث الذى رواه أبو داود وابن ماجة وأحمد عن عثمان بن عبدالله بن أوس عن جده قال عبدالله بن سعيد فى حديثه عن أوس بن حذيفة قال قدمنا على رسول الله ﷺ فى وفد ثقيف قال فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة وأنزل رسول الله ﷺ بنى مالك فى قبة له قال مسدد وكان فى الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف قال كان كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا، وأكثر ما يحدثنا ما لقى من قومه من قريش ثم يقول لا سواء كنا مستضعفين مستذلين (قال مسدد بمكة فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا) فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذى كان يأتينا فيه فقلنا لقد أبطأن عنا الليلة قال إنه طرأ على جزئى من القرآن فكرهن أن أجىء حتى أتمه قال أوس سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن قالوا ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل. (سنن إبى داود كتاب الصلاة/ ١١٨٥). وفى لفظ ابن ماجة «فيحدثنا قائما على رجليه حتى يرواح بين رجليه وأكثر ما يحدثنا ما لقى من قومه من قريش» وحسن ابن كثير إسناده، وعلى هذا إذا جمعنا الأحزاب الستة الأولى ـ أى بعد سورة الفاتحة ـ كان الحاصل ثمانياً وأربعين سورة فتكون التى بعدهن سورة ق.

ومعلوم أن الترتيب الحالى للمصحف غير ترتيب النزول، وقد كان لهذا الترتيب شأن عظيم فقد اكتمل نزول الكتاب وصار دستوراً لخير أمة، ترجع إليه فى عقائدها وفى استنباط الأحكام منه، ولاشك أن هذا يستدعى ترتيباً غير ترتيب النزول، حيث روعى فيه أحوال القضايا التى نزل بشأنها القرآن الكريم وحال الداعى ﷺ وحال المدعوين.

أسماء سور القرآن:

للعلماء آراء في أسماء سور القرآن الكريم هل كانت بتوقيف من النبي ﷺ أو كانت باجتهاد مأخوذ من موضوع السورة؟

قال السيوطي: «إن كل سورة سميت باسم خاص بتوقيف من النبي ﷺ» وقال أيضا وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والاثار ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك واستدل بما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة قال:

«كان المشركون يقولون: سورة البقرة، وسورة العنكبوت، يستهزئون بها فنزل (إنا كفيناك المستهزئين) (ص/٩٥).

لم تثبت جميع أسماء السور عن رسول الله ﷺ وإنما الثابت بعض الأسماء عنه ﷺ وبعضها مروى عن الصحابة والتابعين.

فقد يكون للسورة الواحدة أسماء متعددة أوصلها السيوطي إلى نيف وعشرين أسماً لسورة الفاتحة، ولم تثبت أحاديث لكل هذه التسميات وقد يكون للسورة اسم واحد وهو الكثير. والواجب على المسلمين كافة المحافظة على الاسم المشهور للسورة وعدم تغييره.

آراء العلماء في ترتيب السور:

اختلف العلماء في ترتيب سور القرآن بوضعها الحالي وتميزت في هذا المضمار ثلاثة مذاهب.

<u>المذهب الأول</u>: أن ترتيبها كان باجتهاد الصحابة، وقد جنح إلى هذا المذهب الإمام مالك والقاضي أبو بكر بن العربي، وغيرهما - قال الإمام الزركشي في

البرهان: «قال أبو الحسين أحمد بن فارس: جمع القرآن على ضربين: أحدهما تأليف السور كتقديم السبع الطوال، وتعقيبها بالمئين فهذا الضرب هو الذى تولته الصحابة) وأما الجمع الآخر فضم الآى بعضها إلى بعض فذلك شىء تولاه رسول الله ﷺ كما أخبر به جبريل عن أمر ربه سبحانه وتعالى.

واستدل هؤلاء على مذهبهم، بأن مصاحف السلف من الصحابة كانت مختلفة فى ترتيب السور، فمصحف على بن أبى طالب) رتبت فيه السور حسب نزولها، فأوله سورة العلق ثم المدثر ثم ثم المزمل، ثم تبت ثم التكوير وهكذا إلى آخر السور المكية، ثم السور المدنية حسب نزولها أيضاً.

كما استدلوا بأن مصحف ابن مسعود، وأبى بن كعب كانا مبدوءين بالبقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، ثم الأنعام، ثم الأعراف، ثم المائدة وهكذا، فلو كان ترتيب السور توفيقياً متلقى عن النبى ﷺ كترتيب الايات لما اختلف فيه المصاحف وهذا الاستدلال مردود من ثلاثة أوجه:

الأول: أن المصاحف المذكورة كتبت قبل العرضة الأخيرة، فلما كانت هذه العرضة واستقر بهذا ترتيب القرآن ترتيباً وأحكاماً رتبت هذه المصاحف على مقتضاها بأمر النبى ﷺ.

الثانى: أنه قد ورد فى الأحاديث الصحيحة ما يدل على أن ترتيب كثير من السور كان معلوماً فى حياة النبى ﷺ.

الثالث: أن زيد بن ثابت الذى أسند إليه الخليفة عثمان بن عفان رياسة اللجنة التى قامت على جمع القرآن كان من كتاب الوحى، وشهد العرضة الأخيرة للقرآن،

وعلم ترتيب السور من رسول الله ﷺ، وليس من المعقول أن يحدث زيد من تلقاء نفسه ترتيباً للسور غير ما تلقاه من رسول الله ﷺ لأن ذلك لم يكن من عادتهم، فلابد أن يكون ترتيبه للسور قد تلقاه من رسول الله ﷺ.

المذهب الثانى:

أن هذا الترتيب توقيفى منقول عن رسول الله ﷺ وأصحاب هذا الرأى يرون أن الإجماع انعقد على مذهبهم هذا، ونسبوا القول بهذا الإجماع إلى الزركشى فى البرهان حيث يقول:

«فأما الآيات فى كل سورة ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفى بلاشك ولا خرف منه ولهذا لايجوز تعكيسها».

وقال القاضى أبو بكر: إن الأمة ضبطت عن النبى ﷺ ترتيب آى كل سورة وموضعها وعرفت مواقعها.

قال السيوطى فى الإتقان:

«وممن نقل الإجماع ابو جعفر بن الزبير فى مناسباته حيث قال: «ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف فى هذا بين المسلمين» وقال ابن الحصار «ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحى: كان رسول الله ﷺ يقول ضعوا آية كذا فى موضع كذا. وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ، ومما أجمع على وضعه الصحابة هكذا فى المصحف».

ومما استدل به أصحاب هذا المذهب:

١ ـ ما رواه أو داود وابن ماجة وأحمد عن عثمان بن عبدالله بن أوس عن جده قال عبدالله بن سعيد فى حديثه عن أوس بن حذيفة قال قدمنا على رسول الله ﷺ فى وفد ثقيف قال فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة وأنزل رسول ﷺ بنى مالك فى قبة له قال مسدد وكان فى الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف قال كان كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا وأكثر ما يحدثنا ما لقى من قومه من قريش ثم يقول لا سواء كنا مستضعفين مستذلين (قال مسدد بمكة فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالوان علينا) فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذى كان يأتينا فيه فقلنا لقد أبطأت عنا الليلة قال إنه طرأ على جزئى من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه قال أوس سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن قالوا ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل. (سنن أبى داود كتاب اصلاة/ ١١٨٥). ١٣٣٥. قالوا: فهذا يدلعلى أن ترتيب السور على ما هو فى المصحف الآن كانعهد رسول الله ﷺ.

٢ ـ ومن الأدلة التى تثبت أن الترتيب بتوقيف من النبى ﷺ ما رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وأحمد وغيرهم عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ اقرأ القرآن فى شهر قلت إنى أجد قوة حتى قال فاقرأه فى سبع ولاتزد على ذلك. (البخارى كتاب فضائل القرآن/ ٤٦٦). يقولون: وكيف يختم القرآن فى هذه المدة وهو غير مرتب؟ وقد عرفوا ترتيبه من ملازمتهم للنبى ﷺ وقراءتهم عليه، وأخذهم منه.

٣ ـ واستدلوا ـ أيضا ـ بأن الصحابة أجمعوا على الترتيب الذى كتبت عليه المصاحف العثمانية ولم يخالف فيه أحد ـ حتى من كانت عندهم مصاحف مكتوبة على غير هذا الترتيب ـ وأما خلاف ابن مسعود لهذا الإجماع فقد ذكر بعض العلماء أنه رجعه عنه، وإجماعهم دليل على التوقيف، بل كان بالاجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بترتيبهم واجتهادهم الذى اقتنعوا به، لكنهم يتمسكوا به بل عدلوا عنه إلى ترتيب عثمان، فدل ذلك على أنه لم يكن باجتهاد، بل بتوقيف.

٤ ـ ومن أدلتهم أيضا أن السور المتجانسة فى القرآن لم يلتزم فيها الترتيب والمولاة، ولو كان الأمر بالاجتهاد للوحظ مكان هذا التجانس والتماثل دائما، لكن لم يكن، بدليل أن «الحواميم» وضعت فى المصحف متوالية، وكذا «الطواسين» ولم توضع «المسبحات» كذلك: وهى السور التى افتتحت بتسبيح الله سبحانه وتعالى بل فصل بينها بسورة المجادلة والممتحنة والمنافقون.

كما فصل بين «طس الشعراء ـ وطس القصص» بـ «طس النمل ـ مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهاديا لوضعت المسبحات على التوالى لتماثلها فى الافتتاح، وأخرت «طس» عن القصص لما بين القصص والشعراء من التماثل فى الافتتاح والتقارب فى الطول.

المذهب الثالث:

وذهب فريق من العلماء مذهبا وسطا بين المذهبين السابقين فقالوا: إن بعض سور القرآن كان ترتيبها بتوقيف من النبى ﷺ وبعضها الاخر كان باجتهاد من الصحابة. وقد أخذ بهذا المذهب الوسط جماعة من العلماء منهم البيهقى الذى يقول فى كتابه (المدخل):

«كان القرآن على عهد النبى ﷺ مرتبا سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة، لحديث أحمد وأبى داود والترمذى والنسائى وغيرهم عن ابن عباس قال قلت لعثمان بن عفان ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطول ما حملكم على ذلك فقال عثمان كان رسول الله ﷺ مما يأتى عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا وإذا نزلت عليه الاية فيقول ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أوائل ما أنزلت بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله صلى اللهم عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم فوضعتها فى السبع الطوال. (الترمذى كتاب تفسير القرآن/٣٠٠٤).

قال العلماء:

«فسؤال ابن عباس لعثمان يتضمن أن وصل براءة بالأنفال، وعدم إثبات البسملة بينهما، ووضعهما فى السبع الطوال. إنما هو من عمل عثمان ومن كان معه فى جمع القرآن، وأن هاتين السورتين لم تكونا قبل جمع عثمان بهذه الصفة من اقتران إحداهما بالأخرى، ووضعهما فى السبع الطوال، وجواب عثمان له يدل على تسليم ذلك، وأنه إنما فعل ما فعل لأن رسول الله ﷺ قبض، ولم يبين أن «براءة» سورة مستقلة، أو بعض السور، فلما رأى هو ما بينهما من تشابه واضح قوى عنده الظن بأن براءة من الأنفال فألحقت بها على أنهما معا سورة واحدة، وكان من نتيجة

ذلك أنه وضعهما فى السبع الطوال، لأنهما بعد بعد اعتبارهما سورة واحدة لاتوجد سورة أطول منهما يكمل هذا السبع الطوال.

وقد مال السيوطى إلى هذا الرأى فقال:

«إنه ينبغى القول بأن محل الخلاف إنما هو فى ترتيب سور الأقسام الأربعة، وأما نفس الأقسام من الطوال ثم المئين ثم المثانى ثم المفصل فلا خلاف فى ترتيبها إجمالا، فهذا يقتضى القطع بأنه توقيفى وأن يدعى فيه الإجماع، وتوصل إلى هذا القول مما تقدم من الأحاديث ومن حديث ابن عباس فى اقتران براءة بالأنفال، ومن أن المصاحف التى وقع فيها الاختلاف فى الترتيب اتفقت على هذا الترتيب، واختلافها إنما كان فى ترتيب كل قسم - ثم قال «فإذا تحرر ذلك ونظرنا إلى محل الخلاف، فالمختار عندى فى ذلك ما قاله البيهقى، وهو أن كل السور توقيفية سوى الأنفال وبراءة.

وقال أبو جعفر بن الزبير: الاثار تشهد بأكثر ممانص عليه ابن عطية ويبقى القليل الذى يمكن أن يجرى فيه الخلاف، من ذلك - أى مما نص على ترتيبه - الزهراوان والسبع الطوال والمفصل والإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء وقل هو الله أحد والمعوذتان، للأحاديث الواردةفيها، وهى قوله ﷺ: اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه اقرءوا الزهرواين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة قال معاوية بلغنى أن البطلة السحرة. رواه مسلم عن أبى أمامة الباهلى (صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين/١٣٣٧).. وحديث سعيد بن خالد الذى رواه ابن أبى شيبة فى مصنفه «قرأ رسول الله ﷺ بالسبع الطوال فى ركعة، وأنه ﷺ كان يجمع المفصل فى ركعة».

وكذلك ما رواه البخارى أيضا عن عائشة أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات. (البخارى تفسير القرآن/ ٤٦٣٠).

الرأى الراجح:

فى رأينا أن المذهب الراجح هو القائل بأن الترتيب توقيفى خلافا للسيوطى رحمه الله الذى مال إلى القول بالإجتهاد. ودليلنا على رجحان القول بالتوقيف ما رد به العلماء على أدلة المذهبين الاخرين وهو:

١ ـ أن استدلال القائلين بالاجتهاد باختلاف مصاحف الصحابة لا يدل لهم، لأن اختلافها كان فى وقت النزول، وقبل إتمام الإنزال واستقرار الترتيب على ما كان فى العرضة الأخيرة، بدليل أن أصحاب هذه المصاحف عدلوا عن ترتيبهم إلى ترتيب عثمان عندما جمع عثمان القرآن، واتفق الصحابة على أن يجتمع المسلمون على مصحف واحد، ولو كان ترتيب مصحف عثمان بالاجتهاد ـ كما يدعون ـ لا بالتوقيف،لتمسك كل باجتهاده فإن هذا هو الشأن فى الأمور الاجتهادية، فظهر بهذا أن عدولهم عن ترتيبهم لابد أن يكون لدليل توقيفى. وفى ذلك يقول الألوسى فى مقدمة تفسيره: وإجماع الصحابة رضى الله عنهم أقوى دليل على أنهم وجدوا ما أفادهم علما، ولم يدع عندهم مجالا لأدنى وهم، فلابد ـ أى لإجماعهم ـ إما عن التصريح بمواضع الايات والسور، وإما من الرمز إليهم، وإجماع الصحابة على هذا الترتيب وعدولهم عما كانت عليه مصاحفهم دليل على أنهم وجدوا ما أفادهم علما، ولم يدع عندهم وهما.

٢ ـ أن حديث حذيفة الذى يستدلون به يمكن الرد عليه بأن السور لم تكن رتبت فى ذلك الوقت ثم وقع الترتيب بعد ذلك.

٣ ـ ويمكن الرد على حديث معاذ بأن ما ذكره الرسول ﷺ كان من باب التعليم أى أنه علم معاذا أن يقرأ بالسور القصار تخفيفا على المأمومين إذا كانوا يتضررون من الإطالة.

٤ ـ وأما حديث ابن عباس عن اقتران الأنفال ببراءة فلا يمكن الوثوق به لأنه دليل ظنى، وقوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (الحجر/٩). قطعى الدلالة فهو أقوى.

وقد قال الألوسى تعليقا على هذا الحديث:

«فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، وذلك بعيد، إذ الأنفال نزلت فى السنة الثانية عقب بدر، والتوبة نزلت فى آواخر التاسعة بعد تبوك وبعد خروج أبى بكر للحج على رأس المسلمين. فكيف يعقل أن يظل الرسول ﷺ زهاء خمسة عشر شهرا ولا يبين للناس أنها منها أوغيرها؟ إنه بذلك يكون قد تأخر عن البيان فى وقت الحاجة إليه بل مات ﷺ قبل البيان وحاشاه ﷺ أن يفعل ذلك، ثم إن إطلاق الاسم على كل منهما واختلافه فيهما مما يعين أن هذه غير تلك ـ وقد سمى رسول الله ﷺ كلا منهما.

وأما قوله: فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم» فبعيد النظر أيضا، لأن البسملة لاتخضع لهوى الكتاب إثباتا أو حذفا. وإنما هى توقيف منه ﷺ، أخرج أبو داود والحاكم وابن حبان وصححاه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان النبى ﷺ لا يعلم ختم السورة حتى تنزل «بسم الله الرحمن الرحيم» وفى رواية: فإذا نزلت بسم الله الرحمن الرحيم علموا أن السورة قد انقضت.

فواتح السور

من المعـروف أن عـدد سـور القـرآن الكريم مـائة وأربع عـشـرة سـورة منه اتسع وعشرون سورة افتتحها الله سبحانه وتعالى بنصف حروف الهجاء، أ، ب، ت.. إلخ، ومنها سور افتتحت بحرف واحد مثل سورة ن. ص. ق.، ومنها سور افتتحت بحرفين اثنين كسورة، حم، طس، يس، ومنها ما افتتحت بحروف ثلاثة كفاتحة البقرة ألم، وآل عمران ويوسف الر، وهود، ويونس كذلك، وكفاتحة الشعراء والقصص طسم.

ومنها ما فاتحته أربعة حروف كسورة الأعراف المص، وسورة الرعد المر، ومنها ما افتتح بخمسة حروف كاملة كفاتحة مريم، كهيعص وفاتحة الشورى حم، عسق، فما معنى هذه الفواتح، وما عسى أن يكون وراء هذه الفواتح من المعانى والأسرار القرآنية.

وكل حرف من هذه الحروف له سر من الأسرار وله ثواب عند تلاوته لما أخرجه الترمذى والحاكم وغيرهما عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف. (سنن أبى داود كتاب فضائل القرآن/ ٢٨٣٥).

وقد وقف العلماء أمام هذه الحروف مواقف الحيرة والتردد بين الإقدام والإحجام، فمنهم من قال فيها برأى، ومنهم من تهيب الخوض فيها. وبذلك أصبح أمامنا موقفان متناقضان:

<u>الأول</u>: موقف الذين أعرضوا عنها وقالوا بعدم الخوض فى تفسيرها وقد استدل هؤلاء بما يلى:

أ - <u>الدليل النقلي</u> وهو مستمد من قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ (آل عمران/٧). وهم يقفون على لفظ الجلالة وقفا لازماً لأسباب ذكرها الشيخ أحمد بن أحمد الخليلى فى جواهر التفسير فقال:

«أحدها: أنه لو عطف الراسخون فى العلم على اسم الجلالة للزم إما انقطاع (آمنا به) عما قبله، وهو غير جائز لعدم إفادته، وإما رجوعه إلى المعطوف عليه، فيترتب عليه أن يكون الحق تعالى قائلا (آمنا به كل من عند ربنا) واعتقاد ذلك عين الكفر ورأس الضلال.

ثانيها: أن مدح الراسخين فى العلم بإيمانهم به دليل على أنه يختلف عن الحكم الذى فهموه، ولو كانا سواء فى فهمهم لما كان لهذا التخصيص معنى.

ثالثها: نسبة الزيغ إلى الذين يريدون تأويله ولو كان كالمحكم لكان طلب معرفته موجباً للمدح لا للذم.

وعزز هؤلاء رأيهم بأنه مروى عن أجلة الصحابة رضى الله عنهم منهم الخلفاء الأربعة، وابن مسعود وابن عباس، وهو قول جماعة من أعلام الأمة كالشعبى، وسفيان الثورى، والربيع بن خيثم، وكثير من المحدثين.

ب - <u>الدليل العقلى</u>: وهو أن الله تعالى كلف المؤمنين بما له حكمة مفهومة كالعبادات المعروفة من صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وزكاة تسد حاجة الفقير..

إلخ، وعبادات غير مفهومة الحكمة مثل رمى الجمرات والسعى بين الصفا والمروة والاضطباع، والامتثال فى النوع الثانى أكثر دلالة على تمام الخضوع والطاعة. وإذا جاز ذلك فى العبادات العملية فلم لايجوز فى العبادة القولية كتلاوة القرآن؟

الثانى: موقف العلماء الذين أقدموا على تلمس معانيها، والبحث عن أسرارها، وقد استدل هؤلاء أيضاً بأدلة منها:

ب ـ أدلة نقلية: كقوله تعالى ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ (النساء/٨٢). فإن تدبره ليقتضى أن يكون مفهوماً. وقوله تعالى ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٥٢)﴾ (إبراهيم/٥٢). فلو لم يكن مفهوما لما صح الإنذار به، ومنه قوله ﷺ فيما رواه الإمام الترمذى فى سننه والإمام مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبدالله قال رأيت رسول الله ﷺ فى حجته يوم عرفة وهوعلى ناقته القصواء يخطب فسمعته يقول يا أيها الناس إنى قد تركت فيكم ماإن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتى أهل بيتى. (سنن الترمذى كتاب المناقب/ رقم ٣٧١٨). فكيف يتمسك الإنسان بما لا يفهمه؟

ب ـ أدلة عقلية منها:

١ ـ أنه لو تعذرت معرفة شىء من القرآن على إفهام الأمة ما كانت لإنزاله فائدة، وكانت مخاطبة الناس به كمخاطبة العربى بالأعجمية، أو الأعجمى بالعربية.

٢ ـ أن الخطاب إنما يوجه إلى المخاطبين لأجل الإفهام فإن تعذر فهمه عليهم جميعاً فهو عبث وسفه لا يليق بمقام الربوبية.

٣ ـ أن القرآن الكريم تحدى الله تعالى به العرب، ولايصح التحدى إلا بما هو مفهوم أو قابل للفهم لأن يكون مفهوماً.

والمذهب الراجح:

الراجح فى رأينا هو المذهب الثانى لأنه أقرب إلى روح القرآن الكريم، غير أن من المهم التنبيه إلى ضرورة ألا يحتكر أحد الحقيقة فيزعم أن قوله فى تأويل هذه الحروف المقطعة هو الصواب بعينه وبخاصة أن ما ورد فى تفسيرها من أقوال أو صله العلماء إلى مائة قول.

وما ذهبنا إليه من أن الراجح هم المذهب الثانى، نسبة ابن عطية وأبو حيان والزمخشرى إلى الجمهور، ونسبه الفخر الرازى إلى علماء الكلام. قال ابن عطية بعد ذكر أقوال الصحابة والتابعين فى تفسير (ألم) فى أول البقرة معقباً على تلك الأقوال:

«والصواب ما قاله الجمهور أن تفسر هذه الحروف، ويلتمس لها التأويل، لأنا نجد العرب قد تكلمت بالحروف المقطعة نظماً لها ووضعاً بدل الكلمات ـ التى الحروف منها ـ كقول الشاعر:

قلنا لها قفى فقالت قاف

أراد قالت: وقف، (هو من رجز الوليد بن المغيرة عامل عثمان بن عفان) قاله يخاطب به عدى بن حاتم، وقد اتهم بشرب الخمر فى قصة مشهورة فى التاريخ، وتمامه« لاتحسبنا قد نسينا الإيجاف»)، وكقول القائل:

بالخير خيرات وإن شراً فا ولا أريد الشر إلا أن تا

أراد وإن شراً فشر، وأراد إلا أنتشاء. والشواهد فى هذا كثيرة، فليس كونها فى القرآن مما تنكره العرب فى لغتها، فينبغى إذا كان من معهود كلام العرب أن يطلب تأويله ويلتمس وجهه، والوقف على هذه الحروف على السكون لنقصانها إلا إذا أخبرت عنها أو عطفتها فإنك تعربها.

وقد نقح الشيخ ابن عاشور فى تفسيره (التحرير والتنوير) آراء العلماء السابقين وردها إلى عشرين قولاً بعد حذف متشابهاتها ونقلها الشيخ الخليلى وأضاف إليها تفصيل أدلتها وعزوها إلى أصحابها وهى باختصار:

«أولها: أنها حروف اقتضبت من أسماء وصفات الله سبحانه وتعالى افتتحت بحروف مماثلة لها، فـ (الم) مثلاً، الألف تشير إلى أحد أو أول آخر، واللام إلى لطيف، والميم إلى ملك أو مجيد أو نحو ذلك. وهو المفهوم مما أخرجه ابن جرير فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وناس من أصحاب النبى ﷺ أنهم قالوا: أما (الم) فهو حرف اشتق من حروف هجاء أسماء الله جل ثناؤه. وأخرج ابن جرير أيضاً عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (ألم) و(حم) و(ن) قال: اسم مقطع، وروى مثل ذلك عن محمد بن كعب القرظى، والربيع بن أنس، واعترض على ذلك بأن صحة ما قالوه يتوقف على التوقيف وأنى لهم به.

ثانيها: أنها رموز لاسماء الله تعالى وأسماء الرسول ﷺ والملائكة، فـ (الم) مثلاً، الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد، قاله الضحاك، وهو كالذى قبله فى توقف صحته على التوقيف.

ثالثها: أنها أسماء للملائكة، وأنها إذا تليت كانت للنداء لملائكتها وتصغى

الملائكة إلى ما يقوله التالى بعد النطق بها، فيقولون: صدقت، إن كان بعدها خبر، ويقولون: هذا مؤمن حقاً، نطق حقاً، وأخبر بحق، فيستغفرون له، وهو قول محيى الدين بن عربى صاحب فى كتابه (الفتوحات المكية)، وهو قول بعيد عن أسلوب القرآن ومقاصده.

رابعها: أنها رموز لأسماء النبى وأوصافه خاصة، فالألف مكنى به عن جملة أسمائه المفتتحة بالألف، كأحمد وأبى القاسم، واللام مكنى عن صفاته مثل لب الوجود، والميم مكنى به عن محمد، وما ماثله كمبشر ومنذر، ونسب ابن عاشور هذا القول إلى الشيخ محمد بن صالح التونسى المعروف بابن ملوكه فى رسالة له، ثم قال: وعلق على هذه الرسالة تلميذه شيخ الإسلام محمد معاوية تعليقه أكثر فيها من التعداد وليست مما ينثلج بمباحثه الفؤاد، ويرد هذا القول التزام حذف حرف النداء، وما قله من ظهوره فى (يس) مبنى على قول من قال إن (يس) بمعنى يا سيد، وهو ضعيف لأن الياء فيه حرف من حروف الهجاء، ولأن الشيخ نفسه عد (يس) بعد ذلك من الحروف الدالة على الأسماء مدلولاً لنحو الياء من (كهيعص).

خامسها: أنها رموز لمدة دوام هذه الأمة بحساب الجمل، قاله أبو العالية استناداً إلى ما رواه البخارى فى تاريخه وابن اسحاق وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس عليه السلام عن جابر بن عبد الله بن رئاب، قال: مر أبو ياسر أبن أخطب برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ...۝٢﴾ (البقرة/١ ، ٢)، فأتى أخاه حيى بن أخطب فى رجال من يهود قال: تعلمون والله قد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله سبحانه وتعالى عليه (ألم ذلك الكتاب...) فقالوا: أنت سمعته؟ قال: نعم، قال: فمشى حيى بن أخطب فى أولئك النفر من

يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يامحمد، ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل عليك (ألم ذلك الكتاب) فقال رسول الله ﷺ: بلى، فقالوا، أجاءك بهذا جبريل من عند الله؟ قال: نعم، قالوا: لقد بعث اله جل ثناؤه قبلك أنبياء، ما بين لنبى منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك، فقال حيى بن أخطب - وأقبل على من كان معه -: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة، قال: فقال لهم: أتدخلون فى دين نبى إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، هل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال ماذا؟ قال: (ألمص) قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه مائة وإحدى وستون سنة، هل مع هذا يا محمد غيره؟ قال: نعم، قال: ماذا؟ قال (الر) قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مئتان، فهذه إحدى وثلاثون، ومئتا سنة، قال: هل مع هذا غيره يا محمد؟ قال: نعم، (المر) قال: فهذه أثقل وأطول، الألف واحدة، واللام ثلاثون، الميم أربعون، والراء مئتان، فهذه إحدى وسبعون ومئتا سنة، ثم قال: لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ماندرى أقليلا أعطيت أم كثيرا، ثم قاموا عنه، فقال أبو ياسر لأخيه حيى بن أخطب ولمن معه من الأحبار: ما يريدكم لعله قد جمع هذا كله لمحمد، إحدى وسبعون، وإحدى وستون ومائة، ومئتان وإحدى وثلاثون، ومئتان وإحدى وسبعون، فذلك سبعمائة سنة وأربع ثلاثون، فقالوا: لقد تشابه علينا أمره، قال ابن جرير: ويزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنــزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ۝٧ ﴾ (آل عمران/٧).

قال الشيخ الخليلي بعد إيراد هذه القصة:

وليس في هذه القصة دليل على صحة هذا القول، ولو قدرنا صحتها - فما بالكم وسندها ضعيف بالاتفاق - فإن القرآن لا يعول في تفسيره على خرافات أهل الكتاب التي لا تستند إلا على الأوهام، وليس في إجابة الرسول ﷺ إياهم بعدة حروف أخرى من هذه الحروف المتقطعة في أوائل السور تقرير لما ذهبوا من أنها ترمز إلى مدة بقاء هذه الأمة، وإنما يحمل ذلك - لو صح وما هو بصحيح - على قصده ﷺ إبطال مزاعمهم وتفنيد فهومهم على الطريقة المعروفة عند أهل الجدل بالنقض، ومرجعها إلى المنع، وقد قيل إن المانع لا مذهب له، ولا يستفاد من ضحكه ﷺ إلا الإستغراء من جهلهم. أفاد ذلك الإمام ابن عاشور.

وإن تعجبت فعجب كيف يستند أئمة التفسير في بيان مراد الله من كتابه بدعاوى أهل الكتاب الذي لايتورعون عن تحريف الكلم عن مواضعه في الكتاب الذي أتوه، فما بالك بتحريف التأويل فيما هم بصدد اللدد والكيد له، وتكذيب الرسول ﷺ الذي أنزل عليه ومثل هذه الأقوال جديرة نفيها عن ساحة التفسير، وعدم شغل دواوينه بذكرها، لولا بغية التحذير منها والتنبيه على زيفها حذر اغترار بها أثناء اطلاعهم عليها في أمهات التفسير القديمة.

سادسها: أنها رموز، كل حرف منها رمز إلى كلمة، فنحو (الم) أنا الله أعلم، (المر) أناالله أرى، (المص) أنا الله أعلم وأفضل، رواه ابن جرير من طريق أبي الضحى عن ابن عباس، وروى مثله عن سعيد بن جبير، وهو كالقول الثاني مبنى على ما عرف عن العرب أنهم يتكلمون بالحروف المقطعة أحياناً من الكلمات التي تتألف منها، وهو معروف عنهم نظماً ونثراً، ومنه قـا

بالخير خيرات وإن شر فا..		ولا أريد الشر إلا أن تا..

أراد: وإن شر فشر، وأراد: إلا أن تشاء، فاكتفى من كل كلمة بحرف، وقول آخر:

نادهم أن الجمع ألا تا..		قالوا جميعاً كلهم ألا فا..

أراد بالأول: ألا تركبون، وبالثاني: ألا فاركبوا، وقول الوليد بن المغيرة:

قلت لها قفى لنا قالت: قاف..

أراد: قف وقفت، وفى الحديث: «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة» هو أن يقول كلمة: «اقـ.. مكان اقتل، وفى حديث سعد بن عبادة عند ابن ماجة: «كفى بالسيف شا.. «أى شاهدا، وقال لبيد:

درس المنا.. فمتالع.. فأبان		فتقادمت بالحبس فالسوبان

أراد: المنازل، وقال علقمة:

كأن إبريقهم ظبى على شرف		مقدم بسبا.. الكتان ملثوم

أراد: بسبأئب الكتان.

وهو - كما قال العلامة ابن عاشور - يوهنه أنه لا ضابط له، لأنه أخذ مرة بمقالة الحرف بالحرف أول الكلمة، ومرة بمقابلته بحرف وسط الكلمة، وما ذكر من الشواهد لا يصح حمل فواتح السور عليه لاختلاف المقام، وانعدام النسبة التى تسوغ تخريج القرآن على مثل ذلك.

سابعها: أنها ترمز إلى أحوال نفسية تترتب على تزكية القلب، وتحلية النفس

بالحقائق الإيمانية، وهو مبنى على اعتبار عدد الحروف المفتتح بها بتكرارها فهى ثمانية وسبعون حرفاً، ويشار بها إلى شعب الإيمان فى حديث أبى هريرة: «الايمان بضع وسبعون شعبة»، فهذه الحروف هى شعب الإيمان، ولاتكمل لأحد أسراره حتى يعلم حقائق هذه الحروف فى سورها، والبضع يصدق على الثمانية فهى المرادة به.

والأقوال السبعة السابقة تتفق فى أنها جعلت تلك الحروف رموزاً لكلمات أو معان معينة.

القول الثامن: أنها أسماء للسور التى افتتحت بها، وهو قول زيد بن أسلم، ونسب إلى الخليل وسيبويه، وقال به جم غفير من السلف والخلف، واختاره الفخر الرازى، وعزاه إلى أكثر المحققين، كما عزاه الزمخشرى إلى الأكثر، واقتصر عليه الإمام محمد عبده، وأقره تلميذه السيد محمد رشيد رضا فى تفسير سورة البقرة من «المنار» ونظروه بالتسمية لما أشبه أسماء الحروف كـ (لام) اسما لوالد حارثة بن لام الطائى، و(عين) اسما للسحاب،، و(نون) اسما للحوت، و(ق) اسما لجبل موهوم، و(حا) اسما لقبيلة من مذحج، وأيدوه بقول شريح بن أوفى:

يذكرنى حاميم والرمح شاجر فهلا تلا حاميم قبل التقدم

وأعترض على هذا الرأى بأمور:

الأول: أن الإشتراك بين مجموعة من السور فى فاتحة من هذه الفواتح بعينها كـ (الم) و(حم) يفيد فائدة التسمية لها.

الثانى: أن التسمية تقتضى الاشتهار ولن تشتهر هذه السور بها، وإنما اشتهرت بأسماء أخرى، كالبقرة وآل عمران ويونس وهود ويوسف.

الثالث: أن العرب لم تتجاوز فيما سمت به مجموع لميمين كمعدى كرب، وبعلبك، ولم يسم أحد منهم بمجموع ثلاثة أسماء أو أربعة أو خمسة، فالقول بأنها أسماء لسورها خروج عن لغتهم.

الرابع: وجوب التغاير بين الاسم والمسمى والقول بإسميتها يقتضى اتحادها.

الخامس: أن هذه الألفاظ داخلة فى السور وجزء الشىء متقدم على جميعه رتبة، واسمه متأخر عنه، فيلزم أن يكون متقدما متأخرا معا، وهو محال.

وأجيب عن الاعتراض الأول بأن الأعلام كثيرا ما تكون مشتركة بين الناس أو البلدان أو غيرهما، وإنما صح الاشتراك لأن العلم يوضع لكل واحد وضعا مستقلا، وما يتبع هذه التسميات من الإضافات وغيرها كاف لتعيين المراد بها.

وعن الثانى: بأنه ورد عنه ﷺ: «يس قلب القرآن»، و«من قرأ حم حفظ إلى أن يصبح» وفى السنن وغيرها أن النبى ﷺ سجد فى (ص). وإذا ثبت فى البعض ثبت فى الجميع إذ لافارق،واشتهار أحد العلمين لايضير علمية الآخر، فكثير من الأسماء مجهولة لايتوصل إلى معرفتها إلا بعد التفتيش لغلبة الكنى أو الألقاب عليها، كأبى هريرة وذى اليدين، وقد يكون عدم الاشتهار لنفس الاشتراك فيترك لاحتياجه إلى ضميمة كـ (الم) هنا.

وعن الثالث: بأن التسمية بثلاثة أسماء فما فوق إنما تمنع إذا ركبت تركيبا مزجيا، وجعلت اسما واحداً، أما إذا نثرت نثر أسماء الأعداد فلا تمنع لأنها من باب التسمية بما حقه الحكاية، وقد وردت التسمية بجملة تركبت من أكثر من كلمتين: كشاب قرناها، وسر من رأى، وقد سوى سيبوية بين التسمية بالجملة، والبيت من الشعر وطائفة من أسماء حروف المعجم.

وعن الرابع: بأن التغيير الحاصل بين الكل والجزء كاف لتسويغ تسمية أحدهما بالآخر، ولذلك كان الحرف الهجائى المسمى جزءاً من اسمه فى الغالب، فلا مانع من العكس، على أن تسميات سور القرآن الكريم غالباً ما تكون كلمة مأخوذة من السورة المسماة.

وعن الخامس: بأن التقدم والتأخر إنما هما بحسب الاعتبارات، الجزء مقدم على الكل من حيث ذاته، ومؤخر عنه من حيث الوصف وهو الأسمية إن اعتبر إسما له، وقد سبق فى الجواب الذى قبله أن غالب التسميات المشهورة لسور القرآن تكون بانتزاع كلمات منها كالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة، والأنعام وهلم جرا

تاسعها: أنها أسماء وقد ذكر هذا الرأى ابن جرير فى تفسيره ونسبه إلى قتادة ومجاهد وابن جريج، ونسبه غيره إلى الكلبى والسدى، ورده ابن عاشور لأنه قد وقع بعد بعضها ما لا يناسبها أن لو كانت أسماء للقرآن، نحو ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ ﴾ (الروم/١-٢). و﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ ﴾ (العنكبوت/١-٢).

عاشرها: أن كل مجموعة مركبة منها هى اسم من أسماء الله، واستؤنس له بما روى عن على أنه كان يقول:

«يا كهيعص، يا حم عشق» وعليه فالحروف المفردة يرجع بها إلى ما يناسبها أن تندرج تحته من الأقوال، وأبطله ابن عاشور فى تفسيره لعدم الارتباط بين بعضها وما بعده بحيث يسوغ أن يكون خبراً أو نحوه عن اسم الله، مثل قوله ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ (البقرة/١-٢). و﴿ الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ

إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) ﴾ (إبراهيم/١).

الحادى عشر: أنها أفعال، فإن حروف (الم كتاب) هى نفس الحروف التى فى (الم) بمعنى نزل، فالمراد من (الم ذلك الكتاب...) نزل عليكم، قاله الماوردى، ورد بأنه لاتقرا بصيغ الأفعال مع عدم إمكان حمل جميعها على هذا التأويل نحو (كهيعص، الر) وهو كما قيل لولا غرابته لكان حرياً بالإعراض عنه.

الثانى عشر: أن هذه الحروف أقاسم (جمع: قسم، أى إيمان) أقسمالله سبحانه وتعالى لها كما أقسم بالقلم تنويها بشأنها، لأن أسماء تألفت من مسمياتها، وهى كذلك أساس التخاطب، ومصدر العلوم، وهذا القول نسبه ابن جرير إلى ابن عباس وعكرمة، ونسبه غيره إلى الأخفش.

الثالث عشر: وهو أشهر الأقوال فى تفسيرها: أنها سيقت على طريقة التهجى مسرودة على نمط التعديد فى التهجية، لإيقاظ شعور السامعين، وإثارة فكرهم، ليدركوا أن هذا الكتاب ـ الذى تحدوا ببلاغته، وحاروا عندما طولبوا بأن يأتوا بأقصر سورة من مثله وهم فرسان البلاغة القابضون على نواصيها والرائضون لعاتيها ومستعصيها ـ إنما هو من جنس كلامهم الذى ألفوه، وحروفه هى نفس الحروف التى يصوغون منها كلامهم، فلو كان صادراً عن ملكات البشر لكان بإمكانهم أن يعارضوه فيقابلوا الكلمة بكلمات، والسورة بسور، ولكن عجزهم دل على أنه فوق مدارك الانهام واسمى من أن تناله ملكات الأنام.

هذاالقول منسوب إلى المبرد وقطرب والفراء، وعليه ابن تيمية والحافظ المزى شيخ ابن كثير المفسر، وانتصر له الزمخشرى فى كشافه أتم الانتصار واختاره الشيخ

ابن عاشور، وذكر أن المناسبة أو وقوعها فى فواتح السور أن كل سورة مقصودة بالإعجاز لقوله تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) ﴾ (البقرة/٢٣). فناسب افتتاح ما به الإعجاز بالتمهيد لمحاولته، وأيده بأن التهجى ظاهر فى هذا المقصد، فلذلك سكتت عنه العرب لظهور أمره، لأن التهجى معروف عندهم، فإذا ذكرت حروف الهجاء على تلك الكيفية التى عهدت فى التعليم فى غير مقامه أدرك السامعون أنهم عوملوا معاملة المتعلم لتشابه الحالين فى العجز عن الإتيان بكلام بليغ،وفى هذا تعريض بهم بمعاملتهم معاملة الصبيان أول تعليمهم القراءة والكتابة، وفى ذلك ما لا يخفى من الإغراء والإثارة على التحدى والمعارضة، كما أيده معظم هذه الحروف نزلت فى أوائل السور المكية، وإنما شاركتها من المدنية والبقرة وآل عمران، ولعل ذلك لنزولها بعيد الهجرة من مكة، وقصد التحدى فى القرآن المكى قصد أولى وعضده أيضا بأن الحروف المختتمة أسماؤها بألف ممدودة كالياء والهاء والراء والطاء والحاء، قرئت فى هذه الفواتح مخففة على طريحة تهجى الصبيان.

الرابع عشر: أنهاتريد بها تعليم العرب الأميين الحروف المقطعة، كما يعلم الصبيان، فإذا وردت عليهم بعد ذلك مركبة أسهل عليهم، وهو قول عبدالعزيز بن يحيى، وهذا لأن العرب ندر فيهم، من قرأ وكتب لأن عنايتهم كانت موجهة إلى فنون الفروسية وطرائق القتال، وكان جلهم أهل بادية لايدعوهم داع إلى تعلم القراءة والكتابة، وإذا وجد بينهم من تعلمها فلا يكون إلافى الحواضر كحواضر اليمن والحجاز، ومع ذلك كانوا قلة نادرة مغمورة بالسواد الأعظم من الأميين ومن حيث أن القرآن نزل قاضيا على الأمية كانت مجموعة من سورة مفتتحة بهذه الفواتح المقتضبة للتهجى الذى هو مفتاح القراءة والكتابة.

واعترض على هذا الرأى بأن الحروف المصدرة بها فى السور ليست جميع حروف المعجم وإنما هى نصفها كما بينه صاحب الكشاف، وبذلك لا يسوغ أن يكون ذكرها للتعليم.

الخامس عشر: أنها حروف أريد بها التنبيه كأدوات النداء، نحو يا فلان التى يراد بها تنبيه ذهن السامع وهو محكى عن ثعلب والأخفش وأبى عبيدة.

قال ابن عطية: كما يقول فى إنشاد أشهر القصائد لا وبل، وفى معناه قول الفخر الرازى فى تفسير فاتحة العنكبوت:

«إن الحكيم إذا خاطب من يكون فى محل الغفلة أو من يكون مشغول البال بشغل من الأشغال، يقدم على الكلام المقصود شيئاً غيره ليلتفت المخاطب لسببه إليه، ويقبل بفكره عليه، ثم يشرع فى المقصود، وذلك المقدم قد يكون كلاما ذا معنى مفهوم كقول القائل: اسمع واجعل بالك إلى وكن لى، وقد يكون شيئاً هو فى معنى الكلام المفهوم كقول القائل: أزيد ويا زيد وألا يا زيد، وقد يكون صوتاً غير مفهوم كم يصفر خلف إنسان لتلتفت إليه، وقد يكون ذلك الصوت بغير الفم كما يصفق الإنسان بيديه ليقبل السامع عليه، ثم إن موقع الغفلة كلما كان أتم والمقصود كان أهم، كان المقدم على المقصود أكثر، ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال: أزيد، والبعيد بيا فيقال: يا زيد، والعاقل ينبه أولا فيقال: ألا يا زيد، ثم قال: إذا ثبت هذا فنقول أن النبى ﷺ وإن كان يقظان الجنان ولكنه إنسان يشغله شأن عن شأن، فحسن من الحكيم أن يقدم فى خطابه حروفاً هى كالمتبهات، ثم إن تلك الحروف إن كانت لا يفهم معناها كانت أتم فائدة لأن المقصود بها إقبال السامع على المتكلم ما بعدها، فلو كانت كلاماً منظوماً وقولاً مفهوماً لربما ظن سامعها أنها غاية المقصود،

وليس شيء وراءها فيقطع التفاته عن المتكلم، أما إن كانت صوتاً بلا معنى كانت أدعى إلى إقبال السامع واستدامة إصغائه للمتكلم لعلمه أن وراءها غاية لم يصل إليها.

السادس عشر: أن تصدير بعض السور بهذه الفواتح أريد به شد انتباه السامعين إلى معجزة القرآن المنزل على النبى الأمى، وذلك أن النطق بهذه الحروف مركبة فى الكلمات أمر تساوى فيه العرب، فلا فرق بين الأميين وأهل الكتاب منهم بخلاف النطق بأسمائها، فإنه كان نادراً لا يتجاوز القراء والكتاب الذين خالطوا أهل الكتاب فاقتبسوا منهم معرفة الكتابة والقراءة، ويستبعد جدا النطق بها من أمى لم تسبق له قراءة أو كتابة استبعاد القراءة والكتابة نفسها، كما سبحانه وتعالى ﴿ وما كُنتَ تَتلُواْ مِن قبلِه من كتابٍ ولاتخُطُّه بيمينك إذاً لارتاب المُبطلون ﴾ (العنكبوت/٤٨).

فكان نطق ﷺ بها يكن هو ولا قومه يعلمونها، ففى كلا الأمرين شهادة على عدم تلقيهما إلا من وحى الله سبحانه وتعالى، إذ مثلهما كمثل المتكلم بلغة أجنبية لمن لم يسمعها من قبل.

وتعقبه الإمام ابن عاشور بأن الأمى لاتعسر عليه التهجية.

السابع عشر: أنها وردت هكذا ليصغى إليها المشركون لمافيها من الغرابة، فينصب فى أذانهم ما يليها من المعانى، والقصص والأحكام، وذلك أهم كانوا يتصامون عنه خشيةتأثيره عليهم ببيانه البليغ، ومعناه الساطع وكما حكى الله عنهم قولهم: ﴿ وقَال الَّذين كفرُوا لا تسْمَعوا لهذا القُرآن والْغوْا فيه لعلكم تغلبون (٢٦) ﴾ (فصلت/٢٦)، فكانت هذه الفواتح وسيلة لإنصاتهم، قاله قطرب، وهو قريب من بعض ما تقدم.

الثامن عشر: أنها علامة لأهل الكتاب وعدوا بها من قبل أنبيائهم فى سور الكتاب الذى ينزل على النبى المنتظر ﷺ.

التاسع عشر: أنها وردت هكذا تنبيها على تركب كلمات القرآن من الحروف لحادثة التى يتركب منها سائر الكلام، ليكون فى ذلك هدم لدعوى من يقول بقدم القرآن من هذه الأمة، وذلك أن الله سبحانه وتعالى علم أن قوماً سيقولون ذلك، فأنزل هذه الحروف لتكون دليلاً على بطلان معتقداتهم.

وتعقبه ابن عاشور بأن هذا وهم، لأن تأليف الكلام من أصوات الكلمات أشد دلالة على حدوثه من دلالة الحروف المقطعة لقلة أصواتها.

العشرون: أنها ثناء الله سبحانه وتعالى بها على نفسه، وقد روى ذلك ابن عباس وهو يرجع أيضاً إلى بعض ما سبق.

قال العلامة الشيخ الخليلى معقباً على هذه الأقوال:

«وأكثر هذه الأقوال ليس بحاجة إلى دليل على ضعفه، ومن ورائها أكثر منها، فإن ما قيل فى هذه الفواتح يناهز مائة قول أو يتجاوزها، فما من اسم من أسماء الله أو صفة من صفاته فيه حرف من هذه الحروف إلا قيل إنه المراد بذلك الحرف، سواد كان فى أوله أو وسطه أو آخره، ومما لا يمارى فيه أن الأقوال - وإن جلت منزلة قائلها - إذا لم تعضدها الأدلة لا تعدو أن تكون دعاوى أعوزتها البينات.

<u>وأدلى بعض العلماء المعاصرين بدلوهم فى هذا المعترك فقالوا:</u>

إن هذه الحروف من أعجب المعجزات والدلالات على صدق الرسول ﷺ وهذا مماترضاه النفوس، حيث أنه ذكر فى فواتيح السور نصف الحروف الهجائية إن لم تعد

الألف وجعلها فى تسع وعشرين سورة عدد الحروف وفيها الألف وأتى بنصف المهموسة ونصف المجهورة ونصف الشديدة، ونصف الرخوة، ونصف المطبقة ونصف المنفتحة. وهذا أمر فيه إعجاز للعقول وحيرة فيقال: كيف تنصف الحروف الهجانية وتنصف أنواعها من مهموسة وشديدة وهذه الأنواع لم يدرسها أحد فى العالم أيام النبوة ثم لما ظهرت تلك الدراسات وافقت تلك الحروف بأنصافها وهذا يعطى العقول مثلا من الغرابة الدالة علي أنهذا لا يقدر عليه المتعلمون فإذا هو من الوحى.

إن الله خلق العالم منظماً محكماً متناسقاً ومتناسباً والكتاب السماوى إذا جاء مطابقاً لنظامه موافقا لإبداعه دل ذلك على أنه من عنده.

والعالم المشاهد فيه عدد الثمانية والعشرين وذلك فيما يأتى:

١- مفصل اليدين فى كل يد أربعة عشر.

٢ - خرزات عمود ظهر الإنسان منها أربع عشرة فى أسفل الصلب وأربع عشرة فى أعلاه.

٣ - خرزات العمود التى فى أصلاب الحيوانات التامة الخلقة كالبقر والجمال والحمير وسائر الحيوانات التى تلد أولادها منها أربع عشرة فى مؤخر الصلب وأربع عشرة فى مؤخر البدن.

٤ - عدد الريشات التى فى أجنحة الطير المعتمدة عليها فى الطير أربع عشرة ريشة ظاهرة فى كل جناح.

٥ - منازل القمر ثمان وعشرون منزلة فى البروج الشمالية أربع عشرة وفى البروج الجنوبية أربع عشرة، فهكذا فى القرآن الكريم جاءت الحروف العربية مقسمة

قسمين قسم منها أربعة عشر منطوق له فى أوائل السور، وقسم منها أربعة عشر غير منطوق به فى أوائلها: وكأنه تعالى يقول « أى عبادى إن منازل القمر ثمان وعشرون قسماً، ومفاصل الكف ثمانية وعشرون وهى قسمان، والحروف التى تدعم فى حرف التعريف أربعة عشر فلتعلموا أن هذا القرآن هو تنزيل منى لأنى نظمت حروفه على النمط الذى اخترته فى صنع الأجسام الإنسانية والحيوانية ونظام الحروف الهجائية، فمن أين لبشركمحمد أن ينظم هذا النظام ويجعل هذه الأعداد موافقة للنظام الذى وضعته، والسكن الذى رسمته والنهج الذى سلكته، إن القرآن تنزيل منى وقد وضعت هذه الحروف السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، بل جعلت النظام فى العالم وفى الوحى متناسباً وهذا الكتاب سيبقى إلى آخر الزمان ولغته ستبقى معه إلى آخر الأجيال.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

١ - الآلوسي، (أبو الفضل محمد بن يعقوب، ت ١٨١٧م) أسباب النزول، القاهرة: مكتبة الأنوار المحمدية، ١٩٨٤م.

٢ - ابن الجوزي (أبو الفرج عبدالرحمن بن علي، ت ٦٦٥هـ)، فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن، تحقيق محمد إبراهيم سليم، القاهرة: مكتبة ابن سينا، ١٩٨٨م.

٣ - الرازي (الإمام فخر الدين محمد بن عمر الشهير بالفخر الرازي، ت ٦٠٤هـ) مفاتيح الغيب، ط٢ (بيروت:دار الفكر، ١٩٨٥م.

٤ - الزركشي (بدر الدين محمد بن عبدالله، ت ٧٩٤هـ) البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار التراث، د.ت.

٥ - السيوطي (جلال الدين. ت ٩١١هـ) التحبير في علم التفسير، تحقيق د. فتحي عبدالقادر فريد، القاهرة: دار المنار للنشر والتوزيع، ١٩٨٦م.

٦ - ـــــ، مفحمات الأقران في مبهمات القرآن، تحقيق إياد.

٧ - الطبري (الإمام محمد بن جرير، ت ٣١٠هـ)، جامع البيان في تفسير القرآن، القاهرة: دار الحديث، ١٩٨٧م.

٨ - ابن عطية (القاضي أبومحمد عبدالحق بن غالب، ت ٥٤٦هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق المجلس العلمي بفاس،توزيع: مكتبة ابن تيمية بمصر، ١٩٩٢م.

٩ ـ الفيروز آبادى (مجد الدين محمدبن يعوب، ت ٨١٧هـ)، بصائر ذوى التميز فى لطائف الكتاب العزيز، تحقيق الأستاذ محمد على النجار ،بيروت: المكتبة العلمية، د.ت.

١٠ ـ القرطبى (أبو عبدالله محمد بن أحمد، ه ٦٧٠هـ)، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧م.

١١ ـ ابن النجاز الحنبلى (محمد بن أحمد بن عبدالعزيز، ت ٩٧٢هـ) شرح الكوكب المنير المسمى بمختصر التحرير فى أصول الفقه، تحقيق د. محمد الزحيلي، د. نزيه حماد،، (جامعة أم القرى بمكة المكرمة: مركز البحث العلمى إحياء التراث الإسلامي، ١٩٨٢م.

ثانياً: المراجع:

١٢ ـ د. إبراهيم زيد الكيلانى وآخرون، علوم القرآن الكريم، وزارة التربية والتعليم بسلطنة عمان، ١٩٨٥م.

١٣ ـ أحمد بن الخليلى (مفتى سلطنة عمان) جواهر التفسير، مسقط: مكتبة الاستقامة، ١٩٨٤م.

١٤ ـ د. زكى أبو سريع، أنوار البيان فى علوم القرآن، القاهرة: دار الطباعة المحمدية/ ١٩٨٢م.

١٥ ـ د. عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء ن ١٩٩٨) الإعجاز البيانى للقرآن الكريم، القاهرة، دار المعارف.

١٦ ـ د. محمد أحمد يوسف القاسم، د. منيع عبدالحليم محمود، علوم القرآن الكريم، القاهرة، دار الطباعة المحمدية، ١٩٨٥م.

١٧ ـ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.

١٨ ـ د. محمد سالم محيسن، في رحاب القرآن الكريم، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٠م.

١٩ ـ د. محمد سعاد جلال، مقالات متفرقة بمجلة منبر الإسلام المصرية.

٢٠ ـ محمد عبدالعظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، القاهرة: مكتبة عيسى البابى الحلبي، د. ت.

٢١ ـ الشيخ. مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ط٨،الرياض، مكتبة المعارف، ١٩٨١.